فالنتين رسبوتين

وداع متيورا

ترجمة:
يوسف حلاق

روايات عالمية «٥٤»



الإشراف الفني: زهير الحمو

وداع متيـــورا

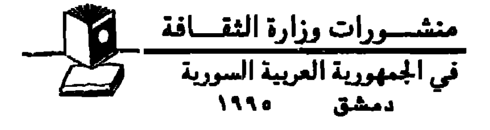
روايـــات عالميـــة

« ٥٤ »

فالنتين راسبوتين

وداع متيورا

ترجمة:
يوسف حلاق



منشورات وزارة الثقافة
في الجمهورية العربية السورية
دمشق ١٩٩٥

العنـوان الاصـلي للكتـاب :

ВАЛЕНТИН РАСПУТИН

Повести

Прощание с Матерой

Пожар

Восточно-Сибирское книжное издательство
1989

روسي

وداع متيورا = *Прощание с Матерой* فالنتين رسبوتين؛
ترجمة يوسف حلاق . – دمشق : وزارة الثقافة، ١٩٩٥ . –
٣١٢ص؛ ٢٤سم.– (روايات عالمية؛ ٥٤).

١- ٧٣ر٨٩١ ر ا س و ٢ - العنوان ٣- العنوان الموازي
٤ - راسبوتين ٥- حلاق ٦- السلسلة

مكتبة الأسد

الايداع القانوني : ع – ٤٩٠ / ٤ / ١٩٩٥

— ١ —

وعاد الربيع مرة أخرى . عاد في ميقاته الأزلي المعهود ، لكنه كان الربيع الأخير بالنسبة إلى متيورا ، البحيرة والقرية اللتين تحملان الاسم نفسه . ومرّة أخرى تصدع الجليد وانقذف في صخب وعنف مراكماً قطعه المتماسكة فوق الضفتين فبان نهر انغارا وقد انعتق من أغلاله ممتداً في مجرى جبار متلالىء . ومرة أخرى هدر الماء بنشاط في رأس الجبل وهو ينحدر في مسربين على حافتي الهضبة . ومرة أخرى اشتعلت الأرض والأشجار خضرة وهطلت الأمطار الأولى وعادت السنونو والخطاطيف وأخذت الضفادع المستيقظة من سباتها تنق في الأماسي في المستنقع الصغير حباً بالحياة وشغفاً بها . هذا كله حدث مرات ومرات وفي كل مرة كانت متيورا في قلب التغيرات الجارية في الطبيعة ، لا تتخلف عنها يوماً ولا تسبقها يوماً . وها هم أولاء الآن قد بذروا حواكيرهم وغرسوها إنما ليسوا جميعاً : فمنذ الخريف ارتحلت ثلاث عائلات وتفرقت في مدن شتّى . وقبلها رحلت ثلاث عائلات أخرى من القرية — رحلت في الأعوام الأولى حين تبين أن الإشاعات صحيحة . بذروا الحبوب كعهدهم دائماً ، إنما ليس في كل الحقول : لم يقربوا الأرض المحروثة فيما وراء النهر بل بذروا هنا فقط ، في الجزيرة حيث المكان قريب. والبطاطا والجزر لم يبذروها الآن في وقت واحد بل كيفما اتفق : كلٌ آن يستطيع ، فقد كان كثيرون منهم يعيشون الآن في بيتين بينهما مالا يقل عن خمسة عشر كيلو متراً من الماء والجبال موزّعي

النفس والوقت والهم مناصفة بين البيتين . كانت تلك متيورا ولم تكن أيّاها : الابنية لاتزال كلها ترتفع في مكانها اللهم إلا بيتا واحداً والحمام الملحق به فقد تم تفكيك أخشابهما ، أما ما عدا ذلك فما زال يعيش ويعمل . الديوك ، كسابق عهدها ، تصيح والثيران تخور والكلاب تنبح . الا أن القرية قد ذوت ، واضحٌ أنها ذوت كشجرة مقطوعة ، مالت، خرجت عن مجراها المألوف. كل شيء في مكانه ومع هذا ليس كما يجب أن يكون : القراص زحف بكثافة ووقاحة أكبر ، النوافذ في البيوت التي خلت من ساكنيها جمدت دون حياة وانفتحت الأبواب على الأفنية فكانوا يغلقونها كما هو المفروض والمألوف في هذه الحالة ، لكن قوة شريرة كانت لا تني تفتحها كيما تنفخ الريح بقوة أكبر ويزداد الصرير واصطكاك الأبواب عنفا ؛ سياجات البيوت من وشيع أو خشب مالت ، والزرائب والسقائف اسودت وسقمت ، والأعواد الخشبية والألواح كانت ملقية دونما فائدة ، فيد صاحب البيت المدبرة التي كانت ترعاها وتعدها لخدمة طويلة لم تعد تمتد إليها قط . بيوت كثيرة لم تُكلّس ولم ترتب بل كانت حتّى نصف خربة نقلت منها أشياء إلى السكن الجديد فكشفت عن زوايا متجهمة منقورة ، وأبقيت فيها أشياء لحاجتهم إليها هنا لأنه كان عليهم أن يختلفوا إليها بين الحين والحين وأن ينقبوا فيها وينقروا . لم يكن يقيم الآن في هذه البيوت باستمرار إلا الشيوخ والعجائز : كانوا يعتنون بالحاكورة والبيت ، ويهتمون بالدواب ويرعون بكثير من الجهد والمشقة الأطفال مبقين في كل شيء على روح الانس والحياة وصائنين القرية من الوحشة والإقفار المتنامي . كانوا يلتقون في الأماسي يتحدثون بصوت خافض وعن شيء

واحد دائماً — عما سيكون ،وكانوا كثيراً ما يصعدون تنهدات ثقيلة وهم يتطلعون بتخوف إلى ما وراء الجهة اليمنى من نهر انغارا حيث كان يجري بناء بلدة جديدة . وكانت الإشاعات التي تصلهم من هناك مختلفة .

* * *

أول رجل قرر قبل ثلاثمئة سنة ونيف أن يقطن هذه الجزيرة كان انسانا ثاقب النظر حصين الرأي اذ رأى أنه لن يجد في أي مكان آخر أرضاً أفضل من هذه الأرض. فالجزيرة تمتد على مساحة خمسة فراسخ ونيف ، وهي لا تمتد على شكل شريط ضيق بل على شكل مكوى ففيها متسع لأرض تحرث ولأشجار ولمستنقع بضفادعه . ومن الجانب السفلي وراء القناة الضحلة المتعرجة كانت جزيرة أخرى تكاد تتصل بمتيورا تُذكر حيناً باسم بود موغا وحيناً باسم بود نوغا . بود موغا (*) — هذا شيء مفهوم ، فما كان يعوز الفلاحين فوق أرضهم كانوا يأخذونه من هنا . أما لماذا بودنوغا فما من أحد أمكنه تفسير ذلك في الماضي ، ومن باب أولى ألا يستطيع أحد تفسيره الآن . لابد أن أحدهم زل لسانه بهذا الاسم فشاع . واللغة ، كما هو معروف ، تكون لطيفة ومُحببة بقدر إغرابها . وهناك في هذا المجال اسم آخر لا يُعرف من أين جاء هو بوغودول . هكذا كانوا يسمون عجوزاً قدم من ديار غريبة اذ كانوا ينطقون الاسم على الطريقة الاوكرانية — بوخغودول . لكن بوسعنا ، هنا على الأقل ، أن نحرز مصدر هذا اللقب . فهذا العجوز الذي كان يدعي أنه بولوني كان محباً للشتائم الروسية مولعاً بها . والظاهر أن أحد المتعلمين الوافدين إلى القرية ، قال عنه في سورة غضب

(*) وتعني بالروسية النجدة أو العون (المترجم) .

بعد أن سمعه « بوغوخول * » فاما ان أهـل القرية لم يتبينوا الكلمة أو انهم لووا السنتهم عن عمد وحو لوها إلى « بوغودول » . وسواء كان الأمر كما ذكرنا أو لم يكن ، وهنا يستحيل الحكم بشكل دقيق ، فان مثل هذا التفسير يرد بالبال .

رأت القرية في حياتها الكثير الكثير. بقربها صعد في القديم القوزاق الملتحون إلى أعالي نهر انغارا ليبنوا سجن اركوتسك . وعليها كان يعرج للمبيت التجار الذين يروحون ويجيئون في تلك الأصقاع ؛ وعندما كانوا يقتادون المعتقلين في النهر ويرون أمامهم شاطئاً مأهولا ، كانوا يجذفون باتجاهه ويوقدون الشعل ويطبخون حساء من السمك الذي يصيدونه في المكان . يومين كاملين ارتفع هدير المعركة بين أتباع كولتشاكوف الذين احتلوا الجزيرة والأنصار الذين تقدموا بقواربهم لاقتحامها من الضفتين . ولم يبق من أتباع كولتشاكوف في متيورا من أثـــر إلا بناء بنوه من الأخشـــاب التي اقتطعوها في الطرف العلوي من رأس الجبل الأقرع . في هذه التخشيبة الأشبه بكوخ كان يعيش في السنوات الأخيرة في فصل الصيف حين ينتشر الدفء العجوز بوغودول كالصرصار . وعرفت القرية الفيضانات حين كان نصف الجزيرة يغوص تحت الماء، في حين كانت شآبيب الماء الفظيعة تدوّم فوق بود موغا التي كانت أقل انحداراً وأكثر استواء . كما عرفت القرية الحرائق والمجاعة والسلب والنهب .

(*) ومعناها بالروسية المجذف (المترجم)

وكانت للقرية كنيستها : كنيسة قائمة كما يفترض أن تقوم في مكان عالٍ مفتوح يرى بوضوح من بعيد من القناتين . هذه الكنيسة حولت إلى مستودع في عهد الكولخوزات . صحيح أنها افتقدت الخدمة الدينية لعدم وجود كاهن فيها حتى قبل هذا التاريخ ، لكن الصليب ظل يعلوها ، وكانت العجائز يتوجهن إليه بالانحناء صباح كل يوم . ثم نُزع الصليب . وكانت لها طاحونة على الرأس العلوي للقناة التي كأنما حُفرت خصيصاً لها ، وكانت طاحونة ذات طحين صحيحٌ أنه ليس بالوفير لكنه غير مُقترض وليس بالديْن ، وكان يكفي أهلها . وفي السنوات الأخيرة صارت طائرة تحط مرتين في الأسبوع في المرعى القديم قرب القرية . وتعود الناس الطيران ، من منهم إلى المدينة ومَنْ منهم إلى مركز المنطقة .

هكذا عاشت القرية حياتها المليئة بالفقر والبؤس ثابتة في مكانها على المنحدر عند الضفة اليسرى تستقبل السنين وتودعها كما تستقبل الماء الذي كانوا يتصلون به بغيرهم من القرى وبقربه يُطعمون منذ الأزل ، وتودعه . وكما كان يبدو أن لا نهاية للماء الجاري ولا حدود له ، بدا أن لا أجل للقرية : يغادر بعضهم إلى المقبرة فيولد آخرون ، تتداعى الأبنية القديمة فتنتصب أخرى . هكذا عاشت القرية تغالب كل الأزمنة ، وكل صروفها ثلاثمئة عام ونيف ترسب فيها على رأس الجبل الأعلى ربما نصف فرسخ من الأرض إلى أن جاء يوم سرت في القرية إشاعة كان لها دوي الرعد : أن لن يكون للقرية حياة أو وجود بعد الآن . فعلى نهر انغارا يُبنى سد لمحطة كهربائية ، وسيرتفع الماء في النهر والأنهر الصغيرة المتصلة به ويفيض ويغرق أراضي كثيرة وفي

طليعتها متيورا طبعاً . وحتى لو وضعت خمس جزر من أمثال متيورا الواحدة فوق الأخرى سيغرقها الماء على أي حال حتى قمتها ولن يكون بوسعك بعدها أن تقول أين كان الناس يسكنون هنا . لابد من الانتقال . ولم يكن من السهل تصديق أن هذا ما سيكون فعلا وأن نهاية العالم التي طالما أخافوا بها الشعب الجاهل باتت قريبة بالنسبة إلى القرية فعلا . فبعد عام من انتشار الشائعات الأولى وصلت إلى القرية في زورق ذي محرك لجنة تقويم وأخذت تحدد مدى استهلاك البيوت وتعيين تعويضها المالي . لم يعد هناك مجال للشك في مصير متيورا ، فهي الآن تعيش سنواتها الأخيرة . وفي مكان ما على الضفة اليمنى كان قد شُرع بباء بلدة جديدة لسوفخوز أخذت تضم إليه الكولخوزات القريبة وحتى غير القريبة ، أما القرى القديمة فتقرر ، كيما لا يشغلوا أنفسهم بما أكل الدهر عليه وشرب ، إضرام النار فيها .

إنما بقي الآن الصيف الأخير . ففي الخريف سيرتفع الماء .

* * *

- ٢ -

كن ثلاث عجائز ، وكن يجلسن إلى السماور يصمتن تارة وهن يسكبن الشاي ويرشفنه من الصحاف ويعدن تارة أخرى وكأنما على مضض وفي فتور إلى حديثهن الواهي المتقطع . كن يجلسن عند أكبرهن — داريا . لم تكن أي منهن تعرف على وجه الدقة سن داريا ، لأن هذه الدقة بقيت حين تعميدها في سجلات الكنيسة التي نقلت فيما بعد إلى مكان لا يعرفه أحد . وكان الحديث يدور بينهن حول سن العجوز على النحو التالي :

— أنا ، يا بنت ، كنت أحمل فاسكا أخي على كتفي حين وُلدتِ .
— هذا ما كانت تقوله داريا لنستاسيا . —كنتُ واعية ،واذكر هذا جيداً.

— ومع هذا انت لا تكبرينني إلا ثلاث سنوات .

— ثلاث سنوات ؟ كنتُ على وشك الزواج فمن كنتِ وقتها ، تذكري ! كنت تركضين دون قميص ! لابد أنك تذكرين زواجي .

— اذكر .

— هو ذا ، فأين لك أن تعادليني ! انت بالنسبة إلي صبية تماماً .

لم يكن بوسع العجوز الثالثة سيما أن تشارك في هذه الذكريات الموغلة في القدم ، فقد كانت وافدة غريبة حملتها الصدف إلى متيورا منذ أقل من عشر سنوات ، وإلى متيورا كانت قد حملتها من بودفولوتشنايا

وهي أيضاً قرية على نهر انغارا ، وإلى هناك كانت قد حملتها من ضواحي تولا . وكانت تقول إنها رأت موسكو مرتين : مرة قبل الحرب ومرة أثناء الحرب ، الأمر الذي كان أهل القرية بحكم عادتهم الأزلية في عدم الوثوق كثيراً بما لا يستطيعون التأكد منه يقابلونه بابتسامة خفيفة ساخرة . فمن أين لسيما العجوز الطائشة التي لا يعرف لها أصل ولا فصل أن ترى موسكو إذا كان أي منهم لم يرها ؟ وماذا يغير في الأمر إن كانت تعيش قريباً منها ؟ فإلى موسكو لا يُدخلون الجميع دون استثناء . ولم تكن سيما تغضب وتصر ، بل كانت تصمت لتعود بعد بعد ذلك فتكرر نفس ما قالته ، الأمر الذي أكسبها لقب الموسكوفية . وهذا اللقب ، بالمناسبة ، كان يليق بها : فقد كانت سيما جد نظيفة ومرتبة ، ملمة بالقراءة والكتابة ، تحتفظ بكتيب أغان يرفدها بين الحين والحين حين يواتي المزاج بأغنيات شجية بطيئة وطويلة عن المصير المر يرتفع بها صوتها . ومصيرها كما يبدو لم يكن بالمصير الحلو فعلا إذا كان قدر لها أن تبتلى بكل الذي ابتليت به وان تترك أثناء الحرب أرضها التي نشأت فيها وأن تلد ابنتها الوحيدة والخرساء إلى ذلك ، وان تبقى الآن في آخر سني حياتها مع حفيد صغير بين يديها لا تعرف متى وكيف تجعله يقف على قدميه . لكن سيما لم تفقد حتى تلك اللحظة الأمل في العثور على عجوز يمكنها أن تجد الدفء إلى جانبه ويمكنها أن ترعى شؤونه — أن تغسل له وتطبخ وتقدم الطعام . ولهذا السبب بالذات وجدت نفسها آنذاك في متيورا : فبعد ان سمعت أن الجد مكسيم بقي عازباً انتظرت من باب اللياقة مرور المهلة المتعارف عليها وارتحلت من بودفولوتشنايا حيث كانت تعيش وتوجهت إلى الجزيرة تبحث عن

سعادتها . لكن السعادة لم تأت : فقد عاند الجد وأمعن في العناد ، والنساء اللواتي لم يكن يعرفن سيما حق المعرفة لم يساعدن في شد الأواصر . فعلى الرغم من أن الجد لا يحتاج إليه أحد ، إلا أنه واحد منهم ويعز عليهن ان يدسسنه تحت ضلع غريب . والأرجح ان الجد مكسيم أفزعته وأخافته فالكا ابنة سيما الخرساء التي كانت أضحت آنذاك كبيرة تجمجم بصوت عالٍ ومزعج بشكل غريب ، متوترة الأعصاب مطالبة دائماً بشيء ما لنفسها . وبمناسبة هذه الخطوبة الفاشلة شاع في القرية القول الساخر « أم السيم وما صادت مكسيم » ، لكن سيما لم تبد استياء ، فلم تركب النهر عائدة إلى بودفو لوتشنايا ، بل بقيت في القرية بعد ان انتقلت إلى بيت صغير مهجور في الطرف السفلي منها . وهناك زرعت حاكورة ونصبت نولاً وأخذت تنسج عليه من الخرق البالية بُسُطاً لأرض الغرف ، وبهذا كانت تقيم أودها . أما ابنتها فالكا فكانت طوال مكوثها مع أمها تذهب إلى الكولخوز .

والآن كان كولكا حفيدُ سيما ولُقية ابنتها فالكا ، وهو صبي في الخامسة من عمره ، يجلس ملتصقاً بجدته . لم يكن الصبي يشبه أمه ، لم يكن أخرس لكنه كان يتكلم نادراً وبشكل رديء ، وكان ينمو متوحشاً فزعاً لا يبتعد عن جدته . لم يكن صبياً بل بتاً . وكانت العجائز يشفقن عليه ويلاطفنه فما يزداد الا التصاقاً بجدته وهو ينظر إليهن نظرات متفهمة أكبر من سنه فيها مرارة ووداعة .

— من أنت حتى تنظر إلي هكذا ؟ — كانت داريا تقول متعجبة . — ماذا ترى ورائي ، هل ترى موتي ؟ أنا أعلم به بدونك . ما لك تجمدت أيها الأخرس كالمسمار !

– ليس أخرس ، – كانت سيما ترد باستياء وهي تضم كولكا إليها .

– ليس أخرس ، لكنك لا تراه إلا صامتاً .

ومرة أخرى قطعن الحديث وقد أوهنهن الشاي والشمس الساطعة المائلة الدافقة من النافذة المطلة على الغرب . كانت العجوز داريا ، وهي امرأة طويلة ضامرة أطول من جارتها سيما الجالسة إلى جانبها، تومىء برأسها موافقة على أمر ما وهي تثبت في الطاولة وجهها الصارم الشاحب بوجنتيه المتهدلتين . كانت على الرغم من سني عمرها ما تزال تقف على قدميها وتملك يديها وتقوم بأعمال البيت التي بامكانها أن تقوم بها والتي لم تكن بالقليلة على أي حال . ها هو ذا ابنها الآن وكنتها في بيتهما الجديد يأتيان إليها مرة في الأسبوع وأحياناً أقل . والحوش كله والحاكورة كلها على عاتقها ، وفي الحوش بقرة وعجلة وعجل من مواليد الشتاء وخنزير ودجاجات وكلب . قيل للعجوز ، هذا صحيح ، أن تستعين حين لا تستطيع أو حين تكون متوعكة الصحة بجارتها فيرا . لكن الأمر لم يبلغ حتى الآن هذا الحد ، فقد كانت داريا تتدبر أمورها بنفسها .

كان حزيران في أوائله ، وكانت النهارات تتصل صحوةً مشمسة لا يقطعها إلى حين إلا ليال قصيرة معتمة .

الجزيرة وسط الماء لا تعرف الحر . وفي المساء حين يسكن الهواء وينبعث البخار الدافىء من الأرض الساخنة كان ينتشر شعور بالبهجة والهناء والسكينة والسلام وكانت الخضرة التي نهضت بالجزيرة وزادتها ارتفاعاً فوق الماء تلمع أمام العين بكثافة ونضرة ، وكان نهر انغارا يجري

فوق الحجارة والصخور برنين صاف مرح ، وكان كل شيء يبدو ثابتاً أبدياً بحيث كان يتعذر على أي كان أن يؤمن بأي شيء ــ أن يؤمن بأن هناك انتقالاً ، وبأن هناك غمراً وبأن هناك فراقاً . هذا ناهيك عن بواكير الزرع الطالعة في الحقول والحواكير في انسجام والأمطار الهاطلة في وقتها والدفء الآتي في وقته ، وهذا التوافق النادر الواعد بالخير الوفير ؛ إنه الصيف في حلوله المتمهل المنشود ...

ــ عندما انهض في الصباح وأصحو ... أوه ، قلبي يحرن ويتوقف ــ كانت العجوز نستاسيا هي التي تتكلم . ــ يا ربي ! ... ويغور يبكي ويبكي ، وأقول له « لا تبك يا يغور ، لا داعي » ويقول لي : « كيف لا أبكي يا نستاسيا ، كيف لا أبكي ؟ ! » . وهكذا أروح أسعى بقلب ثقيل كالحجر ارتب وانظف . وانظر حولي : داريا أيضاً تسعى ، وفيرا تسعى ودومينيدا وأشعر أن الألم يزاولني قليلا . وأقول في سري : لعلهم يريدون تخويفنا وحسب ، فهم لن يفعلوا شيئاً .

ــ ولماذا يخوفوننا سدى ؟ ــ تساءلت داريا .

ــ كي لا يكون بيننا إلا خائفون .

بعد أن بقيت نستاسيا ويغور وحدهما تماماً (ابنان لم يعودا من الحرب والثالث سقط مع جرار تحت الجليد وغرق ، وابنتهما ماتت في المدينة بالسرطان) أخذت نستاسيا تبدي بعض الغرابة في أطوارها وتقول في حق عجوزها أشياء كلها شكوى ووجع : فهو حيناً كاد يموت متسمماً بغاز الفحم ما ان فارقته قليلا ، وحيناً ظل يصرخ طول الليل لأن أحدهم كان يخنقه من داخله ، وحيناً ثالثاً يظل يبكي « سبح في دمعه بعد أن

بقي يومين يبكي ، مع ان الجميع كان يعرف ان الجد يغور لا ينزل دمعته فوراً هكذا . عنفها الجد يغور أول الأمر وهددها وحاول أن يعلمها ويُفهمها ، ولما لم يجد هذا كله تركها وشأنها . كانت فيما عدا ذلك انسانة سوية سليمة أما هنا فكسن لولبٍ التوى وتخلخل تروح تحكي عما لم يحدث وما كان ممكناً أن يحدث. كان الطيبون من الناس يحاولون ألا يلاحظوا هذا الخبل البريء في نستاسيا ، أما غير الطيبين فكانوا يسألونها :

— كيف حال يغور اليوم ، حي أليس كذلك ؟

— أوه ! — كانت نستاسيا تقول كمن يتذكر فجأة ، — يغور ، يغور ... كاد يموت الآن . العجوز ضيع عقله ، قام وفقأ ثؤلولة، كاد النزيف يميته ، طستاً كاملا من الدم نزف .

— والآن كيف ؟ هل توقف الدم ؟

— توقف طبعاً بعد أن خرج كله . الآن أخذ يتنفس إنما بصعوبة آه كم أشفق عليه . أنا ذاهبة الآن لأرى ما به .

أما الجد يغور فكان في هذا الوقت يدب في الجانب الآخر من الطريق وهو يرميها بنظرة حانقة وعاجزة : مرة اخرى عادت هذه الممسوسة ، قطع الله لسانها ، تحكي عنه قصصاً لا أساس لها .

كان من نصيبهما أن يكونا أول من يودع متيورا ، اذ حين انتهى الأمر إلى التوزيع أي إلى تحديد المكان الذي سينتقل الواحد منهم إليه سجل يغور اسمه غضباً أو ارتباكاً في عداد الراغبين في المدينة ، تلك المدينة إياها حيث كانت تُبنى المحطة الكهرمائية . هناك كانت تبنى خصيصاً

بنايتان لأمثاله الوحيدين المساكين من منطقة الغمر . وكانت الشروط على أساس التبادل : لم يكونوا يُعطوْن كوبيكا لقاء بيتهم ، وبالمقابل كانوا يتسلّمون شقة في المدينة . وحتى الجد يغور ، وليس بدون دفع وتحريض وتذمر مستمر من قبل نستاسيا ، غير رأيه فيما بعد وأراد استبدال المدينة بالسوفخوز حيث يُعطى هنا أيضاً شقة ويُدفع له مال ، لكن تبين ان الوقت قد فات وان الاستبدال بات متعذراً .

— السوفخوز يخصص شققاً للعاملين فأي عامل أنت ، —كان رئيس مجلس القرية فورونتسوف يقنعه .

— لقد أعطيت حياتي كلها للكولخوز .

— الكولخوز أمر آخر . لم يعد هناك وجود للكولخوز الآن .

كانوا قد أرسلوا مرتين من المنطقة إلى يغور يستعجلونه في الانتقال ، فالشقة المخصصة له ولنستاسيا جاهزة تنتظرهما ، لكن العجوزين كانا يتماهلان ولا يحركان ساكناً وكأنهما يحاولان قبل الموت ملء صدريهما بهواء القرية التي ولدا فيها وعاشا . زرعت نستاسيا الحاكورة وبدأت عملاً هنا وعملاً هناك كيما تؤجل فقط ، كيما تخدع نفسها . لكن موظف المنطقة صاح عليهما في آخر مرة غاضباً متوعداً بأن غيرهما سيشغل الشقة وأنهما سيبقيان على الحصير . وعندها قرر الجد يغور : إن كان لابد من الرحيل فلنرحل وقال لنستاسيا بكلام قاطع :

— فلتكوني جاهزة تماماً على عيد العنصرة .

ولم يكن باقياً على عيد العنصرة سوى اسبوعين .

— بالمقابل لاهم هناك ولا غم ، — كانت داريا تقول لنستاسيا

بلهجة لا تدري أهي لهجة سخرية أو طمأنة . — لقد زرت ابنتي في المدينة ورأيت عجباً : أمامك ، ودون أن تتحركي من مكانك ، الانغارا والغابة وحمام بمرحاض ، وإذا أردت بامكانك ألا تظهري في الشارع عاماً كاملا . والحنفية كما في السماور تديرينها فيجري الماء ، في حنفية ماء بارد وفي حنفية أخرى ماء ساخن . والفرن لا تحتاجين إلى القاء الحطب فيه ، هو أيضاً بحنفية ، تضغطين فتسري الحرارة . اطبخي وهبّلي ماشئت . أين أنا وأنت من هذه النعم كلها ؟ وهذا لتدليل ربة البيت وتدليعها . والخبز ؟ هناك لا يخبزونه بل يشترونه ولعدم تعودي ولاستغرابي شهقت وأنا أرى هذه الحنفيات فكانوا يسخرون من اندهاشي . والمدهش أكثر هو كون الحمام والمرحاض في زاوية واحدة قرب المطبخ كما عند الكفار . وهذا ليس بالأمر السهل، تجلسين لقضاء حاجة ، وانت ترتعدين وتتعذبين مخافة أن يسمعك الجالسون إلى الطاولة . والحمام ... يا له من حمام ! مسخرة ، يكاد لا يكفي لغسل طفل رضيع ومع هذا يدخلونه فيقرقر الماء ثم يخرجون مبللين . ستذهبين إلى هناك يا نستاسيا وتستلقين كسيدة حقيقية وكل شيء يأتيك إلى البيت ، كل شيء موجود ، لا حاجة لأن تمدي يدك . ثم هذا ... هذا الذي اسمه « التلفون » اقتنيه . هو يقول لك : درن — درن وأنت له : لي — لي وينتهي الحديث وتعودين إلى الإستلقاء على جنبك من جديد .

— آه ، لا توجعي قلبي ! — كانت نستاسيا تجيبها وهي يكاد يغشى عليها فتضم يديها الرخوتين إلى صدرها وتغمض عينيها . — هناك

أموت خلال اسبوع من ضجري . ليس حولي إلا أغراب في أغراب ! من ينقل شجرة قديمة ؟ !

— سينقلوننا كلنا يا بنت ، وليس انت وحدك . كلنا طريقنا إلى هناك ، إلا إذا أخذنا الله إليه قبل هذا .

كانت نستاسيا تهز رأسها بعدم الموافقة :

— لا تساوي ، يا داريا ، بيننا ، لا تساوي ! أنتم ستكونون في مكان واحد معاً وأنا سأكون وحدي. انتم الذين من متيورا ستجتمعون معاً ، وهذا سيخفف عنكم فكأنكم في بيتكم لم تغادروه . أما أنا فآه ماذا أقول ؟

— كم عددنا جميعاً ؟ — كانت داريا تجيبها بالعقل والمنطق . — لم يبق أحد . انظري : أغافيا أخذوها ، فاسيليسا أخذوها ، ليزا يغرونها بالانتقال إلى مركز المنطقة ، ابن كاترينا لم يختر له مكاناً حتى الآن ، يروح ويجيء كالمجنون ، وأين يجد الوقت للاختيار مادام لم ينفق آخر كوبيك معه على الشرب ؟ وناتاليا تقول : ربما ذهبت إلى ابنتي على نهر لينا ...

— تاتيانا ودومنيدا وانت وتونغوسكا . .. ستكون منكن شلة جيدة وليس كوقوقتي وحيدة .

— هذه كل متيورا . يا إلهي ؟

— أما أنا فلا أقول شيئاً عن نفسي. سأخرس وأظل خرساء ، — استدركت سيما بحزن وأسى وضمت إليها كولكا من جديد . — سآخذ أنا وكولكا زورقاً ونمضي به على وجوهنا حتى إلى البحر المحيط ...

لم يكن لسيما أملاك ولم يكن لها أقارب ، فلم يكن أمامها إلا طريق واحد — مأوى العجزة . لكن حتى على هذا الطريق ظهرت الآن كما تبين عقبة هي كولكا الذي كانت متعلقة به حتى الهوس ، إذ لم يُبدوا حماسة في أخذها مع طفل صغير . كانت فالكا ابنة سيما الخرساء قد ضلت وضاعت . فبعد أن كبرت فالكا وعرفت رجلاً وثانيا وثالثاً استمرأت هذا الأمر وأحبته حتى صارت هي نفسها تتهالك على ألاعيب الليل . وما لبثت أن خرجت من هذه الألاعيب بكولكا . أخذت سيما تتعقبها وتلاحقها بالعصا والامهات والزوجات يقذفنها بكل ما في قاموسهن الغني من لعنات وشتائم فما تزداد الا عنفا وحماسة وتهوراً إلى أن هربت . وها هي ذي منذ أكثر من عام لا حس عنها ولا خبر . قال القائلون لسيما أن تبلغ المباحث ، لكن في ظل الفوضى والتحركات التي بدأت على نهر انغارا ومع بكم فالكا ونقص الوثائق عنها كان من الصعب العثور عليها .

— حتى لو وجودها لن اعطيها كوليا مهما كان ، — كانت سيما تردد . — وحتى لو زحفنا أنا وكوليا إلا اننا سنزحف معاً على حبل واحد .

— لماذا لا تعلمينه الكلام كما يجب ، — كانت داريا تلومها . — سيكبر وعندئذ لن يقول في حقك كلمة طيبة .

— إني أعلمه ، وهو يستطيع الكلام ، إلا أنه صموت .

— « أكلها » الصغير صدمة . إنه يفهم كل شيء .

— « أكلها » .

أخذت داريا كأس نستاسيا دون أن تسألها رأيها وسكبت فيها من ابريق الشاي المغلي ووضعتها تحت السماور ، وهو سماور كبير من ذلك النوع الذي كان التجار يقتنونه ، قديم الصنعة ، مصبوب من نحاس أحمر صاف ، ذو قاعدة متشابكة منمقة على قوائم ثابتة ذات تقويسات جميلة يضطرم فيهـــا الجمر . انبجس من الصنبور خيط كثيف متسق دون رشاش — الماء المغلي مازال وفيراً إذن — وأزّ السماور الذي أقلقت راحته أزيزاً رفيعاً . ثم سكبت داريا لسيما وأضافت لنفسها . وبعد أن أخذت نفساً واستعددن ومسحن عرقهن بدأن جولة جديدة فكن ينحنين وهن يتأوهن وينفخن في الصحاف ويرشفن بشفاه ممطوطة الشاي في حذر .

— إنها الكأس الرابعة ، — صاحت نستاسيا .

— اشربي يا بنت ، ما دام الشاي حياً . هناك لا يمكنك أن تضعي سماورا . في شقتك تلك ستغلينه بالطنجرة .

— لماذا الطنجرة ؟ سأملأ ابريق الشاي .

— الشاي بدون سماور ليس بشاي على أي حال ، إنه لبلّ الريق فقط ، ليس له طعم. كشربة ماء ليس إلا .

وابتسمت داريا ابتسامة خفيفة اذ تذكرت أن الشقق في السوفخوز أيضاً تصنع بنفس الطريقة التي تصنع بها في المدينة ، وأنها ستجبر على العيش في نفس الظروف التي ستعيش فيها نستاسيا ، وأنها عبثاً تخوف نستاسيا ، فلا أحد يدري إن كانت هي نفسها ستتمكن من نصب السماور . لا ، السماور لن تلغيه ، بل ستضعه ولو فوق السرير ،

أما ماعداه فسترى ما تصنع به . ثم قالت دون بمناسبة وكأنما أضاعت خيط الحديث بصوت استبد به غضب مفاجىء :

– لو كان الأمر لي لما تحركت من هنا ، وليغرقوني إذا كان هذا يلزمهم .

– يفعلونها ، – ردت سيما .

– ليكن ، الموت واحد فمم الخوف ؟

– آه ، فظاعة الموت غرقاً ، – قالت نستاسيا محذرة في ذعر . – إنه إثم . الأفضل أن يدفنونا في الأرض . أهلنا من قبلنا وضعوهم هناك ونحن أيضاً مكاننا هناك .

– أهلك سيعومون فوق الماء .

– سيعومون ، هذا صحيح ، – قالت نستاسيا موافقة بصوت حذر جاف .

ولكي تحول داريا مجرى هذا الحديث الذي بدأته هي نفسها قالت متذكرة :

– مالبوغودول لم يأت اليوم !

– لابد أنه واصل عما قريب ، بوغودول لم يتخلف يوماً .

– معه تشعرين بالإثم وبلدونه بالضجر .

– بوغودول قلت ! إنه طير من هذه الطيور لكنه طير ضخم !

– ارسمي إشارة الصليب يا نستاسيا .

– عفوك يا ربي ! – قالت نستاسيا واستدارت نحو الأيقونة في

الزاوية ورسمت إشارة الصليب مذعنة ثم تنهدت تنهيدة ضيق يخالطها نشيج ورشفت من الصحيفة ورسمت إشارة الصليب ثانية وهي تستغفر ربها هذه المرة بصوت هامس .

كانت الجمرات في السماور ترمد وكانت تنبعث منها رائحة شهية ممزوجة برائحة غاز الفحم وكان غبار الشمس الكثيف الساكن تقريباً يتدلى فوق الطاولة خيوطاً كسولة مائلة ، وكان الديك فوق السور يخفق بجناحيه ويصيح ويتقدم من النافذة بخيلاء على قائمتين قويتين كأنهما مفتولتان فتلاً ويتطلع منها بعينين حمراوين وقحتين . ومن النافذة الأخرى كان يرى فرع نهر انغارا ومجراه المتلألىء تحت أشعة الشمس ، والضفة على الجانب الآخر من النهر تزين مرجها الصغير أشجار البتولا وبطم الشمال في تفتحها المؤار . ومن الباب المفتوح على على الطريق كانت تصل رائحة جافة عفنة منبعثة من السقائل والجسور الخشبية الصغيرة التي سخنتها الشمس . وقفزت دجاجة إلى العتبة ومدت رقبتها البشعة نصف المنتوفة وأخذت تنظر إلى العجائز : أهن على قيد الحياة أم لا ؟ ضرب كولكا الأرض بقدمه أمامها فانتفضت واندفعت عائدة وهي تطلق قأقأة عالية . لكنها لم تمض بقاقأتها بعيداً بل توقفت في الفسحة الخارجية أمام الباب . وفجأة تململت ودست نفسها في المدخل ، ثم أخذت تثب على الجدران ، وبعد أن رمت المغرفة من برميل الماء عادت طائرة إلى البيت وقد بلغ بها اليأس أشده وأقعت مستعدة لأسوأ الاحتمالات حتى ولو كان الذبح بالفأس . ودخل إثرها عجوز أشعث الشعر حافي القدمين وهو يدمدم ودفع الدجاجة بعصاه وألقى بها في المدخل . ثم نصب قامته ورفع إلى العجائز عينين صغيرتين

غائرتين تماماً وصرخ :

— « عكروت !

— هو ذا الانسان الطيب على عكازه .. — قالت داريا دون دهشة وهبت تحضر له كأساً . — لم يتأخر . ونحن اللواتي كنا نقول من دقيقة ما له لم يأت . اجلس قبل أن يبرد السماور تماماً .

— عكروت ! — صرخ العجوز ثانية وكأنه ينعب . — سماور ! ينهبون الأموات وانت تقولين سماوز !!

— ينهبون من ؟ بماذا تهرف ؟ ! — كانت داريا قد سكبت الشاي لكنها لما تسحب الكأس من تحت الصنبور . كانت الآن في غاية التوجس والحذر . فقد صاروا في زمن لا يمكنك فيه تصديق ما يجري وإن كان لا مفر من التصديق . فلو قال قائل ان الجزيرة انخلعت من مكانها وتطايرت مثل ريشة عليك أن تسرع وترى إن لم تكن تطايرت فعلا . كل ما كان إلى وقت قريب يبدو أبدياً راسخاً كالصخر صار يهوي إلى جهنم بسرعة يزيغ معها البصر .

وكان بوغودول يصرخ وهو يضرب الأرض بعصاه :

— يقطعون الصلبان ، ينشرون الشواهد !

— اين ، في المقبرة يا ترى ؟ تكلم بوضوح .

— هناك .

ـ منْ ؟ لا تزهق أرواحنا ، تكلم . ـ كانت داريا قد هبت واقفة وخرجت من وراء الطاولة . ـ من الذي يقطع وينشر ؟

ـ أغراب . شياطين .

ـ من عساهم يكونون ؟ ـ زفرت نستاسيا . ـ يقول : شياطين .

وقالت داريا بابهجة آمرة وهي تربط على عجل منديلها الذي انحل أثناء شرب الشاي . :

ـ أسرعن يا بنات . . إما انه أصيب في عقله أو انه يقول الحقيقة .

* * *

— ٣ —

كانت المقبرة تمتد عند مشارف القرية على طريق المطحنة فوق كثيب رملي جاف بين أشجار البتولا والصنوبر ، ومن هناك كان ينكشف نهر انغارا وضفتاه حتى البعيد البعيد .

كانت داريا تسير في المقدمة منحنية بشدة إلى الأمام ، مادة يديها كمن يريد أن يقطف شيئاً ، زامة شفتيها بصرامة بحيث بان فمها الأدرد . وكانت نستاسيا تمضي إثرها تكاد لا تلحق بها إذ كان ضيق النفس يخنقها فكانت تومىء برأسها وهي تحاول عب الهواء في صدرها . وبعدهما كانت سيما تدب وهي تمسك بيد الصغير . أما بوغودول الذي أثار الهياج في القرية فقد كان متخلفاً عنهن . ووصلت العجائز وحدهن إلى المقبرة ..

اولئك الذين سماهم بوغودول الشياطين كانوا على وشك أن يفرغوا من عملهم بعد أن نقلوا الشواهد وأخشاب السياج والصلبان وجمعوها كومــة ليضرموا فيها النــار دفعة واحــدة . كان أحــد الرجلين ، وهو بدين قوي البنية كالدب يرتدي سترة خضراء مشمعة وبنطالاً من نفس اللون ، يخطو بين القبور وهو يحمل بيده حزمة من الشــواهد الخشبية العتيقة حين وثبت داريا بآخر ما فيها من قوة إلى الأمام وألهبت ذراعه بضربة جانبية من عصا كانت قد التقطتها . كانت الضربة خفيفة لكن الرجل رمى ما بين يديه لارتباكه وقال مبهوتاً :

— ما هذا ، ما هذا يا « حرمة » ؟

ـ غُرْ من هنا يا ابن الأبالسة ! ـ صرخت فيه داريا وهي تختنق خوفاً وغضباً ولوحت بعصاها . وتراجع الرجل .

ـ مهلك ، مهلك يا حرمة . لا ... لا تشغّلي يديك والاربطتهما . انت ... انتن ... ـ ورشقهن بنظرة من عينيه الحمراوين الواسعتين . ـ من أين ظهرت هنا ؟ أمن القبور يا ترى ؟

ـ غُرْ من هنا ، قاتَلُك ! ـ وانقضت عليه فتراجع القهقرى وقد صعقه مظهرها المخيف المستعد لأي شيء . ـ غُر فوراً من هنا أنت ونفسك الرجسة ! يدنسون القبور ! ... ـ وأعولتْ داريا . ـ هل دفنتهم هنا ؟ أبوك ، أمك هل يرقدان هنا ؟ أولادك ؟ لم يكن لك أب وأم أيها النجس . انت لست انساناً . أي انسان تطاوعه نفسه على فعل ما تفعل ؟ ـ وألقت نظرة على الصلبان المجمعة والملقية كيفما اتفق وأعولت بصوت أرفع : أو ـ أو ! امحقة يا رب في مكانه ، لا ترحمه ، لا ترحمه ! لا ، لا ، ـ وانقضت عليه من جديد . ـ لن تخرج من هنا هكذا . ستتحمل المسؤولية ، أمام الناس كلهم ستتحمل المسؤولية .

ـ إليك عني يا حرمة ! ـ جأر الرجل . ـ تقولين : مسؤولية . أمروني وأنا أنفذ . مالي ولأمواتكم .

ـ من الذي أمرك ؟ من الذي أمرك ؟ ـ وثث سيما نحوه من الجانب الآخر دون أن تفلت يد كولغا . أخذ الصغير ينشج ويشدها إلى الخلف بعيداً عن « العم » الهائل الهائج فتراجعت مستسلمة دون أن تكف مع هذا عن الصراخ : ـ لم يبق على هذه الأرض شيء اسمه مكان مقدس بالنسبة إليكم ! ظُلاّم !

خرج من بين الشجيرات على هذه الضوضاء رجل ثان . كان أصغر من الأول وأفتى وآنق ، لكنه كان كالأول شديد البأس ويرتدي نفس

ثوب العمل الأخضر المشمع . خرج وبيده فأس وتوقف قليلا وزرّ عينيه.

— تعال انظر ، — قال له الرجلُ الدبّ مبتهجاً بظهوره . — هجموا علي كما ترى .. ويلوحون بعصيهم .

— ما الأمر أيها المواطنون أهل الغمر ؟ سأل الرجل الثاني برزانة . — نحن فريق صحي نقوم بتطهير بأمر من « سان إيبيد ستانسيا * » .

بدت الكلمة غير المفهومة ، الغريبة على نستاسيا سخرية منها .

— ماذا تقول ؟ — صاحت نستاسيا وهي تنصب قامتها ، — تهزأ بالعجائز ! أنت شيطان رجيم بل انتما الأثنان شيطانان رجيمان ! ليس هناك قصاص يليق بكما . وأنت لا تخوفني بفأسك : إرم الفأس من يدك .

— يا لها من مفاجأة لطيفة ! — قال الرجل وشك الفأس في صنوبرة إلى جانبه .

— ولا تضيق عينيك . انظروا ، إنه يضيق عينيه أيضاً كعيون قطاع الطرق . ما هذا الذي فعلتماه ؟

— ما هذا الذي فعلته أيديكما ؟ ما هذا الذي اقترفته أيديكما ، — رددت داريا وولولتْ . كانت القبور المتفرقة المعراة ، التي انقلبت كلها إلى كثبان خرساء ، والتي كانت تنظر إليها في وجسع مجموم محاولة فهم الفعلة المقترفة فما تزيدها هــذه إلا تجهماً ، أذكت بمنظرها المشوه غضب داريا من جديد . فانقضت مرة أخرى ، وهي لا تعي نفسها ، على « الدب » الواقف قربها بالعصا لكنه اعترضها وانتزع العصا من يدها . سقطت داريا على ركبتيها ، ولم يكن فيها من القوة

* اختزال العبارة : مركزالوقاية من الأوبئة .

ما يجعلها تنتصب على الفور لكنها كانت تسمع كيف كانت سيما تصرخ بأعلى صوتها ، وكيف كان الولد يصرخ ، وكيف كان الرجلان يجيبانهما بصراخ مماثل ، ثم تعاظم الصراخ الذي تلقفته أصوات أخرى وامتد . أمسك أحدهم بداريا يساعدها على النهوض ، ورأت داريا أناساً يهرعون من القرية . كانت هناك كاترينا وتاتيانا وليزا وأطفال صغار وفيرا والجد يغور وتونغوسكا وبوغودول وأشخاص آخرون . كانت الضوضاء غير معقولة ، وكانوا قد طوقوا الرجلين قبل أن يتمكنا من إبداء أي رد فعل . تناول بوغودول الفأس المشكوكة في شجرة الصنوبر وأخذ يلوح بها بيده المسحوبة إلى الوراء مستعداً لان يهوي بها على رأس « الدب » بينما كان يغرز بيده الثانية عصاه العقداء الحادة في صدره . وكان الجد يغور ينظر بصمت وبلادة إلى الصلبان والنجوم المحطمة المتساقطة على شواهدها تارة وإلى الرجلين اللذين فعلا كل هذه الفعلة تارة أخرى . ولمحت فيرانو ساريفا ، وهي امرأة شديدة جسورة ، صورة أمها على إحدى القواعد فانقضت على الرجلين في ضراوة جعلتهما يشعران بالذعر حقاً فأخذا يتراجعان محاولين الدفاع عن نفسيهما . وارتفعت الجلبة والضجيج بقوة أكبر .

— فيم الكلام معهما ؟ يجب الإجهاز عليهما هنا جزاء فعلتهما ، إنه أنسب مكان .

— لكي يعرفوا ... الكفارُ !

— لماذا ندنس بهما المكان ؟ فلنلق بهما في الانغارا !

— ولم تتيبس أيديهما مع هذا ! من أين يأتي أمثال هؤلاء ؟

ـ كأنهمايقلعان جزراً ... هذا لا يدخل في عقل !

ـ يجب أن نطهر الأرض منهما ، وستشكرنا الأرض على هذا .

ـ عكاريت !

حاول الرجل الثاني ،الأقنى ؛ وقد رفع رأسه كالديك وراح يسعى بينهم يمنة ويسرة أن يطغى بصوته على أصواتهم :

ـ ونحن ما دخلنا ؟ نحن ما دخلنا ؟ ! افهموا . اعطونا أمراً وأتوا بنا إلى هنا . لم نأت من تلقاء انفسنا .

وكانوا يقاطعونه :

ـ كذاب . جئتما إلى هنا خفية بطريق النهر .

ـ دعوني أكمل ، ـ كان الرجل يجد في إقناعهم .ـ لم نأت خفية . أتى معنا ممثل المنطقة وهو الذي أوصلنا . وصاحبكم فورونتسوف معنا هنا أيضاً .

ـ هذا مستحيل !

ـ خذونا إلى القرية وهناك ننظر في الأمر . إنهما هناك .

ـ نأخذهما إلى القرية ولم لا ؟

ـ هذا هراء : المكان الذي دنساه يتالان عقابهما فيه .

ـ لن يفلتا منا . هيا !

واقتادوا الرجلين إلى القرية . حث الرجلان الخطى في ارتياح وسرور ،لكن العجائز اللواتي عجزن عن اللحاق بهما طالبن بإبطاء الخطو. كان بوغودول ينط خلف الرجل الضخم كالفرس المعقول وهو لا ينِي

يخزه بعصاه في ظهره بين الفينة والأخرى . وكان هذا يستدير ويلمدم برما فيجيبه بوغودول بالتكشير عن قمة في ابتسامة رضا ويريه الفأس التي في يده . هذا الموكب الصاخب الحانق والهائج كله — أطفال من قدام وأطفال من خلف وبينهم عجائز وشيوخ شعث غاضبون محنيو الظهور يطوقون الرجلين من كل الجوانب ويدبون ويصرخون في سورة غضب واحدة ويثيرون كل ما في طريقهم من غبار — هذا الجمهور صادف عند مدخل القرية شخصين كانا يسرعان للقائه : أحدهما هو فورونتسوف رئيس مجلس القرية سابقاً ورئيس مجلس البلدة الجديدة حالياً ، والثاني رجل غريب له هيئة موظف يرتدي قبعة من القش ذو وجه ضارب قليلا إلى وجه الغجر .

— ما هذا ؟ ما هذا الذي يجري عندكم ؟ ! قال فورونتسوف يطلب توضيحاً وهو لمّا يزل بعيداً عنهم .

لغطت العجائز دفعة واحدة وهن يلوحن بأيديهن ويقاطع بعضهن بعضاً ويشرن إلى الرجلين اللذين تملصا بعــد أن استعادا شجاعتهما من الطوق المضروب حولهما وشقا طريقهما إلى صاحب السحنة الغجرية .

— كنا نقوم بما يجب أن نقوم به فاذا بهم يهاجموننا ، — أخذ الأفقي يوضح الأمر .

— كالكلاب ، — تابع الضخم وأدار عينيه يبحث عن بوغودول وسط الجمهور . — سأريك ... يا فزاعة الحواكير ، يا ....

ولم يدعه فورنتسوف يكمل فقاطعه هو والعجائز اللواتي رددن على كلمة « كلاب » بهمهمة استياء آمراً بصوت ممدود :

— هــدوء ! هدوء ! هل سنسمع أم ستتصايح كما في سوق ؟

هل نريد أن نفهم الوضع أم ماذا ؟ هذان — وأوما فورنتسوف برأسه باتجاه الرجلين — كانا يقومان بعملية تعقيم وقائي للمقبرة . وهذا أمر مفروض أن يجري في كل مكان ، مفهوم ؟ هذا أمر مفروض أن يتم وفي كل مكان . وها هوذا الرفيق جولك إلى جانبنا . إنه من القسم الخاص بمنطقة الغمر . إنه القائم على هذه العملية وهو الذي سيشرح لكم . الرفيق جولك مسؤول رسمي .

— فليقدم الحساب أمام الناس مادام شخصاً مسؤولا : ظننا أنهما يكذبان ، لكن ها هو ذا المسؤول : من الذي أمر بتسوية مقبرتنا بالأرض . أناس هم الراقدون هناك لا حيوانات : كيف تجرأتم على تدنيس القبور ؟ فليجب ، والأموات أيضاً سيطلبون منه جواباً .

— مثل هذه الفعال لن تمر بسلام .

— يا سيدة السماء ! إلى أي زمن صرنا ! الأفضل أن يلقي الواحد منا بنفسه في النهر خجلا !

— هل سنسمع أم ماذا ؟ ... —كرر فورنتسوف السؤال إنما بلهجة وأحد أعنف هذه المرة .

وقف جول على مألوف عادته في هذه الحالات ينتظر في هدوء حتى يعم الهدوء . كان منظره متعباً مرهقاً ووجهه الغجري الأسود مربداً . وكما يبدو فان عمله هذا لم يكن بالأمر السهل خصوصاً إذا عرفنا أنها لم تكن هذه المرة الأولى التي يتفاهم فيها مع السكان المحليين على هذا النحو . لكنه بدأ بتؤدة وثقة بل حتى برنة خفيفة من المهاودة في صوته :

— يا رفاق ، ثمة سوء فهم من جانبكم . هناك مرسوم خاص ، —

كان جوك يعرف قوة كلمات مثل « قرار ، مرسوم ، أمر » حتى وإن لُفظتْ برقة ، ــ هناك مرسوم خاص بالتطهير الصحي لكل حوض الخزان وكذلك تطهير المقابر ... قبل إطلاق الماء يجب إجراء ترتيبات معينة في منطقة الغمر ، يجب إعداد المنطقة ...

ولم يطق الجد يغور صبراً :

ــ بلا لف ولا دوران ! قل لنا ما الداعي إلى تكسير الصلبان ؟

ــ وهذا ما أفعله ، ــ انتفض جول ممتعضاً مما جعله يتابع كلامه بسرعة أكبر : ــ تعرفون ولا شك أن هذا المكان سيغطيه بحر ، وستأتي إلى هنا سفن كبيرة كما سيأتي أناس كثيرون ــ سياح من داخل البلاد وخارجها ، بينما صلبانكم تطفو هنا . الماء سيجرفها ولن تبقى تحت الماء تنتصب فوق القبور كما هو مفروض . لابد من التفكير في هذا أيضاً ...

ــ ونحن هل فكرتم فينا ؟ ــ زعقت فيرانوساريفا . ــ نحن بشر أحياء ، وما زلنا نعيش هنا . فكروا في السياح فيما بعد ، فأنا للتو لممتُ عن الأرض صورة أمي بعد خنتزيريك هذين . كيف يحدث هذا ؟ أين سأبحث عن قبرها الآن ، من سيدلني عليه ؟ تقول : ستأتي إلى هنا سفن ... هذا عندما ستأتي سفنك ، أما أنا فبأي وجه أعيش هنا ؟ وسيّاحُك ... ــ وانقطعت أنفاس فيرا فلم تكمل شتيمتها . ــ ما دمت أعيش هنا وما دامت تحتي أرض فلا تتواقحوا فوقها . كان يمكن القيام بالتطهير في النهاية كي لا ترى ...

ــ متى تكون « في النهاية » هذه ؟ عندنا سبعون نقطة مقرر نقلها وفيها كلها مقابر . لا تعرفين الوضع ومع هذا تتكلمين. ــ كان صوت

جوك قد تصلب بشكل ملحوظ – نعم ثماني مقابر يجري نقلها بالكامل. هذه هي النهاية . لا يمكن الإبطاء والتمهل أكثر من هذا. أنا أيضاً ليس عندي وقت زائد .

– لا تهلّس ! – كان أهل القرية يعرفون أنه من الصعب تحريك الجد يغور لكنه إن تحرك فما عليك إلا التنحي جانبا إذ لن يقف شيء في وجهه . وكانت هذه بالضبط اللحظة التي أوشك فيها مرجل غضبه على الانفجار.– عودوا من حيث أتيتم وإياكم ومس القبور ثانية ،والاهاكم ببندقيتي . عندها لن أنظر إلى أنك شخص رسمي . الشخص الرسمي يجب أن يكون عنده احترام للناس، لا أن تكون عنده قبعة فقط . اسم الله عليكم، وجدتم هنا عملا ! على عمل كهذا كانوا في القديم...

– ما بهم ؟– التفت جوك ممتقع الوجه إلى فورونتسوف مستنجداً . – يبدو أنهم لا يفهمون ... لا يريدون أن يفهموا. أليسوا على علم بما يجري عندنا ؟

– عكروت ! – ظهر بوغودول من وسط الجمهور .

نفخ فورونتسوف صدره وصاح :

– لماذا تضجون هكذا ؟ لماذا كل هذا الضجيج؟ أنتم هنا لستم في سوق !

وقاطعه الجد يغور وهو يقترب منه :

– انت يا فورونتسوف لاترفع صوتك علينا ، انت نفسك لم تأت إلا من فترة قصيرة إلى هنا . انت نفسك سائح ... جئت إلى هنا قبل وصول بحرك بقليل . لا فرق لديك أين تعيش ، عندنا أو في أي مكان آخر . أما أنا فقد ولدت في متيورا وأبي ولد في متيورا، وجدي قبل

أبي ولد في متيورا . أنا هنا صاحب البيت . وما دمت أنا هنا فلا ترفع صوتك علي ، — قال الجد وهو يمد إصبعه الأسود الثخين إلى أنف فورونتسوف متهدداً ، — لا تخزني ، دعني أعيش آخر أيامي بلا خزي وعار .

— أنت يا كاربوف لا تهيج الخواطر ، سنفعل ما يجب أن نفعله ، ولن نسألك .

— اذهب إلى الشيطان ، — انتهر الجد يغور فورونتسوف وثنى بشتيمة أقذع .

— هذا أمر آخر ، — قال فورنتسوف موافقاً ، — وسنذكره لك.

— تذكره ! لن تخيفني .

— محامي آخر زمان .

— رأينا كثيراً من أمثالكم .....!

— انصرفوا قبل أن تقع جريمة !

ومن جديد هاجت العجائز وتعالى صياحهن وهن يضيقن الطوق حول فورنتسوف وجوك والرجلين . كانت فيرا تلص صورة أمها أمام انف جوك فكان يشيح بوجهه عنها ويقطب حاجبيه ، بينما كانت داريا ونستاسيا من جهة أخرى تحاولان الجثوم فوقه . مالت قبعة جوك كاشفة عن شعر أجعد أسود كالقطران بحيث زاد شبهه بالغجري ظهوراً فبدا أنه لن يطيق طويلا فيأخذ بالنط في زعيق كالغجر ويبربر ذات اليمين وذات الشمال على طريقتهم محاولاً التخلص منهم كلهم دفعة واحدة. وشددت كاترينا الخناق على فورنتسوف وهي تثب عليه وتردد : « ليس لكم أي حق ، ليس لكم أي حق ... وحين كان هذا

يحاول تفاديها كانت تونغوسكا التي ما فتئت تنفث دخان غليونها بصمت طول هذا الوقت تنتصب أمامه فجأة وتشير إليه بصمت أن يصغي إلى كاترينا . وكان صوت الجد يغور يهدر وكأنه الصوت الغليظ ، الأساسي في هذه الجوقة . وفي هذا اللغط وهذه الضوضاء اللذين كان سعارهما يحتدم تملص فورونتسوف وجوك ، اللذان لم يتمكنا إلا بشق النفس من تبادل بضع كلمات ، من بين أيدي الجمهور بجهد بالغ واتجها إلى القرية. حاول الضخم الجثة انتزاع الفأس من يد بوغودول، لكن هذا زمجر ولوح بها . ونصح الجد يغور الضخم الجثة قائلا :

– لا تقربه . إنه منفي سابق . لقد سبق له أن مسح برأس فأسه رقبة أحدهم ...

– مجرم قاتل ؟ – سأل الضخم الجثة في اهتمام .

– يعني .

– وقد أكون أنا نفسي قاتلا .

– هيا ، جرب إذن وسنرى .

لكن الضخم الجثة تردد ونظر مرة أخرى سراً إلى بوغودول الذي كان يغمره بعينيه المخيفة الحمراء كأنما المختدمة ناراً ثم أسرع يلحق بجماعته . وبعد ساعة أبحر الأربعة جميعاً من متيورا .

... أما العجائز فبقين حتى ساعة متأخرة من الليل يزحفن في أرجاء المقبرة ، يُعدن نصب الصلبان ويصلحن الشواهد .

* * *

— ٤ —

قليل من يذكر متى ظهر بوغودول في متيورا أول مرة . إنما بات يبدو الآن أنه عاش دائماً هنا وأنه كان ، عقاباً على ذنوب ما أو لسبب آخر ، من نصيب القرية هدية من أولئك الأوائل الذين مضوا رعيلاً إثر رعيل إلى الراحة الأبدية . يذكرون فقط أن بوغودول كان في وقت ما يعرج على متيورا عائداً من أسفاره عن طريق القرى القائمة على ضفة النهر . كانوا يعرفونه وقتها مقايضاً : يستبدل أي شيء بأي شيء . وبالفعل كان يملأ صرة بالخيطان والإبر والأقداح والملاعق والأزرار والصابون والبزم والأوراق ويقايضها بالبيض والزبدة والزيت والخبز ـ بالبيض أكثر ما يكون . من المعروف أنه لا يوجد محل تجاري في كل قرية ، ون ما يتطلبه البيت لا تجده تحت الطلب فوراً . لكن بوغودول حاضراً دائماً ، يطرق الباب : ألا يلزمكم كذا أو كذا ؟ يلزمنا ، وكيف لا يلزمنا ! ويأخذون يلحون على استضافته ويقدمون له الشاي ويوصونه بكذا وكذا . ويضيفون إلى البيضات العشر اثنتين ثلاثاً وأحياناً خمس بيضات كاملة فالدجاج متوفر في كل البيوت .

وكان بوغودول يحمل هذه البيضات إلى الجمعية الاستهلاكية ويدخلها في التداول . صحيح أنه لم يكن بوسعه أن يغتني من هذا التداول لكنه كان يتعيش به وكان يتعيش به عيشة لابأس بها على مايبدو طوال ما كانت قدماه تحملانه .

إما لأنهم كانوا يرحبون ببوغودول في متيورا أكثر مما في سواها من القرى أو لسبب ما آخر إلا ان الجزيرة أعجبته . وحين حان الحين لاختيار مأواه الأخير ، اختار متيورا . جاءها كعادته ولم يغادرها — لزق بها . كان في الصيف يغيب عنها فترة قصيرة كعهده سابقاً ، فقد كانت حياة التسكع والتجوال التي ألفها تستنهضه على ما يبدو ، تستبد به ، تسوقه إلى هنا أو هناك . أما في الشتاء فكان يمكث فيها لا يغادرها : يعيش اسبوعاً عند عجوز واسبوعاً آخر عند عجوز أخرى ، وأحياناً بعد تسخين الحمام يمضي إليه ويبيت فيه . ولكن ها هو ذا الربيع يعود ، ومع الدفء العائد ينتقل بوغودول إلى زورقه مبحراً باتجاه كوخ كولتشاك .

منذ سنين طويلة عرف بوغودول شيخاً طاعناً في السن ، وسنين كثيرة طويلة بقي على مظهره الذي ظهر فيه لأول مرة في القرية لم يتغير فيه شيء كأنما أراد الله أن يعايش ولو انسان واحد في الدنيا عدة أجيال متعاقبة . كان بوغودول يقف على قدميه ويمشي بخطى بطيئة وواسعة مشية ثقيلة متمايلة حاني الظهر رافعاً رأساً كبيراً أشعث يمكن لعصافير الدوري أن تبني لها فيه براحة أعشاشاً . ومن الدغل الكثيف الذي يغطي وجهه لم يكن يظهر إلا احديداب أنف لحيم ناتىء وعينان حمراوان براقتان مخضبتان بالدم . ومن الثلج حتى الثلج كان بوغودول يدب حافياً لا يميز حجراً ولا شوكاً . كانت رجلاه المتباعدتان والسوداوان اللتان فقدتا مظهر الجلد عليهما قد تصلبتا بحيث بدتا متعظمتين كأنما نما لهما فوق العظم القديم عظم جديد . في وقت من الأوقات تعلم صبيان القرية صيد الحيات : كانوا يثبتونها إلى الأرض

« بالنقّيفة » ويمسكون بها قرب رأسها ويركضون بها يخيفون البنات والنساء . رأى بوغودول ذات مرة حية أفلتت عن غير قصد تزحف على الطريق وقربها صبية صغار يتقافزون ، فوضع أمامها دون طويل تفكير كعبه الحافي . لسعت الأفعى بوغودول ، ولكن عبثاً ، كأنما تصدم حجراً . ومذاك وجد الأطفال تسلية جديدة : صاروا يأتون بكل الحيات التي يلتقطونها إلى بوغودول ، وكان هو يرفع رجله بيديه ، وهو جالس على الصخرة قرب الكوخ ، ويشاكسها ويقهقه كما من الدغدغة حين كانت الحية تحاول في وثبة خاطفة لسعه في المكان الصلب وكان يردد بغبطة :

- عكروت !

هذه الكلمة وحدها كانت تقوم عند بوغودول مقام ألف كاملة من الكلمات التي يعجز أي كان غيره عن الاستغناء عنها ، وكان بوغودول يتعامل مع هذه الكلمة بشكل رائع . وسواء كان بوغودول بولونيا أو لم يكن إلا أنه كان يتحدث بالروسية قليلا ولم يكن هذا حديثا على وجه الضبط بل شرحاً غير معقد لما يريده مُتَبّلا بكثرة بكلمة « عكروت » هذه وأخواتها وقريباتها . كنت ترى رجالا يشتمون شتائم أغرب وأعقد ، لكن أحداً منهم لم يكن يشتم بحلاوة الروح التي يشتم بها بوغودول : كان لا يُخرج الشتيمة كيفما اتفق بل كان يعجنها ويخبزها ويزيتها بمحبة ويسمدها بالبشاشة أو السخط . وما كان يفلت من شفاه الآخرين على أنه شتيمة فارغة ومألوفة لاتكاد تصل إلى الآذان بل تسقط في الطريق كان يتضمن عند بوغودول كل المعنى المقصود وكل علاقته بموضوع الحديث . لكنه كان يحدث مع هذا ،

وإن نادراً في الحقيقة ، أن كان بوغودول يتبسط في الحديث مع العجائز . وحينئذ كان العكروت يجلس فوق العكروت ويمسك به ويلاحقه ، لكنه كان مع هذا حديثاً مترابطاً مفهوماً يمكن للغريب أيضاً أن يستمع إليه .

كانت العجائز يحببن بودوغول ولم يكن أحد يعرف بما سحرهن واستحوذ على ألبابهن ، لكن كان يكفي أن يظهر على عتبة داريا مثلا حتى تترك هذه على الفور عملها ، أي عمل وتخف للقائه والترحيب به .

— مرحباً يا داروشكا ! — كان يدن بصوت أبح كأنه مثقب .

— أهلا ، — كانت تجيبه بفرح مكبوت ، — أتيت ؟

— مثل إله ، — ويتبعها بشتيمة .

وكانت داريا تستدير نحو الأيقونة ترسم إشارة الصليب وتستغفر ربها عما قاله العجوز وعما قد يقوله ثم تسرع إلى وضع السماور .

— نستاسيا ! تعالي اشربي الشاي ، بوغودول أتى ! — كانت تصرخ عبر السياج . — ونادي تاتيانا أيضاً ، لتأت هي الأخرى .

وبما أن العجائز كن يحببنه فمن المفروغ منه القول إن الشيوخ لم يكونوا يحبونه . غريب الدار بالإضافة إلى الأطوار ، أكول شروب ، لا يمكنك التحدث إليه أو معرفة شيء منه . الشيطان وحده يعلم أي انسان هذا العجوز . الواحدة منهن تنسى أن تصنع الشاي لقريبها ، لمن هو من لحمها ودمها ، أما له فأبداً . إنه بالنسبة إليها كإله هبط أخيراً إلى أرض العذاب وأخذ يمتحن الناس بمظهر الخاطىء المتسول الذي اتخذه . وكان الشيوخ يدمدمون :

— هاكم المجرم ! (كانت هناك إشاعة أن بوغودول نفي في

حينه إلى سيبيريا بسبب جريمة قتل) — كان الشيوخ يدمدمون لكنهم كانوا يصبرون : الأفضل ألا « يعلقوا » مع العجائز . وبوغودول مع هذا انسان ، ليس كاباً ، مع انه انسان لا نفع فيه مضر ككثيرين من أمثاله على وجه هذه الأرض .

في السنوات الأخيرة حين سرت الشائعات عن الانتقال ثم اعقبتها همومه ومشاكله ، كان بوغودول الوحيد فيما بدا الذي لم تمسه الشائعات ولا هموم الانتقال ومشاكله ولم تحرك فيه ساكناً، إما لأنه كان يحسب أنه سيموت قبل ذلك الحين أو لأنه كان ينوي أن يجد لنفسه مكاناً هناك إلى جانب العجائز كما وجد هنا . صارت الحياة كلها تنحصر الآن في هذا : أيا كان موضوع الحديث وأياً كان الوقت الذي يتبادلونه فيه وأياً كان الشخص المقصود ، كان هذا الحديث ينتهي دائماً بشيء واحد : الإغراق القريب لمتيورا والانتقال العاجل . وكان بوغودول الحاضر بينهم يحك بصوت مسموع رجليه الخشنتين خشونة غير معقولة وكأنه يقدح حجراً بحجر ، أو كان ينفث الهواء بضجة وهو ينفخ بعد الشاي ويقول بصوته الأبح في تجهم :

— ليس لهم حق .

— كيف هذا ، ليس لهم حق ، مع أنه لهم ؟ — كانت العجائز ينقضضن عليه بتساؤل فيه الأسى وفيه الرجاء . — أتراهم يسألوننا رأينا ؟

— ليس لهم حق . طوفان ... عكروت ... على الناس ... ليس لهم حق . أنا أعرف القانون .

وكان يرفع فوق رأسه إصبعاً متوعداً وينظر إليه بغضب العازم على أمر .

— وأنت يا مسكين اين ستذهب ؟ — كن يسألنه باشفاق .

— لن انحرك من هنا قيد أنملة ! — كان يجيبهن صارخاً . — إله يا باني ! ليس لهم الحق ، أنا حي . عكروت !

— لكن لن توقف الماء وحلك إذا فتحوه . لابد أن يتدبروا أمرك ويرسلوك إلى مكان ما .

— أنا حي ... عكروت ! — كان يرد معانداً .

في اليوم التالي لقصة المقبرة جر قدميه إلى داريا لكن ليس عند المغيب كعادته بل صباحاً . لم تنهض داريا للقائه ولم تبادره بالكلام ، بل ظلت ملازمة سريرها الخشبي وهي تحني رأسها في برود وخور وتسبل بين ركبتيها يدين مشبوكتين يابستين نتأت عظيماتهما — يدين صنعهما العمل . تنحنح بوغودول وهو يقتعد دكة عند الباب إذ كان بافل قد نقل منذ الشتاء الماضي على الجليد الأثاث الجديد الذي اشتراه من المخزن إلى شقته في السوفخوز ولم يبق هنا إلا الأثاث القديم البالي . تنحنح بوغودول ثانية وثالثة وجمجم بشيء ما في برم وسكت في انتظار أن تتكلم داريا. لكن هذه لم تبد أي رغبة في الكلام أو في الشاي فظلت على صمتها وهي ترسل بين الحين والحين تنهيدة ثقيلة وترفع إلى بوغودول بتثاقل أيضاً ، لا دفعة واحدة ، عينين غير مبصرتين ، تائهتين كأنها لا تتعرف إلى بوغودول ولا تفهم سبب وجوده هنا .

كان الصباح متأخراً وهادئاً ، وكانت الشمس التي نهضت عالياً في كبد السماء ترسل أشعة صافية وساطعة إنما دون عزم ، دون ضغط بل بقوة مكبوتة . وكان يشعر بهذا من في داخل البيت : بدا الضوء خلف

النوافذ باهتاً والأصوات المختلفة كأنها لا تتجمع هنا في مكان واحد للسمع بل تنساب في مسارب جانبية . كان يعم البيت الذي لم يوقد موقده دفء معتدل يمكن معه القول : لا حر ولا برد، دفء تكاد لا تشعر به كأنما في حلم . وكان الذباب يطن في النوافذ بملل وتعب ويرتطم بالزجاج ، وكانت رائحة حموضة تنتشر من وعاء حديدي بسعة الدلو فيه مديد* أعد للحيوانات ولم يقدم لها . ومن مساء الأمس لم يُرفع ما على الطاولة فبقيت كأس الشاي المسكوبة لبوغودول على حالها لم تمسها يد . والآن تأمل بوغودول هذه الكأس ودنا منها وشرب. وإذاك تحركت داريا وسألته :

ـ هل أصنع لك شاياً جديداً ؟

هز رأسه أن لا داعي ، لكنها نهضت مع هذا ووضعت الشاي . ووجدت نفسها تبدأ العمل فمضت فيه . حمات المديد وألقته إلى الدجاجات التي اندفعت إلى العلف في اضطراب وجلبة ورتبت الطاولة ، وحين بدأ السماور يئز في المدخل ألقت في إبريق التبخير الخزفي لوحين مربعين من الشاي الأسود ووضعته على فتحة الموقد . ولم تتكلم داريا إلا فيما بعد حين جلبت السماور وغلت الشاي وأخذت تنتظر إلى أن يصبح جاهزاً تماماً . تكلمت ببساطة دون شكوى أو تذمر كأنها قطعت حديثها دقيقة وهي الآن تتابعه :

ـ البارحة مساء لم انتبه إلى البقرة ، لم أحلبها . اللعنة ! الحليب يحمض . أريد أن أروبه قشدة فتحمض القشدة أيضاً . كل القلل امتلأت . أما هو ، بافل ، فحين يأتي يشرب طاساً من الحليب ويقفل عائداً في زورقه ويغيب من جديد . وأنا لا أشرب إلا قليلا . ومع هذا تراني

أشرب بين الحين والحين كأساً . لا رغبة في الحليب بل إشفاقاً — كي لا يذهب هدراً .

سكبت الشاي وقدمت لبوغودول كأسه وسكبت من كأسها في القصعة ورشفت. رفعت رأسها كأنما تصيخ إلى شيء ما تلتقطه وجمدتْ . ثم خفضت رأسها بعد أن التقطت ما كانت تبحث عنه ورشفت مرة أخرى مقربة القصعة من شفتيها الحادتين الناشفتين المغطاتين بجلد كجلد الثعبان ، وانعطفت بالحديث في وجهة مختلفة تماماً .

— اليوم كنت أفكر . قلت في نفسي : سيسألونك . سيسألون كيف سمحتِ لهذه البشاعات أن تحدث ، أين كانت عيناك ؟ وأنا ليس لدي ما أجيبهم به . لقد كنتُ هنا وكان علي أن أراقب وأهتم بكل شيء . حتى الماء كأني أنا المذنبة في أنه سيغمرنا . مالي قابعة هنا وحدي ، الأفضل أن لا أعيش حتى ذلك الوقت — كم سيكون هذا أفضل يا إلهي ! لكن لا ، لابد أن هذا ما كُتب علي ، علي أنا . ما الذي أثمت فيه ؟ ! — رفعت داريا نظرها إلى الأيقونة ويدها لترسم إشارة الصليب وأمسكت . — جميعهم معاً . أبي وأمي وأخوتي والفتى ، ووحدي أنا ينقلونني إلى أرض غريبة . أنا أيضاً لابد أن يفرقوني كما فعلوا بالآخرين ما داموا بدؤوا عملهم هذا ، وستطفو عظامي وتنجرف في الماء لكنها لن تنجرف مع عظامهم ، لن تلحق بها .

كان أبي يقول.. أبي كان ودوداً لطيفاً معي وكان يقول لي : عيشي يا داريا قدر ما تُعطين . وسواء كانت حياتك سيئة أو طيبة عيشيها ، فهذا هو المكتوب عليك . وإذا ما سبحت في بحر من الحزن والشر وخارت قواك وأردت اللحاق بنا ، عيشي مع هذا وتحركي

لكي تشدينا بقوة أكبر إلى هذه الأرض ولنتغرز فيها وليعلموا أننا كنا هنا فوقها . حتى الآن لم يجبن أحد ولم يرغب في اللحاق بنا ، لم يوجد ولن يوجد مثل هذا الأخرق. كان يظن أنه لن يوجد مثل هذا الشخص وأنا بالذات التي جبنت . كان عليّ أن أرحل قبل هذا الوقت ، فأنا منذ أمد طويل لست من هذا العالم .... أنا من هناك من ذلك العالم . منذ أمد طويل لا أعيشن حياتي كما أريد ، بل أعيش حياة غريبة عني دون أن أدري إلى أين ولماذا ، بل أعيش وحسب ! الآن العالم انشطر نصفين . انظرْ إلى ما يجري ! انشطر وشطرنا نحن الشيوخ معه ... فلا نحن هنا ولا نحن من هناك . يمكنك أن ترى قليلا من مثالنا كيف كان الناس من قبل ، لكن لا أحد ينظر الآن وراءه . كلهم يجري بسرعة ، يلهث ، يتعثر في كل خطوة ، ومع هذا يركض ... أين لهم أن ينظروا إلى الخلف .... لا وقت لديهم لينظروا موطىء أقدامهم . . . هناك من يلاحقهم .

ـ أيها الرب الياباني ! . قال بوغودول موافقاً .

كانت داريا تسكب الشاي من السماور في الكأس ومن الكأس في القصعة ترشفه برفق وعناية ، تستمتع بطعمه في فمها فلا تبلعه على الفور وتلمظ شفتيها بتأن ، وتروح تسترسل في الكلام في تؤدة واستغراق وكأنها لا تتخير كلماتها بل تخرجها عشوائياً دون أن توجه الكلام وجهة واحدة بل تتركه ينعطف ذات اليمين وذات اليسار .

ـ لا خير في الحياة دون شاي ـ قالت مقررة من اغتباطها بشربه .

ـ كأنما تحسنت حالي قليلا . من الصباح كان شيء ما يضغط على صدري وكنت أشعر بالغثيان ... لم يعد في قوة . حلبت البقرة بشق النفس

فالمسكينة كادت تنفق من خوارها ، ثم أطلقتُ سراحها – وبعد لم أعد أرى حتى النافذة ، بل صار كل ما في عيني سواداً في سواد . قلت في نفسي : يجب أن أضع السماور وشعرت بغثيان أكبر : أي سماور هذا تريدينه ؟ لقد كنت جالسة إلى السماور وثرثرت حتى لم تتركي ذكرى لأبيك وإمك إلا حركتها . لن يكون أي سماور ، لا تطلبي . حين اتذكرهم ، حين اتذكرهم ينفطر قلبي ويتوقف .. أهز نفسي فيدق مرة وثانية ، ومن جديد ... ما ان تراودني الذكريات حتى يتوقف من جديد . وأروح أفكر إلى اين سيحملونني ، أين سيخبئونني ؟ عندما مات ابن رايا سيركينا ظلوا ثلاثة أيام يبحثون له عن نصف ساجن من الأرض كي يدفنوه ، ومع هذا عينوا له أخيراً مدفناً آخر . ورقد المسكين لا حيثما ينبغي بل جانباً . يقال إنهم دفنوه في مكان بعيد . كيف ستكون حاله ، المسكين ، مع وحوش الغابة ؟ وهل سيقول لأبيه وأمه شكراً على ما فعلتما ؟

يمكن القول إن أبي وأمي ماتا في وقت واحد . لم يكونا عجوزين بالمقارنة بي . الأولى ماتت أمي ، ماتت دون أي مقدمات ، أخذها الموت فجأة . نهضت في الصباح ، سعت في البيت ، رتبته ثم استلقت على السرير تستريح . استلقت فترة ثم صرخت بصوت عال : « أي ، الموت يخنقني ، الموت يخنقني » وأمسكت رقبتها وصدرها بيديها . وثبنا إليها ولا أحد منا يعرف ما يجب فعله ، أخذنا نلوح بأيدينا دون معنى ونسألها : « ماذا يا ماما ، أين ، ماذا ؟ » . ازرقت أمام اعيننا مباشرة وتغطى وجهها بالبقع وشخرت ... رفعناها وأجلسناها لكن كان علينا أن نمددها ثانية . وبقيت آثار على رقبتها حيث قالت ان الموت كأنما كان يخنقها ... نعم ، هذا ما حصل ! فيما بعد كان والدي

يردد : « الموتُ كانت عينه علي أنا الذي كنت ادعوه ، لكنه أخطأ ، لم يصب الشخص المطلوب » . لقد مرض أبي طويلا ، سبع سنوات . كانوا يضعون رحى في الطاحونة الجديدة وسقط تحتها ... التوت رجله فوقع تحتها مباشرة ، والعجيب أنه بقي حياً ! نزف دمه وتمزقت أحشاؤه ، ومع هذا كان يمكن أن يعيش أكثر لو أنه اعتنى بنفسه ، لكنه لم يكن يوفر نفسه أبداً ، كان يقوم بعمله وكأنه انسان معافى ، لم يكن ينتبه إلى نفسه : دفنا ماما شتاءً ، عشية عيد الميلاد ، أما هو فقريبا من هذا الوقت ، بعيد عيد العنصرة : نبشنا قليلا عند تابوت ما ، كان كأننا وضعناه بالأمس لم يسود حتى مقدار ذرة ، ووضعنا تابوت أبي إلى جانبه . رحمة الله عليهما : عاشا معاً ، وهناك أيضاً هما معاً كي لا يزعل أي منهما .

عندنا هنا في الجزيرة قبر ... الآن ضاع أثره ... كان القبر في مكان ما تحت القرية على ضفة النهر التي من جهتنا فوق المرتفع . اذكر القبر منذ صغري . يقال إن تاجراً يرقد في هذا القبر . كان هذا التاجر ينقل بضائع في نهر انغارا . وذات مرة رأى متيورا وهو يسير بمركبه حاملا بضاعته . أمر التاجر بأن يتوجهوا إليها . وراقت له قريتنا متيورا بحيث مضى إلى الفلاحين الذين كانوا يعيشون هنا آنذاك وقال لهم : « أنا فلان ابن فلان ، أريد حين يأخذني الموت أن أدفن في جزيرتكم فوق المنحدر ، وبالمقابل سأبني لكم كنيسة مسيحية » . ولم يكن الفلاحون اغبياء فوافقوا . وبالفعل خصص التاجر لها نقوداً ، فقد كان غنياً كما يبدو ... آلافاً مؤلفة — عشرة آلاف أو عشرين ألفاً لا أدري ، وأرسل كبير وكلائه كي يشرع في البناء . وهكذا

بنيت كنيستنا ثم كرسوها ... التاجر نفسه حضر حفلة التكريس ، ثم ما لبث أن نُقل إلى هنا كما أوصى ليرقد إلى الأبد . هذا ما كان الشيوخ يقولونه ، لكن هل هذا ما كان بالفعل أم لا ، لا أعرف . لكن ما مصلحتهم أن يكذبوا ...

ظل أبي بكامل وعيه حتى ساعة موته . وكان يردد على مسمعي دائماً : « انت يا داريا لا تأخذي نفسك بالكثير وإلا تعبت وشقيت ، بل خذي نفسك بأهم شيء أن تكوني ذات ضمير ، وإلا عانيت منه » . في السابق كانوا يميزون الضمير بشكل جلي : فاذا ما أقدم أحدهم على فعل أمر بلا ضمير كانوا يلاحظون ذلك على الفور ، فجميعهم كانوا يعيشون الواحد منهم على مرأى من الآخر وتحت نظره . الناس كانوا أشكالا وألواناً بطبيعة الحال . وبعضهم كان بوده أن يعيش حسب ضميره لكن أين نأتي بالضمير إذا لم يكن ولد مع الانسان ؟ الضمير لا يشرى بالمال . ومن أعطي ضميراً أكثر من اللازم لن يفرح بهذه الثروة . يشلحونه آخر قميص فيرميه إليهم ، وفوق هذا يشكرهم لأنهم جردوه من ملابسه : كان عندنا قريب من هؤلاء إسمه ايفان : كان صانع مواقد ، معلماً من الطراز الأول وكانوا يقصدونه من بعد مئة فرسخ ليصنع لهم مواقد . كان لا يرد طلباً لمن يسأله ، وكان يخجل من أخذ أجرته بل كان يفعل ما يفعله دون مقابل : وكانت زوجته تنهال عليه بالصراخ التعنيف : « ستغيب اسبوعاً ، من سيعمل مكانك في الحقل؟ من سيعمل مكانك في البيت ؟ مغفل أنت لا رجل » : وبالفعل كان مغفلا : « الناس يطلبون مني ... » — كان يجيب ، وأهمل شؤون بيته . « الناس يطلبون مني ... » حتى ولو كان عليه أن يتسول . في هذا الوقت أعلنت الكومونة فمد رأسه إلى هناك ... قالت داريا كلماتها الأخيرة هذه في

تباطؤ فقد تذكرت وقد عادت بفكرها من الماضي إلى الحاضر :
– البارحة حاولت كالمسعورة أن أرى قبر ايفان ، لكن الوقت كان مساء ، لا تدري من يرقد هنا ومن يرقد هناك : أو يكونون قد سووه بالأرض ؟ كانت فوق القبر نجمة مطلية ، وكان ابنه قد جلب للقبر من المدينة إطاراً حديدياً وثبت فوق الإطار النجمة كعصفور صغير : يجب أن أتأكد اليوم : لاحق يا رب هؤلاء الوحوش بغضبك وعاقبهم عنا : إذا كان على هذه الأرض خطيئة ، فأي خطيئة أعظم من هذه ؟
– هزت داريا رأسها بحذر كي لا توقظ المزيد من الذكريات الأليمة وتنهدت ملء صدرها ونهضت ومضت إلى ركن خفي وأتت من هناك بخمس قطع من الشوكولا ملفوفة بورق ملون : مدت يدها بثلاث منها إلى بوغودول وابقت اثنتين لها « تحلّ » قليلا ، اعرف أنك تحبها . اذكر ، أثناء الحرب كنا نشتهي حتى قطعة سكر نضعها بين أسناننا ، وانت كنت تأتي إلينا لا أدري من أين بالسكرة بعد السكرة وتعطينا لنقضمها : كنت تزعل زعلاً شديداً إن كنا نتركها للأطفال وكنت تجبرنا على مصها . أحلى من ذلك السكر لم أعرف قط ، لم أعرف أحلى منه .

– الخمر ... إليك ! – أصدر بوغودول صوتاً وهز رأسه إلى الخلف مظهراً بذلك أنه لا يطيق الخمر ولم يطقها يوماً .

– فليشربها الشيطان ! – قالت داريا موافقة وهي تعود إلى الجلوس في مكانها . – ماذا كنت أقول عن قريبنا ايفان ؟ ما عادت عندي أي ذاكرة ، اهترأت ! أ،أ ، عن الضمير : في السابق كان يمكن أن تعرف إن كان موجوداً أو غير موجود . من كان عنده ضمير فهو ذو ضمير ومن لم يكن عنده ضمير فهو بلا ضمير : أما الآن فلا أحد يدري من

صاحب ضمير ومن بلا ضمير لشدة ما اختلطت الأمور . إنهم يذكرون الضمير بمناسبة وبلا مناسبة وبعد كل كلمة ، لم يبقوا فيه ، المسكين ، مكاناً سليماً لشدة ماتنا وشوه ، كأنما صاروا غير قادرين على امتلاكه . أيْ ! الناس تكاثروا أما الضمير فبقي كما هو ، ولهذا قل وضمر فلم يعد لأجل الانسان ، لم يعد للطلب بل صار يكفي للعرض : أم أن الناس صاروا يقومون بأعمال كبيرة فنسوا الصغيرة ، والضمير في الأعمال الكبيرة كأنما من حديد لا يمكنك أن تقضمه . ضميرنا شاخ، صار عجوزاً لا أحد ينظر إليه ! آه يا الهي ! أي ضمير هذا إن كان يحصل ما يحصل !

بعد حادثة البارحة لم تعرف عيني النوم ، بل بقيت أفكر وأفكر ... تسللت إلى دماغي أفكار وتصورات ... وأنا التي ما خفت شيئا في حياتي انتابني الخوف : تهيأ لي أن شيئاً ما سيُزلزل، سيزلزل للحال . ولم أعد استطيع المكوث لشدة ما توترت اعصابي من الانتظار فخرجت ووقفت عند منتصف السياج وظللت واقفة انتظر أن تنقض علينا صاعقة من السماء فتمحقنا لأننا لسنا بشراً ، أو ان يحصل شيء ما آخر . ومن خوفي راودتني الرغبة في العودة إلى الداخل وكأني طفلة صغيرة ، لكني بقيت واقفة لا أتحرك : وسمعت : هناك باب يصر ، وهناك باب آخر يصر ، إذَنْ لست وحدي من جفته الطمأنينة . رفعت عيني إلى السماء ، كانت النجمات الصغيرة تتوهج وقد غطت قبة السماء فلم تترك فيه مكاناً خالياً . كانت ضخمة وحارة بشكل عجيب ! وكانت تهبط وتقترب مني ... أصابتني بالدوار ... وكأنما أُغمي علي فلم أعد اذكر شيئاً : لا من أنا ولا أين أنا ولا ما حدث لي ، ام انها حملتني معها إلى مكان ما . ولما عدت إلى رشدي كان الضوء قد لاح والنجوم

انسجبت صاعدة ، وشعرت بالبرد : كنت ارتجف . وأحسست براحة ورضا كأنما تطهرت نفسي وتقلست . وفكرت : « لماذا ، وما الذي حصل ؟ » كنت أشعر بالراحة والرضا وكان شعوري هذا يؤلمني ويضايقني . وأخذت اتذكر ان كنت رأيت شيئاً ، وبدا لي أني رأيت . كأنما كان هناك صوت . « اذهبي يا داريا إلى النوم وانتظري : كل سيسأل عن عمله » - كان هذا أشبه بصوت . وذهبت . لم أغف كما يجب لكن حالتي تحسنت قليلا ، صارت محمولة . أما أي صوت كان ذاك ومن أين أتى فلا أذكر ، لا استطيع أن أقول .

من قديم الزمان والرجال هنا رجالنا ، من متيورا . فعندنا لم يكونوا يستقبلون الأغراب بترحاب كبير . وفي حياتي كان أورليك الوحيد الذي ألفنا وألفناه ، لكن اورليك قرنُ الشيطان نفسه . كان بوسعه ، لو شــاء ، ان يســتقر فوق المــاء ليس أسوأ مما فوق اليابســة . وما كان ليبيل قدميه . كان ثرثاراً غير معقول لا يكل ولا يمل ، لسانه كالمطرقة . لهذا على ما يبدو تركه الرجال يعيش بينهم ليروح عنهم ويسليهم ، فأمثاله عندنا لا وجود لهم . كانوا يجتمعون حيثما اتفق ويأخذون يقهقهون ، يقهقهون حتى تطغى قهقهتهم على متيورا كلها وهو جالس بينهم : رأس أصهب وسحنةُ قاطع طريق قُنبية ، واسنان نادرة فُرْق . هوذا : اسنان فرق . ليس عبثاً ما يقال : مَن اسنانه فرق كذاب ، كل شيء يجـ من خلالها . وكان بالفعل يبل أسنانه ، كان يبلها بكل ما يخطر ولا يخطر على بال ! كانوا يستلقون على قفاهم من شدة الضحك . لكنه كان شغيلا ، أويْ كم كان شغيلا ! حيث يغرز وتداً لابد أن ينبت شيء . لم يبق من اسرته هنا إلا ابنته دونكا زوجة غينكا بريسنياكوف ، لكن هذه لا تشبه أباها في شيء . وكان لها أخوان

شابان ، وكان هذان أشطر ، جوابهما أيضاً على رأس لسانهما : أحدهما أخذوه مثل جاسوس ألماني كي يخلصوا من ملاحظاته المقذعة والثاني عض على لسانه وترك متيورا . أين ذهب وهل هو حي الآن ، لا أدري . فأنا نفسي نسيت أمره وأنه كان هنا ، وإلا هل من العسير علي أن أسأل عنه دونكا ؟

هكذا كان : الرجال رجالنا ، أما النساء فكانوا يحبون جلبهن من خارج متيورا . هذا ما كان يحصل ولا أدري لماذا . لكن بالمقابل كانوا يحرون إلينا متنافسين على يد من يبقى من فتياتنا . فكلهم يسعده ان يتصاهر مع متيورا . منذ القديم ونحن نعيش عيشة هانئة . والفتيات كن يخرجن من عند رجالنا أصيلات شهمات . لم تكن بضاعتنا تكسد ، وحتى الآن يمكن التعرف على تلك التي من متيورا . أبي أيضاً جاء بأمي من مكان ما من نواحي بوريات . كان يشاكسها بقوله « أويْ — يو — يوك » ومن « أويْ — يو — يوك » هذه أو من سواها تزوجته ماما . هناك في ديرتها إما انه لم يكن أثر للماء أو انه كانت هناك ساقية صغيرة تجري، إلاان ماما كانت تخشى الماء حتى الموت . في أول الأمر، كما يروي أبي ، كانت ماما تقف على الضفة وتغمض عينيها كي لا ترى . لكن اين المفر وانغارا محيط بها من كل جانب؟ حتى للوصول بوإلى دموغا كان لابـــد من الخوض في الماء،فهناك عندنا في بودموغا مروج ترتفع فيها الحشائش . وهكذا لم تعتد أمي النهر حتى ساعة موتها . كنا نضحك منها ، فانغارا نهرنا ، ألفنـــاه نحن منذ نعومة أظفارنا عليه . أما أمي فكانت تردد : « آه ، ستجيئني مصيبة على يد هذا النهر ، فخوف كهذا لا يعيش في الانسان عبثاً » . لكن لا ، لم يغرق أحد من بيتنا فيه .

أما ان الماء كان يهيج ويعربد ويخرج عن ضفتيه ، فهذا لم يكن خراباً لنا وحدنا بل للجميع . الآن فقط خوف أمي الأعمى تحقق ... الآن . . . —
ونكست داريا رأسها وتلعثمت في ارتباك وأنهت بصوت ضائع يكاد لا يسمع : « هكذا إذن ، سيلحق الماء بأمي مع هذا . لا استطيع أن استوعب ، سيلحق بها مع هذا ... » .

تركت داريا ، التي صعقها هذا النبأ الجديد الذي كان يجب أن تعرفه من زمن بعيد لكنه ضاع في مكان ما ولم يطف على سطح ذكرياتها إلا الآن ، الشاي وأخذت تنقب بعينيها أمامها في وجوم وإصرار بليد باحثة عن شيء ما ، شيء غير ضروري بالمرة وثقيل . كانت الشمس قد ازدادت مع اقتراب الظهيرة كدرا وكان نورها شاحباً ضعيفاً . وحيثما كان نورها يسقط — على الجدران المبيضة بكلسها المتجفف وعلى أرض الغرفة الموطوءة حتى التشقق وعلى رفوف النوافذ المغلقة — كان هذا النور يبدو بائساً وقبيحاً ، مسموماً تحت ثقل شيخوخة سحيقة لا رادّ لها . وفي وسط الغرفة كان غصن يتدلى برشاقة من السطح في الفراغ وراء ظهر بوغودول ويتوقف قليلا وهو يهتز اهتزازاً خفيفاً في الهواء ، كأنما ليستريح أو ليتأمل ما يجري حوله ثم يسقط إلى أسفل وفي مقطع نهر انغارا المكشوف من النافذة كان زورق بمحرك ينسل كالجعل بأزيز وكان الماء يتماوج ؛ ومن النافذة الثانية كانت تمتد فوق السياج سماء منتفخة مائلة إلى البياض . وبقدر ما كانت داريا تمعن النظر مستجمعة كل شيء في عينيها دون أن ترى شيئاً أو تميز شيئاً بمفرده كانت تزداد قلقاً ، وكان الأسى يتملكها أكثر فأكثر لأنها تفعل من جديد غير ما تبغي ، ولأنها تجلس من جديد إلى السماور كما البارحة ...

كان شيء ما يؤنبها ويجثم على صدرها لا يدعها تشد عزيمتها بل يمزق روحها مزقاً .

نهضت وقالت لبوغودول على عجل كأنما توشك أن تتخلف عن مكان تقصده :

— ها نحن ارتوينا ، ارتوينا حتى التخمة . والآن اذهب إذا كان هناك داع . أو ابق انت فأنا ذاهبة . لقد شبعنا جلوساً ، شبعنا جلوساً وكلاماً ... وما نفع الكلام ... أحاديثنا كالعصافة — لا نفع فيها ولا خير . إن هي إلا ذكريات مضت . كانت أيام ...

— إلى اين يا داريا ؟ — سألها بصرامة وهو يرفع رأسه .

تباطأت قليلا ثم قالت تمنعه :

— لا ، لا ، أنا وحدي . ابق انت . إلى هناك أنا بمفردي .

أما « إلى هناك » هذه فلم تكن هي نفسها تعرفها على وجه اليقين . وحين صارت خارج باب البيت توقفت قليلا تفكر ، ثم أخذت تتحرك باتجاه نهر انغارا مخمنة مسبقاً أنها ستنعطف ، وبالفعل ما لبثت أن انعطفت وخرجت محاذية الحواكير خارج القرية — كانت قدماها تحملانها إلى المقبرة . لكنها لم تبلغ المقبرة : هاتف هتف في داخلها أن لا معنى لأن تمضي إلى هناك بنفس غير متماسكة وإن تقلق راحة الأموات الذين أقضت مضاجعهم معركة الأمس . لن تتمكن من أن تبلغ قلوبهم بكلمة واعدة ، فليس عندها هذه الكلمة ولن تولد وهم لن يستجيبوا . ارتمت وقد ذهلت عن نفسها خائرة القوى على الأرض فوق ربوة عشبية جافة ووجهها إلى مجرى النهر وجالت بنظرها فيما حولها تبحث بعينيها عن شيء تريح به نفسها . جالت بنظرها مرة وثانية وثالثة ...

من هنا ، من رأس الجزيرة كان يُرى كأنما على راحة الكف نهر انغارا والضفاف البعيدة الغربية ومتيورا المندمجة وراء دغل من الصنوبر في كل واحد مع بودموغا ، بحيث كانت أرض الجزيرة تكاد تمتد حتى الافق ؛ وكان شريط الماء لا يلمع إلا عند طرفه . كان الفرع الأيمن العريض للنهر وكأنما ينتفخ لدى انثنائه يزحم الضفة المقابلة الواطئة وهو يتغلغل فيها ، ثم يعود فيستقيم ويجري جرياً رتيباً منتظماً ؛ أما الفرع الأيسر ، الأهدأ والأقرب ، فكان كأنما يخص متيورا دون سواها إذ كان يتدلى من ضفتها الشديدة الانحدار وكان يبدو في هذه الساعة تحت الشمس الهادئة كأنما دون حراك . عليه كانوا يطلقون في متيورا اسم « نهرنا » . في هذه الجهة كانت القرية تتطلع ، وفيها كانوا ينزلون قواربهم ويردون الماء ، من هنا كان الأطفال يلقون النظرة الأولى على الدنيا ، وهنا كان كل شيء حتى أصغر حجر مدروساً ومحفوظاً ؛ وفيما وراء القناة عند الكولخوز كانوا يزرعون حقولهم التي لم يتخلوا عنها ويهملوها إلا الآن .

وكانت الجزيرة ترقد بهدوء ودعة ، هذه الجزيرة التي كانت أرضها التي كأنما خصهم بها القدر دون سواهم لتخومها الواضحة إذ كان اليبس يبدأ بعدها مباشرة لا الماء : هي الأغلى والأقرب إلى قلوبهم. لكن من طرفها إلى طرفها ومن الضفة إلى الضفة كان يكفيها ما فيها من الرحابة والغنى والجمال والوحشية . كانت وقد رقدت معزولة عن اليابسة تعيش في بحبوحة . أوليس لهذا سميت هذا الاسم المدوي « متيورا(*) » . كانت ترقد بهدوء وانزواء تمتص أنساغ الصيف الباكر ، وعلى المنحدر

(*) متيورا في أحد معانيها القديمة تدل على مصدر الخير والحياة . « المترجم »

عن يمين الربوة حيث تجلس داريا كانت المزروعات الخريفية تلوح سطحاً أملس أخضر كثيفاً ، وبعدها تنهض غابة شاحبة ، لم تتفتح بعد تماماً ، من أشجار السرو والصنوبر ملونة ببقع داكنة ، ويخترقها من من أعلاها وأسفلها طريق يؤدي إلى بودموغا . وقريباً من الغابة وعن يسار الطريق كان هناك مرعى سُور جانباه وترك جانباه الآخران مفتوحين على نهر انغارا وعلى القرية . هنا كانت الأبقار تروح وتغدو وفي رقبة إحداها جرس يرن كأنما يغرغر . وهناك أيضاً كانت تربض ، وكأنها الشجرة الملكة ، أرزية ضخمة أزلية محيطها يقارب الثلاث باعات وذات أغصان هي أيضاً ضخمة وممتدة باستقامة ورأس بترته العاصفة (كان الشيوخ من الفلاحين لا يذكرونها إلا بصيغة المذكر) ، وكانت تنتصب قربها شجرة بتولا تبدو وكأنها حاولت أن تنهض وتبسق لكنها لم تفلح ولا تدري لماذا : ألخوفها مـن منظر الأرزية المهيب أم لخشيتها من العقاب الذي حل بها . كانت داريا تذكر شجرة البتولا عندما كانت غضة طرية ، تذكرها وهي لما تزل شجرة بتولا ، أما الآن فقد انشرخ جذعها إلى قسمين ملتويين وتحجرت قشرتها وتهاوت وتدلت اغصانها الثقيلة إلى أسفل . وهذا كل شيء ، وما عداه في المرعى فقفر ، كل ما عداه اقتطعه القطيع وداسه .

لكن داريا كانت ترى ، كانت ترى أيضاً ما وراء الغابة — كانت ترى الحقول بواقياتها من حور الرجراج الباسق والضفة اليمنى الرطبة المغطاة بشجيرات الحور الصفصافي والمشمش ، والمستنقع على مقربة من بودموغا حيث كانت تبرز فوق النتوءات أشجار بتولا قميئة تيبست مبكراً من الماء الفاسد تلوح عارية وخادعة : ما ان تمسك بيدك

واحدة منها حتى تنقصم وتتقصف . أما أشجار البتولا على الضفة اليسرى العالية فمختلفة تماماً — باسقة ، نظيفة وغنية تترك لدى لمسها طبقة رقيقة من الجير الأبيض وتنتصب كل ثلاث أو أربع بمفردها في رحابة ومرح كأنما صُفت هكذا للعبة ما . أكثر من خطوبة تمت هنا ، وأكثر من فتاة اكتسبت فوق هذا العشب شهرة إذ كانت تغادره بكامل ما كانت عليه من لباس ، لكن ليس بكامل ما كانت عليه من عفاف وكثيراً ما كانت القرية كلها تسرج الخيول وتأتي إلى هنا تحت الشمس الحارقة لتحيي الأعياد ، وكثيراً ما كان الفتيان يقفزون من فوق المنحدر العالي إلى الماء القاتم . وكما تقول إشاعة قديمة ، لم يخرج ذات صيف فتى اسمه برونيا من الماء إلى المنحدر ثانية ، ومنذ ذلك الوقت وهو يهوم هنا في كل ليلة كأنه حوري بحر وينادي بوجل وبشكل غامض مبهم شخصاً ما .

وتابعت داريا ترى بذاكرتها : رأت من جديد حقولا على جانبي الطريق ، وفيها ، هنا وهناك ، أشجار هرمة وحيدة معظمها تيبس كانت تحدد في زمن الملكية الفردية حدود قطع الأرض . وكانت الغربان التي أربكتها الشمس الضاربة إلى البياض الممعنة في شحوبها والسكون الذي جاء في غير أوانه تحط على الأشجار بكسل وصمت . ورأت الطريق ينعطف إلى البيدر القديم حيث تسعى عصافير الدوري في العضافة التي نبتت الحبوب من خلالها ، وحيث القش المسود يمتد طبقات طبقات على الأرض — كم حولها ، بالفعل ، من الأشياء القديمة التي عاشت أيامها وأدت ما عليها من خدمة وباتت لا لزوم لها ، لكنها مازالت تتعفن ببطء وعلى كره منها . كيف نتصرف ؟ ماذا

تفعل بها ؟ هنا ، حسناً ، كل شيء سيكون نهباً للنار والماء ، لكن ما العمل في الأماكن الأخرى ؟ وبدا لداريا أن ليس فوق هذه الأرض ظلم أشد من أن يعيش شيء ما ، شجرة أو انسان، إلى وقت يصبح فيه غير ذي نفع ، يصبح فيه عبئاً على الآخرين ، وان هذه الخطيئة من بين الخطايا الكثيرة الكثيرة المكتوبة على هذا العالم ليسأل عنها المغفرة ويقوم بالتكفير عنها هي أثقل الخطايا . الشجرة يمكن القبول بأمرها — تسقط ، تتعفن وتصير سماداً للأرض . أما الانسان ؟ هل ينفع حتى لهذا ؟ الآن حتى غذاء الحقول يجلبونه من المدن ، والعلم كله يأخذونه من الكتب ، والأغاني يحفظونها من الراديو . علام اذن نصبر على الشيخوخة إن كانت لا تمنحنا الا المنغصات والعذاب ؟ علام نبحث عن حقيقة وخدمة خاصة ، علوية والحقيقة كلها أنه لا نفع فيك الآن ولن يكون ، وان كل ما جئت من أجله إلى هذا العالم قد قمت به منذ زمن طويل ، وان كل الخدمة التي تؤديها الآن هي مضايقة الآخرين. « أليس كذلك ؟ أليس كذلك؟ » . تساءلت داريا في خوف ، وإذ لم تعرف جواباً ، بل الأصح حين لم تر أمامها إلا جواباً واحداً وحيداً ، صمتت في ارتباك وانسحاق .

... وهناك النهاية المنفرجة لمتيورا ، الضفة التي شكلها الطمي أمام بودموغا أو بودنوغا، والمخاضة المؤدية إلى بودموغا أو بودنوغا ، إلى هناك ، حين يكون الماء رائقاً، كانوا يسوقون قطعانهم وكانت قطعانهم تمضي صيف كل عام هناك ، لكن ما ان يرتفع ماء النهر ويصخب حتى تتهيأ للعودة سريعاً بالقارب . رأس بودموغا يبرز في انغارا وينحرف قليلا عند متيورا وكأن الجزيرة السفلى نوت في وقت ما أن تتجاوز

الأمامية فانثنت وانعطفت لكنها لسبب ما توقفت وكان على متيورا أن تقطر بودموغا : في مكان المخاضة وكيما يكون هناك ما يتشبث به الانسان حين يصخب النهر مد حبل في الهواء . على هذا الحبل تحب الخطاطيف التي تعيش في المنحدر عند النهر المتصل بمتيورا أن تحط عليه، وهي الآن تحط هناك وتنفض أذيالها وتتطلع إلى الأسفل كالعوامات .

ولا تدري هل الجزيرة مغمورة بالشمس أم لم يعد للشمس وجود ؛ الشمس موجودة في السماء ، وهناك بريق منها في الجو وعلى الأرض لكنه باهتٌ يكاد لا تشوبه حمرة ولا يعطي ظلاً . كل ما حولك ناعس صابر ، وكل ما حولك صامت — إلى يسارك ترقد القرية بنوافذها اليعمش صامتة،و« الأرز الملوكي» المقطوع الرأس في المرعى تجمد وهو يبسط عشوائياً فروعه الضخمة وأغصانه . والحقول المخضرة تبدو شاحبة وناعسة والأشجار تلوح نادرة متباعدة لم تنتصب بملء قامتها ولم تزهر بملء ازهارها : وبالطبع ترقد من حولك بصمت أيضاً وبقبح وبسيطرة لا تبوح بسرها قرية أخرى أغنى مغلقة الآن أمـــام الإقامة — المقبرةُ مثوى الذين سبقوا ...:

حاولت داريا لكن عبثاً أن تزيح عنها فكرة ثقيلة ، لا قبل لها بها : لعل هذا ما يجب أن يكون ؟ لكنها حاولت من جديد وهي تنأى بنفسها عن الفكرة ، أن تجد جواباً أسهل عنها : « ما معنى » هذا ما يجب أن يكون ؟ » . فيم كانت تفكر ؟ ما الذي سعت للحصول عليه ؟ هذا أيضاً لا تعرفه . كفاها ان عاشت حياة طويلة وشقية لتعترف أمام نفسها في آخر العمر أنها لم تفهم في هذه الحياة شيئاً : فيما كانت هي تسير إلى

شيخوختها ، كانت الحياة الانسانية تندفع إلى مكان ما . فليلحق بها الآخرون الآن ، لكنهم هم أيضاً لن يدركوها . يخيل إليهم فقط أنهم سيلحقون بها . لكن لا ، مكتوب عليهم أن ينظروا في أسى وعجز في إثرها كما تنظر هي الآن .

في مكان ما خلف ظهرها زعق في انغارا الكبير مركب ، ومن شجرة وخيدة في الحقول انطلق في الجو غراب . وترددت في ذاكرتها في غير مناسبة صلاة – تعويذة قديمة ومنذرة بالشؤم : « في البحر المحيط ، في جزيرة بويان .... » .

* * *

— ٥ —

وصل بافل عند المساء . رفعت داريا رأسها على صوت باب الحاكورة ورأته كيف دخل الحاكورة ونزع عن كتفيه حقيبة ظهره المتدلية . أدركت من هذه الحقيبة أنه سيأخذ معه بعض البطاطا . سألته عندما دخل البيت :

— هل « نظفتم » البطاطا ثانية ؟

— « نظفناها » .

— قلت لكم خذوا أكثر . جئتم بالقارب ومع هـذا لم تأخذوا أكثر من نصف كيس ، فهل يكفيكم هذا طويلا أيها الأكولون ؟

— لو أخذنا أكثر لنوتْ وفسدت ، — رد بافل وهو يجلس على الدكة ويحاول خلع جزمته المطاطية الثقيلة .

— تذوي ؟ — قالت داريا مندهشة ، — لقد قلت إن هناك قبوا .

— يوجد قبو ، — أجاب بافل وهو يتأوه منحنياً فوق جزمته الملتصقة برجله : ، القبو موجود ، موجود ، إنما سنأخذ منه الماء كما من بئر . فيه ماء يمكن ضخه بالمضخة إلى ما شاء الله .

— ! لماذا جعلوه حيث يوجد ماء ؟ لماذا لم تنتبه إلى ما اعطوك ؟

— انتبهت أو لم تنتبه . — هناك ماء عند الجميع . لا حاجة لأي انغارا .

ـ ما هذا الذي يجري ؟ لماذا بنوا هكذا ؟ لماذا لم يتركوا مجرفة واحدة في الأرض ليعرفوا ما فيها ؟ .

ـ لأن شخصاً غريباً قام بالبناء ، وهكذا بنوا .

ـ هذا أيضاً أغرب .

وصمتت داريا : ما نفع الكلام : وبالفعل كيف تفسر مالا تفسير له ، ما هو بذاته جواب ؟ الأطفال وحدهم يسألون لماذا يسمى الخبز خبزاً والبيت بيتاً ، لأن للخبز والبيت اسميهما الخاصين القديمين اللذين اشتقت منهما الكلمات الأخرى ، وماذا يتغير في الأمر إن عرف أحدهم من أين جاء هذان الاسمان ؟ المهم أن يوجد الخبز ، أن يوجد البيت وألا يقام السكن الإنساني عشوائياً !

رأت ان بافل متعب : خلع جزمته بصعوبة وحملها إلى الممر كي لا تفوح منها رائحة النتن ومضى حافياً إلى الركن الأمامي وجلس على السرير الخشبي ماداً بجهد رجليه البيضاوين المترهلتين أمامه : في ربيع هذا العام ، قبيل الفصح بلغ الخمسين من عمره . كان الآن أكبر إخوته . ومن حيث الترتيب كان الابن الثاني . ابنها الأول أخذته الحرب ، كما فقدت ابناً آخر اثناء الحرب : هذا بقي في البيت لصغر سنه ، لكنه وجد منيته هنا في المحتطب على بعد ثلاثين كيلو متراً من متيورا . أتوا به إلى البيت في تابوت مغلق ودفنوه دون أن يروه لأمه معللين رفضهم بأن ليس هناك ما يُنظر إليه : ما أبسط هذا واكرهه وأعصاه على أي فهم : ولدته وأطعمته وأشربته وربته حتى شب وأخذ يسير إلى رجولته ، وفجأة تنطلق قطعة خشب بغباء فلا تترك منه شيئاً حتى للتابوت . من الذي أشار إليه بالبنان ، ولماذا إليه دون غيره ؟

لم تكن داريا تصدق أن هذا يحدث عشوائياً دون تبصر : من يقع عليه البناان دون أن يراه يسقط : لا ، كان في هذا شيء مقرر وموجه سلفاً وعارف من هي الفريسة ، وكان في هذا كله حقيقة مريبة وغامضة. في أن يكون الثلاثة الذين دفنتهم داريا قد شبوا كلهم ودخلوا ميدان الحياة : أحدهم كان ينفع للحرب والثاني للعمل وثالثهم ، ابنتهما البكر التي توفيت في بودفولوتشنايا في مخاضها الثاني ، كانت لها اسرتها : في بودفولو تشنايا — هذا معناه أنها هي أيضاً سيغمرها الماء . فقط ابنها المدفون في بلاد غريبة وفي قبر مشترك مع آخرين كثيرين قد يبقى في قلب الأرض . ومن يدري كيف حالهم هناك مع الأرض والماء — إلى ما يحتاجه الأحياء أكثر من أي شيء آخر .

ومثلهم ، ثلاثة ، ظلوا على قيد الحياة : ابنة في اركوتسك وابن انتقل من مصنع قديم بعيد لصنع الأخشاب إلى آخر جديد افتتح حديثاً على مقربة من متيورا ، وبافل هذا . الشكوى منهم حرام ، فجميعهم يحترمون أمهم ويجلونها : البعيدان منهم يكتبان إليها ويدعوانها لزيارتهما : وبافل نفسه لا يبادرها بأي كلمة نابية كما لا يلمح لزوجته بمبادرتها : مثل هذا الحظ لا يصيب الجميع في شيخوختهم — وماذا يبغي الإنسان بالفعل أكثر من هذا ؟ الآن لا أحد يعاني من الجوع والبرد . وتبقى هي ، علاقةُ الأبناء بوالديهم ، الأهم بين كل الأمور .

جلس بافل ، صمت قليلا وهو يحـــدق في أرض الغرفة في تفكير ثقيل الوطأة ، ولعله ، على الأرجح ، لاحظ أن أرض الغرفة غير مكنوسة فقال يسأل :

— كيف تتدبرين أمورك هنا ؟ فيرا لا تأتي إليك ؟

ـ حين تأتي فيرا أقول لها أن لا داعي . أنا انظف وارتب بنفسي :
الآن فقط أهملت أمر البيت : البارحة لم اقترب حتى من البقرة ، تركتُ
كل شيء .

ـ أو تكونين متوعكة الصحة ؟

ـ ما هذا الذي يفعلونه يا بافل ؟ ما هذا الذي يفعلونه ؟ ؟ لا يدخل
في عقل ! ـ راحت داريا تقول بهدوء ثم لم تتمالك نفسها فبكت
وغطت وجهها بيديها وانخرطت في نحيب جاف كالحشرجة . وكان
بافل اثناء ذلك ينتظر ، لا يسألها ولا يستحثها . وعندما تحدثت أمه
وقد هدأت قليلا عما جرى البارحة مشددة بشكل خاص على قول
فورونتسوف وجوك أن ما فعلاه بالمقبرة هو المفروض أن يُفعل ، لم
يحر أيضاً بكلمة بل ازدادت علامات التعب والتثاقل عليه وضوحاً
وقد انحنى مسبلاً يديه بين ركبتيه على طريقة الشيوخ متجمداً عند فكرة
عويصة لا تفارقه . وتوسلت إليه داريا دون ان تنتظر منه جواباً :

ـ ألا يمكننا على الأقل أن ننقل جدتك وجدك ... أ ، يا بافل ؟
آل كارلتسيوف أخذوا معهم ذويهم... في تابوتين. وانفيسا أخرجت ابنها
الصغير ونقلته إلى مكان آخر . خطيئة بالطبع أن نمس الأموات ... لكن
خطيئة أكبر أن ندعهم هكذا : هاك ما يفعلونه ! وإذا ما أطلقوا الماء ...

ـ ليس الآن وقته يا أمي ، ـ أجاب بافل : ـ أنا في غاية التعب ،
ليس عندي دقيقة لآخذ نفساً . حين يتوفر بعض الوقت ننقلهم : لقد
فكرت في هذا . سأتفق مع أي شخص ، كي لا أكون بمفردي ،
وننقلهم .

الا انها وحتى قبل أن تعرف إن كان عليها أن تفرح لأنها حدثته في

في هذا الأمر واتفقا عليه ، راودتها فكرة سرت لها مع هذا وخفق لها قلبها فراحت تسأله في موضوع آخر :

ـ سنحصد هذا الصيف ، أليس كذلك ؟

ـ لا أعرف يا أمي ، لا أعرف شيئاً حتى الآن .

أشفقت عليه ولم تعد تلح عليه بأسئلتها .

لكنها لم تتطرق إلى موضوع الحصاد عبثاً : فقد آن الأوان ليقرروا ما إذا كان عليهم أن يبقوا البقرة أم لا . هذه المسألة لم تكن مطروحة أمامهم فقط بل أمام كل من كان ينتقل إلى السوفخوز . فمن هناك ، من التجمع السكني الجديد التابع للسوفخوز ، كانت ترد أنباء الواحد منها أغرب من الآخر . كانوا يقولون ، ولم يكونوا يقولون وحسب بل خبروا ورأوا يقينا ، أنه يفد إليه ، إلى هذا التجمع ، أناس من اثنتي عشرة قرية ، قريبة وبعيدة وان البيوت تبنى هناك لعائلتين بمدخلين مستقلين وسكنين مستقلين بطبيعة الحال ، وان الشقة المخصصة لكل اسرة ترتفع طابقين بينهما درج شديد الانحدار كأنه معلق، وان الشقق مبنية على هذا النحو للجميع دون استثناء . أما ان الدرج شديد الانحدار لا يستطيع حتى الشخص غير المعافى تماماً أن يهبطه ويصعده بيسر ناهيك عن عجوز طاعنة في السن فأمر يمكن فهمه من حقيقة وقوع إصابات بسببه : فسماور السكير (هكذا كانوا يلقبون محاسب الكولخوز الأكرش الحاد الطبع) طار يعد درجاته فعدوا له بعد هذا ضلعين ناقصين ، وهو الآن نزيل المستشفى . وهناك فتاة أخرى صغيرة من قرية غريبة سقطت عنه وأصيبت في رأسها . ومع هذا لا بأس : لقد اعتادوا السير على أرض مستوية فيلزمهم وقت حتى ينسوا هذه العادة :

وقررت داريا فوراً في قرارة نفسها أنه إذا ما قدر لها أن تعيش في بيت كهذا ، فانها لن تصعد إلى الطابق الأعلى ، لن تسعى إلى حتفها بقدميها . أما الشقق ذاتها فجميلة كما يتباهون . الجدران مكسوة بالزهور والأوراق ، في المطبخ ليس هناك موقد روسي بحطبه وجمره بل فرن كهربائي بمحولات كما في المدينة ، وهناك وراء حاجز مرحاض حتى لا يخرج الناس إلى الطريق ، وفي الأعلى ، إذ ما عن لأحدهم أن يصعد إلى الأعلى ، غرفتان كبيرتان فيهما مختلف أنواع الخزن والأبواب الصغيرة تصلحان لإقامة دائمة البهجة .

هذا هو السكن . وبالقرب منه ، في الفناء ولصق الحائط تماماً حاكورة صغيرة بمساحة خمسة عشر إلى عشرين متراً بحاجة إلى تراب يجلب لها كيما ينمو تحتها شيء ، لا أن تمتد فوق حجر وطين . وهذا أيضاً كان شيئاً عجباً : لماذا هكذا فجأة كل شيء بالمقلوب ، لا حاكورة على تراب ، بل تراب لحاكورة ، وأي حاكورة ! خمسة عشر عشرون متراً هذه مسخرة حتى بالنسبة إلى الدجاج ! وبالمناسبة : للدجاج قنها وللخنزير حظيرته أما البقرة فلا حظيرة لها وليس هناك متسع لإقامة حظيرة : يقال إن أحد أبناء الغجر تدبر الأمر ووجد مع هذا مكاناً يقيم فيه حظيرة لكنهم أتوا إليه من مجلس البلدة وقالوا له : ممنوع ، أزلها ، هذه ليست خيمة غجر بل بلدة على طراز المدن حيث كل شيء يجب أن يكون بمقياس واحد وشكل واحد . لم تكن داريا تؤمن كثيراً بقصة هذا الغجري : فمن أين لغجري أن تكون عنده بقرة ؟ من أيام أيامهم والغجر لا يهتمون بهذه الحيوانات بل يأنفون حتى من سرقتها ، فهم كانوا يتعاملون دائماً مع الخيول . إن يخرج

من ذئب راعٍ يخرج من غجري مربي حيوانات . لكنهم لسبب ما حدثوها عن الغجري دون سواه . وعندما كانت داريا تسأل بأقل إن كانوا حقاً لن يسمحوا بإقامة حظيرة ، كان يقطب ويتهرب من إعطاء إجابة واثقة واضحة بالقول :

— سيسمحون ، لكن الموضوع ليس موضوع الحظيرة .

مفهوم : الموضوع الأكبر هو موضوع الحشائش : في المكان الجديد لا وجود للحشائش ولا للمراعي ، ولم يكن هناك من يعرف بشكل واضح بماذا سيعلفون ليس فقط حيواناتهم بل حتى حيوانات السوفخوز . كانوا يعلمون الحقول الجديدة : كانت التيغا على امتداد عشرات الفراسخ تضج بالآلات ، لكن الأيدي لم تتوصل بعد إلى جعلها صالحة للزراعة : فلكي تقلع الأرض عن عادةٍ وتتعلم أخرى يلزمها سنوات وسنوات : يمكن في الشتاء الأول ، طبعاً ، الحصد في الأراضي القديمة . وعبارة « يمكن » القصيرة غير المألوفة هذه كانت أكثر ما يكدر الناس ويزعجهم . « يمكن » لشتاء واحد وبعد ذلك ؟ ما الذي سيكون بعد ذلك ؟ أليس من الأفضل إلغاء الموضوع ونفض اليد منه دفعة واحدة ؟ ومرة أخرى كيف يلغونه وينفضون يدهم منه إذا كانوا تعودوا على البقرة وإذا كانت هي التي أطعمتهم وروتهم في أعصب سني حياتهم ، وإذا كانت « يمكن » هذه لسنة واحدة حقاً ؟ قد يكون هذا ممكناً ، لكن كم في هذا « الممكن » ، من جهة أخرى ، من حُفر السقوط فيها أسهل من السهل : كيف تجد الوقت لتحصد — فهذا ليس كولخوزاً حيث يحمل كل واحد الهم نفسه وحيث كل واحد يعيه كما تعيه ؛ ثم عليك بعد أن تحصد أن ترحل الحشائش عبر انغارا قبل أن يفيض ،

ثم تحملها إلى الجبل . ثم على فرض أنك تمكنت بشكل ما من حصدها وترحيلها عبر النهر وحملها إلى الجبل ونقلها فأين تضعها ؟ ثم مرة أخرى ، أين تضع البقرة ؟ كم هناك من الأمور ، عليها اللعنة ، تجعلك تستسلم للقنوط واليأس !

لا ، بدا لهم هذا العام الأخير ، الانعطافي مرعباً ، وبدا لهم من الظلم أنه يمضي كعهده دائماً يوماً بعد يوم ، بنظامه المألوف وسرعته المألوفة إلى ما سيكون ، وان « ما سيكون » هذا لا يمكن التسويف فيه أو المماطلة . فيما بعد ، حين سيكون هذا الذي يجب أن يكون ، حين سيجدون انفسهم وسط الحياة الجديدة ، ويتبين يقيناً من سيكونون . فلاحين لكن فلاحين آخرين ، ليسوا فلاحي اليوم ولا نبلاء الأمس ، حين يصيرون في ركب الحياة الجديدة ويسيرون فيها مع السائرين ، قد تخف الوطأة عليهم أما الآن فما زال القادم الآتي يفزعهم ، مازال كل شيء يبدو لهم غريباً ، غير ثابت ، منحدراً انحداراً شديداً ليس بطاقة أي كان أن يتحمله كهذه الدرجات التي يصعدها أحدهم بخفة ودون عناء بينما يعجز عن ذلك غيره . الشباب أيسر عليهم ، يستطيعون الصعود إلى فوق قفزاً على رجل واحدة — لهذا كان الشباب يغادرون متيورا بطيبة خاطر أكبر :

كلافكا ستريغونوفا كانت تردد شيئاً من هذا القبيل :

— كان يجب إغراقها منذ زمن طويل . ليس فيها رائحة إنس :.. ليسوا بشراً ، بل بقات وصراصير ، وجدوا المكان الذي يعيشون فيه — وسط الماء كالضفادع .

وكانت تنتظر — تنتظر بفارغ صبر ساعة تضرم النار في بيت أبيها

وجدها وتتلقى ما بقي لها من نقود تعويضاً عنه . كان بودها من زمن طويل لو تحرقه وتغادر لا تلوي على شيء ، لكن كانت تلتصق ببيت كلافكا من الجانبين بيوت أخرى كبيتها مازال يعيش فيها أناس لم يغادروها ، وكان بوسع السنة النار أن تمتد إليها . ولهذا كانوا يمسكونها عن ذلك ، فكانت تلعن متيورا وأهل متيورا الذين مازالوا يتشبثون بقريتهم وتصب عليهم جام غضبها ولعناتها .

وكان بتروخا ابنُ العجوز كاترينا مشغول البال أيضاً بالشيء ذاته : كيف يحصل بأسرع ما يمكن على النصف الثاني من المبلغ المقرر له تعويضاً عن بيته . لكن مصيبة من نوع آخر كانت تغل يدي بتروخا . فمنذ عامين جاء أشخاص وطافوا بمتيورا وطرقوا كل بيوتها تقريباً وعاينوها ثم ثبتوا على بيته لوحة من الصفيح : « أثر من المعمار القروي . عائدية أكاديمية العلوم » . قالوا لبتروخا إنهم سينقلون داره إلى المتحف فراح يتباهى ويفتخر أول الأمر : فليست أي دار بل داره هو بتروخا التي اختاروها ووضعوا عليها إشارة ، وسيدفع الناس نقوداً حتى يروا مجرد رؤية أي دار هذه ، وأي زركشات بالدانتيلا نادرة ودقيقة هذه التي على أطر نوافذها ، وأي زخرفات مثيرة هذه التي على سياجها الخشبي ، وأي أرضيات فيها ومن أي جذوع أشجار صُنعتْ . وعلى الرغم من لوحين مماثلين علّقا على المطحنة ودار مجلس القرية إلا انهما يبقيان مطحنة ومجلس قرية ، أما هذه فدار سكن ، فهل هناك وجه شبه حقاً ؟ حتى الآن هذه لوحة مؤقتة ، هناك في المتحف ستكون لوحة أخرى « بيت الفلاح المتيوري بتروخا زوتوف ... » أوْ لا : « الفلاح المتيوري نيكيتا الكسيفتش زوتوف » . سيقرأ الجميع اللوحة ويحسدون بتروخا —

نيكيتا الكسيفتش زوتوف . وبالفعل سُمي لدى ولادته وسجل باسم نيكيتا ، أما في الحياة فلسذاجته وتفاهته وغفلته سمي بتّروخا . أما الآن فلم يعد أحد يذكر أنه نيكيتا ، حتى أمه التي والدته كانت تدعوه بتّروخا ، بل هو نفسه لم يكن يخرج اسمه الرسمي الشرعي خلسة ويصفّ الأسماء الثلاثة الواحد إلى جانب الآخر إلا في أحلامه حين كانوا يمنحونه وساماً أو مكافأة ويكبرونه بوصفه انساناً متميزاً مجيداً ، أما في حياته اليومية فكان يكتفي باسم بتّروخا . أما على لوحة الشرف أو لدى التوقيع فيجب أن يكون حاضراً ، كما هو مفروض باسمه الثلاثي بكامل عظمته .

لكن الأيام توالت شهوراً بعد شهور ولم تصل من اولئك الذين اختاروا دار بتّروخا إشارة أو خبر . وساور بتّروخا القلق ، فالسلفة التي أخذها ، وهي نصف التعويض عن الدار ، قد انفقها على أكله ومشروبه منذ زمن ، ولكي يستلم النصف الثاني من المفروض ألا توجد دار بتّروخا بما هي كذلك . ظل بتّروخا طول العام المنصرم يراسل أكاديمية العلوم ويطالب إليها أن تأخذ « رزقها » لكن أحداً لم يجبه . كانت فرحته بالمتحف قد غاضت : سحقاً لها هذه الكتابة الأبدية والمدوية على اللوحة ، المهم الحصول على باقي المبلغ . فبعد الكولخوز لم يستقر بتّروخا في مكان ولم يعمل في أي مكان . بل كان يحصّل بعض الكوبيكات بين الحين والحين من أي عمل يُعرض عليه ويعيش بها مع أمه على حافة الجوع ، هذا في حين كان ينتصب قبالة اسمه في الكشف رقم مدور — ألف روبل ، ثروة كاملة . لم يكن بينه وبين هذه الثروة إلا أمر بسيط — إزالة الدار . ولكان أزالها في طرفة عين لولا أكاديمية العلوم تلك :

فدار بترّوخا كانت ترتفع منفردة بحيث لم يكن هناك ما يجعله يقلق على جيرانه . لكن « ملكية » أكاديمية العلوم لها كانت ، من جهة أخرى ، تكبح جماح رغبته . لقد ثُبت على الدار بأحرف مطبوعة أنها ليست له ، ليست لبترّوخا ، فهل يسعى بقدميه إلى المكاره . والحاصل : الدار دار بترّوخا والملكية ليست ملكية بترّوخا فحاول أن تفهم من صاحبها . فلا هم يعطونه مالاً ولا هم يأخذونها .

— سأريهم كيف ينتظرون ، كان بترّوخا يومىء إلى مكان ما فوق انفارا متوعداً ، — الخشب ليس حديداً ، يمكن أن يشتعل من تلقاء نفسه . وليسألوا بعد هذا ملكية منْ هي . فلينتظروا ما طاب لهم !

كلاهما : كلافكا وبترّوخا ، وعلى الأرجح بعض الشبان ، اللذين يمكن القول فيهم إنهم هجروا متيورا ولم يهجروها ، كانوا مسرورين بهذه التحولات ولم يكونوا يخفون سرورهم ، أما الآخرون فكانوا يتخوفون منها لعدم معرفتهم بما ينتظرهم في المستقبل . فهنا كل شيء أليف معاش ، مكرور . هنا حتّى الموت بين الأهل كانوا يرونه واضحاً بسيطاً : كيف سيندبونهم ، إلى أين سيحملونهم ، قرب من سيضعونهم . أما هناك فظلمة ظلماء في هذا العالم وفي ذاك . وحين كان بافل يعرج من السوفخوز لفترة قصيرة وكانت داريا تنهال عليه بالاسئلة ، كان يجيبها دون حماسة وبما يشبه الذنب كأنما خشية أن أن تذعر ، خشية ألا يجد الجديد الآتي مكاناً له في مفاهيمها القديمة .

— تقول الحمام واحد للجميع ؟ — كانت تتأوه وهي تحاول أن تتخيل ما عساه يكون هذا الحمام . — هذا ليس أسهل ! واحد لكل هؤلاء الناس ؟ ... ألا يحق للواحد منا أن يبني حماماً له ؟

– وأين تبنيه هناك ؟

– يا إلهي ! يبدو من الأفضل أن يعلوني الوسخ على أن أضع قدمي في هذه « المجنة » !

وهناك أيضاً خبر جديد : في الأقبية ماء . إذا كان فيها الآن ماء فسيكون فيها ماء أيضاً في العالم التالي ، فهذا الصيف ليس رطباً . إذن يجب رفع القبو مادام هناك مجال لرفعه ونصنع منه جورة مع أرضية خشبية . وهكذا تكفي الجورة للحاكورة . الأرض قليلة . الدجاج ينبش وهو نفسه ينظف .

ستذكرون ، آه كم ستذكرون متيورا ...

* * *

حين أطبق الليل وغفت متيورا انسل من تحت الضفة التي على قناة المطحنة حيوان صغير أكبر من الهر قليلا لا يشبه أي حيوان آخر — — إنه سيد الجزيرة . إذا كان يوجد في البيوت عفاريت فلابد أن يكون في الجزيرة سيد . لم ير هذا الحيوان يوماً أحد ، ولم يلتق به يوماً أحد ، بينما كان هو يعرف الجميع ويعرف كل ما يجرى فوق هذه الأرض المنعزلة المحاطة بالماء والناهضة من تحت الماء ، يعرف ما يجري من أقصاها إلى أقصاها . ولهذا كان السيد يرى كل شيء ويعرف كل شيء ولا يعيق شيئاً . كما لم يكن بوسعه أيضاً أن يبقى سيداً إلا كي لا يلتقي به أحد ولا يشك في وجوده أحد .

وقبل ذلك كان قد رأى وهو يتطلع من حجره ، من مأواه القديم هذا على ضفة قناة المطحنة أن النجوم قد طلعت مع المساء لكنها سرعان ما انطفأت ولعلها ما زالت في مكان ما الآن لأن ضوءاً رمادياً غبشا كان ينساب من الأعلى ولان هذا الضوء كان يجب أن يصدر عن مكان ما ، لكن حتى عيناه الثاقبتان لم تكونا تميزانها . وإلى ذلك فهو لم يكن يحب النظر إلى السماء ، فهذه كانت تؤدي به إلى حالة قلق غامضة لا سبب لها وكانت تلقي في نفسه الخوف بقرارها السحيق المخيف الذي لا حدود له . فلينظر إلى هناك بنو البشر ويتعزوا ، فما يحسبونه أحلاماً ليس

سوى ذكريات ، ليس حتى في أزهى افكارهم وأعذبها سوى ذكريات وحسب . فلم يُعط أحدٌ أن يحلم .

كان الليل دافئاً وساكناً ، ولعله في مكان ما حالك السواد ، لكنه كان هنا تحت السماء الضخمة الممتدة فوق النهر شفيفاً متطلعاً . كان يلف المكان ، لكن كان الممكن التمييز بيسر في هذا السكون الناعس والحي المنساب كالنهر خرير الماء عند رأس النهر الأعلى القريب والهدير الأصم الرجراج، كما بفعل الريح في الأشجار ، لتدفق الماء في الضفة اليسرى الغربية والطرطشات النادرة الخاطفة للسمك الذي امتد لعبه إلى ساعة متأخرة . كانت هذه أصواتاً فوقانية يلتقطها السمع ، أصوات انغارا التي كان بوسعك بعد أن تسمعها وتميزها أن تتبين أصوات الجزيرة أيضاً : صريف الأرزية العتيقة المؤلم المجهد في المرعى والدبيب الأصم هناك للبقرات المرتعية واصوات المضغ المنسكبة في رنين واحد ، والحركة الدائبة في القرية لكل ما يعيش خارج البيت : الدجاج ، الكلاب ، الماشية . لكن حتى هذه الأصوات كانت بالنسبة إلى السيد عالية وفظة ، ولهذا كان يصيخ بسرور خاص وباحساس غريزي خاص إلى ما يجري في داخل الأرض وقرب الأرض : إلى خشخشة الفأر الخارج إلى صيده ، وإلى الجلبة المكتومة للعصفور الجالس فوق البيض في العش ، وإلى الاهتزازات الضعيفة للغصن المتمايل الذي بدا لطائر الليل غير مريح ، وإلى أنفاس العشب الطالع .

بعد أن انسل السيد من حجره وأصاخ السمع وأدرك كمألوف عادته كل ما يجري حوله ، بدأ بنفس تمهله واهتمامه المعهود طريقه في الجزيرة . لم يكن السيد يسلك طريقاً واحد ، فاليوم يمكن أن

يعدو في الجهة اليسرى وغداً في اليمنى كان يمكن أن يعود من منتصف الأرض ، من عند دغلة الصنوبر مثلا ، كما كان يمكنه أن يتابع حتى نهاية الجزيرة أو حتى أن يتسلل إلى بودموغا والمكوث ساعات هناك يتيقن من شؤون حياتها . لكنه لم يكن يغفل القرية أبداً ، فالتغيرات على اختلافها كانت تحدث في أغلب الأحيان فيها . وعلى الرغم من ان السيد كان يحس إحساساً مسبقاً أن كل شيء سيتغير في القريب العاجل دفعة واحدة بحيث لن يعود السيد ، بحيث لن يعود شيئاً ، إلا انه سلم بالأمر فلا بد مما ليس منه بد . وسلم بالأمر لسبب آخر وهو أنه لن يكون هنا أي سيد بعده ، ولن يكون هنا ما يسود عليه . إنه خاتم الأسياد . لكن ما دامت الجزيرة قائمة فالسيد هنا هو .

تسلق التلة قرب المكان الذي جلست فيه داريا نهاراً ورفع رأسه وتطلع حوله . كانت متيورا ترقد في دعة وسكينة : الغابات تلوح مسودة ، والعشب اليانع المشبع بالماء يمتد فوق الأرض بلون الفضة ، والقرية تبدو بقعاً سودا كبيرة منتشرة لاطرق فيها ولا جلجلة بل كأنما كل شيء يتأهب للطرق والجلجلة . كان دفء النهار قد برد ، وكانت تنبعث روائح رطبة ممزوجة بشيء من المرارة ، ومن مكان ما تسربت نسمة هواء ضعيفة وثقيلة وتنهدت وهمدت وغارت كموجة في الرمل . لكن الارزية العتيقة صرت صريراً طويلاً وقلقاً ، وخارت دونما سبب كأنما بين اليقظة والنوم بقرة خواراً كالمواء . وبعيداً في النباتات والحشائش التي نمت على ضفة النهر تحررت أخيراً شجرة عنب ثعلب من رقبة شجرة أخرى كانت تلويها إلى أسفل وانتفضت وانتصبت بملء قامتها . وبقبق الماء — انفقعت فقاعة كانت تسبح منذ المساء أو

انتفضت سمكة وهي تحتضر ؛ وسرى في العشب وجرى تموج مجهول على شكل شريط ضيق ، والآن فقط سقطت من شجرة البتولا التي في المرعى إلى جدار الارزية آخر ورقة من أوراق العام الفائت .

توجه السيد إلى القرية .

بدأ السيد طوافه بها كعادته ، من الكوخ الذي فوق التلة الجرداء حيث كان بوغودول يعيش . كانت رائحة الإهمال والعفن تنبعث منذ زمن طويل من الكوخ الطويل والواطىء كالماعون ، ولم يكن وجود بوغودول يغير من أمره شيئاً . فما يبنى بسرعة يشيخ بسرعة . كانت في متيورا ابنية دامت قرنين وأكثر ولم تفقد شيئاً من مظهرها وروحها ، أما هذه فلم تخدم إلا نصف قرن بشق النفس . وهذا لأنه لم يكن لها رب بيت واحد ، لأن كل من سكنها إنما كان ياوذ بها من البرد والمطر وفي عزمه أن يتركها في أقرب فرصة إلى مكان أنسب وأليق . وبوغودول ، على وجه الخصوص ، ليس رب بيت مع أنه ليس مضطراً أن ينتقل منها إلى أي مكان .

كان بوغودول ينام في الغرفة التي باتجاه القرية . وكان شخيره الشديد الذي يعادل قوة صوتين يُسمع من خلال النافذة والجدران متردداً في أرجاء الغرفة . أصاخ السيد السمع واستنشم ؛ ولم يكن هذا للمرة الأولى ، أن الموت سيدرك أخيراً بوغودول هنا في متيورا ، وان بوغودول كالسيد يعيش أيضاً صيفه الأخير .

في وقت من الأوقات كانت القناة تمتد هنا تيارا واحدا مستقيماً ورتيباً ، لكن شيئاً فشيئاً انجرفت من رأس الجزيرة إلى هنا الحجارة وتراجع الماء الحيّ والسريع إلى اليمين وتشكل وراء الربوة مسيل كئيب ذو قاع من الطمي والأعشاب المائية المتمايلة . وفي الأسفل كان المجرى

يستوي ويمتد بملء اتساعه . وأخذت تظهر هناك من جديد حجارة وحصى وعلا منحدر بنيت عليه القرية . كان بيت بترَوخا زوتوف الذي كأنما تعب وتخلف فلم يتسلق المنحدر يقف وحيداً أول البيوت . كان السيد يعرف أن بتروخا سيتصرف قريباً بداره من تلقاء نفسه ، فقد كانت تنبعث منها تلك الرائحة الخاصة التي لا يكاد يلتقطها إلا السيد نفسه ، الرائحة المرة البالية للمصير النهائي التي لا يمكنك أن تخطئها . كانت رائحة ذبول مشابهة تنتشر في القرية كلها من أقصاها إلى أقصاها ، لكن هذه الرائحة كانت عند دار بتروخا أقوى . ان الأرض والكائنات الصامتة فوقها تأخذ في الاستعداد في الوقت المناسب لما ليس منه بد .

أقعى السيد واستند من الطريق إلى خشب البيت القوي والقديم . سرت في جذوع الخشب من فوق إلى أسفل طقطقة متصلة « طق ، طق ، طق ، — كان البيت يئن ، — طق ، طق ، طق » . أصاغ السمع ، وإذ سمع شيئاً التصق بقوة أكبر وقد ارتاح بالاً إلى الخشب الدافىء . لابد أن يبدأ شخص ما الفرض الأخير ، لابد للفرض الأخير أن يبدأ من شخص ما . كل ما يعيش في هذه الدنيا له معنى واحد — معنى الخدمة . ولكل خدمة نهاية .

نهض ، تنحى عدة خطوات باتجاه الطريق والتفت إلى النوافذ الواطئة في إطاراتها الجميلة المزركشة ، الواطئة لا لأن الدار حطت ، بل لأن الأرض ارتفعت مع الزمن . هناك وراء النوافذ كان بتروخا ينام نوما مكدراً مضطرباً ، وكانت أمه كاترينا تنام أيضاً حتى في عز الصيف فوق الموقد الروسي لتدفىء عظامها الهرمة . كاترينا ، كاترينا ... من بوسعه أن يقول لماذا يرزق الصالحون أبناء طالحين ؟ تعزية وحيدة بقيت لك : أن سنيك إلى نفاد قريب .

أبطأ السيد من عدوه حيث استوت القرية وانتظمت . كان كثيراً ما يتوقف ويستنشم ويصيخ السمع . ولم يكن يشعر بالخوف : فلا الكلب ولا القطة أعطيا القدرة على الإحساس به ، وهو لم يكن يريد أن يفوت على نفسه رؤية التغيرات التي قد تكون طرأت منذ الليلة الماضية . البارحة قرر ألا يدخل القرية إلا عند الصباح . لكن حتّى في ذلك الوقت كان الشيوخ الذين أفزعهم ما اقتُرف في المقبرة وآلمهم يئنون دون أن يغمض لهم جفن ويتقلبون توجعاً ينتظرون في أمل وخشية القصاص . لكن يبدو أن القرية اليوم قد هدأ روعها وغفت .

كانت القرية تنام : لم تكن الكلاب تعوي كما بالأمس ولا الأبواب تصر ، ولم تكن تتناهى من الداخل أصوات واهنة مقلقة . كان الفراغ والهدوء يخيمان في عتمة الطريق الرمادية ، وكانت البيوت تنتصب بشبابيكها المائلة إلى البياض في دعة وسكون لا يشي شيء بما في حياتها الداخلية . لكن حين كان السيد يقترب من أي بيت كان هذا يرد بتنهيدة طويلة صابرة مُظهراً بهذا أنه يعرف كل شيء ويشعر بكل شيء ويستعد لكل شيء . كانت بينها بيوت غير قديمة ، بنيت من نحو ثلاثين أو حتّى عشرين سنة ، لم يمتد بها الوقت كي تسود وتنغرز في الأرض وتتأصل فيها ، لكن حتّى هذه البيوت كانت تقف في الصف العام باستسلام عارفة بمصيرها ودانية منه تحت جنح ليلة الصيف القصيرة هذه خطوة أخرى . وهكذا ستمضي بأناة وصمت إلى يومها الأخير النهائي مظهرة عند الوداع كم كان فيها من الدفء والشمس لأن النار إنما هي الشمس المختزنة والمدخرة التي تسحب قسراً وكرهاً من الجسد .

كان الليل يتقدم ، لكنه ظل كما كان ، باهتاً دون ظلال . كانت رطوبة راكدة تنبعث من الماء القريب على شكل موجات . وحين كانت هذه الموجات تهبط كانت تعلو رائحة قوية جافة من الإهمال والعفن . كان السيد يشعر وهو يعدو مقترباً من البيوت كيف كان الدفء الذي امتص طول اليوم يتسرب من الخشب ، لكنه كان اليوم أكثر اعتدالاً ، وضعفاً ، — يقينا ، لن تطلع الشمس غداً .

كانت متيورا القرية تنام . وكانت تتراءى للعجائز أحلام جافة مقلقة . ولم تكن هذه المرة الأولى التي تراودهن فيها هذه الأحلام ، لكنهن لم يكن يفطن إلى هذا . الأحياء لا يتصلون بالأموات إلا ليلا بعد أن يقلعوا بعيداً عن الشاطىء الصلب ، — يأتي اليهم الأموات بلحمهم ودمهم وكلمتهم ويسألونهم الحقيقة ليبلغوها إلى أبعد ، إلى من كانوا يذكرون . كثير مما يقوله الأحياء في حالة الغيبوبة والانعتاق هذه لكنهم لا يذكرونه حين يستيقظون ، يأخذون يبحثون له في أحلامهم الباطلة عن تفسيرات عارضة .

الآن كانت هذه الأحلام تلمع بخفوت خارج النوافذ كومضات بعيدة بعيدة . وبهذه الومضات وحدها كان يمكنك أن تعرف أين يوجد ناس وأين لا يوجد . لا أحد في هذه الليلة خلا من الأحلام : العجائز شكون بمرارة وهن يتحدثن عن الأيام الأخيرة .

انعطف السيد ، بعد أن طاف بالقرية عدواً من طرفها إلى طرفها ، عند زاوية الشارع إلى اليسار إلى الضفة العالية العارية فوق النهر . كان المنظر هنا أوضح ، في المدى المكشوف كانت تامع أبعاد قائمة على شكل طبقات بنور خفيف . وفي المصب السفلي كان الماء يلمع كالبلور ويرن

كالباور . كان انغارا ينساب في هسهسة وترية ممدودة . وفي وسط الجزيرة كانت الهسهسة تنفصل إلى وترين يرتفعان فوق الماء إلى أن تعود وتندمج من جديد في كل واحد . كان السيد يحب الاستماع إلى هذا الصوت الانبجاسي الداخلي للماء المنساب الذي كان يخبو نهاراً بسبب الأصوات الأخرى الغريبة ليعود في الليل أصفى وأوضح . كان هذا الصوت يسمو به إلى الأبدية ، إلى النظام القائم مرة ولكل مرة . لكن السيد كان يعرف أن هذا الصوت سينقطع ، وأنه لن تدوي قريباً فوق الماء المخنوق الصوت إلا الريح . تذكر السيد هذا فقفل عائداً إلى قلب الجزيرة .

وكأن الليل توقف ولم يعد ينساب على عرض انغارا إلى حيث نهايته ، بل استجمع كل عزمه وأخذ يقوم فوق متيورا بدورة عمياء حذرة . كان الهواء يهب تارة من اليمين ، وتارة من اليسار دون أن يشتد ، بل كان ما يلبث أن يغفو في سيره ، ويسقط ويعلق في العشب . وكان العشب ندياً أرجاً ، وبناءً عليه قرر السيد أنه سيسقط غداً في منتصف النهار مطر خفيف قصير .

كانت الجزيرة ما تزال تحيا حياتها المألوفة المقررة : السنابل والأعشاب تتطاول ، والجذوع تمتد في الأرض ، والأوراق على الأشجار تنمو ؛ وكانت الأرض تعبق برائحة بطمة الشمال التي انتهت من إزهارها وبحرارة الخضراوات الرطبة . كانت الشجيرات تنحني فوق الماء عند الضفة اليمنى متهامسة ، وكانت حيوانات الليل وطيوره تجدّ في صيدها ؛

كانت الجزيرة تتأهب لأن تعيش طويلا .

- ٧ -

وتوالت الأيام طويلة ممطوطة لاحد لها ولا نهاية ، ومع هذا انتهت المهلة التي حددها الجد يغور للرحيل بسرعة لم يستطيعوا أن يفطنوا معها كيف مرق الاسبوعان الأخيران . ومع ان نستاسيا ماطلت في ثلاثة أيام بعد عيد العنصرة ، فقد انتهت حتى هذه الأيام الثلاثة ...

صادف موعد الرحيل يوم أربعاء . قد يبدو أن لا فرق متى يكون الرحيل ، إنما كان هناك اعتقاد لا سبب له بأنه من الأفضل القيام به في منتصف الأسبوع كيما يعيدنا في يوم ما قدر رائع إلى هنا ، إلى هذه الضفة . كانت نستاسيا تحب يوم الخميس أكثر ، إذ كان يبدو لها أجلب للحظ والتوفيق ، ولكن الخميس كان أقرب إلى نهاية الاسبوع وبالتالي إلى الضفة الأخرى ، إلى الحياة الأخرى التي سيكون الإفلات منها أصعب .

لم تنم نستاسيا طول الليل ، كانت تشعل النار ، فالكهرباء في متيورا قُطعت منذ الربيع ، والآلة التي كانت تُجري الطاقة نقلت إلى مكان غير معروف ، وتحول أهل متيورا إلى الكاز من جديد . وكيف كان بوسعها أن تنام في ليلتها الأخيرة هنا ، من أين تأتي بالهدوء لنوم كهذا ؟ أين تترك أفكارها ومشاغلها لتغفو ؟ أكثر من مرة فطنت إلى أنها نسيت شيئاً أو آخر فكانت تهب للبحث عنه ولا تجده . كانت

تنقب الزوايا عشر مرات وهي تنوح وتندب وتفتش في الممرات وبيت المؤونة وتمضي بالشمعة إلى العنبر تفك الصرر الجاهزة وتفردها وتقع أخيراً على مفقودها ، لكنها كانت ما تابث أن تكتشف مفقوداً آخر . وحتى لو أنها لم تكن فقدت شيئاً ، فانها كانت ستروح وتجيء تبحث خشية أن تبقي هنا شيئاً لا يمكن الاستغناء عنه . كان البيت خاوياً داوياً . كان دبيب نستاسيا يتردد بين الجدران كأنما دبيب على صفيح . وكانت النوافذ التي لم تُسدل عليها الستائر ترد على خطواتها برنين شاك . لم يسدلوا الستائر حتى لا يغطوا في النوم ويفوتوا الوقت ، بمعنى آخر كي لا يتأخروا . لكن كيف لهم أن يغطوا ! لقد مضى منذ زمن طويل الوقت الذي كان يمكن أن يغطوا فيه ، فما بالك بهذه الليلة !

في غمرة هذا السعي المجنون تجمدت نستاسيا أكثر من مرة : أين هي ، في البيت أم في غير البيت ؟ جدران عارية فيها بقع بيض من أثر الأطر المخلوعة مع صورها ، وبين النافذتين دائرة كبيرة من أثر الخزانة ؛ حواجز خشبية عارية وأرضية عارية وأبواب مفتوحة ووجاق كانت تلمع منه ستائر : علاقات فارغة ، زوايا خاوية ، كل ما حولها خاو عارٍ متوقف ؛ في وسط المدخل تكوم صندوق كبير مربوط وإلى جانبه ثلاث ربطات حشر فيها كل الخير الذي في البيت . لم تبق ستائر إلا على النوافذ . كانت نستاسيا قد نزعتها أول الأمر ، لكنها نظرت ورأت كيف تعرى البيت وانفضح تماماً فلم تحتمل فعلقتها من جديد ثم أخرجت حصيراً قديماً وأعادته إلى مكانه السابق عند العتبة وهي تخاطبه بود : « أنت أيضاً عليك أن تذهب إلى المدينة ، وأن تغير حياتك ؟ لا ، ابق حيث كنت ، ابقَ في بيتك . ما يلزمك ليس

أنا ويغور ، ما يلزمك أن تبقي عند عتبتك . وابق عندها ، فلن يمسك أحد هنا . ستكون كالمحال على التقاعد » . بعد هذا صارت تخاطب كلّ ما تمسه يدها تقريباً . « انت . هيا بنا ، هيا بنا لا تختبيء لن أتركك ، بدونك أنا كما بدون يدين . ولا تتوسل، لن أتركك . أنا أيضاً بودي لو أبقى ، لكن لا ، لا يجوز . وانت هناك نسيتك تماماً . أنت أيضاً تعال ، لك هنا مكـــان . تعال هيّا ، هيّا » . « سأكون مسرورة ، لكن كيف ؟ كيف آخذك ؟ بودي أن آخذك لكن ليس هناك امكانية . ابق حيث انت فما باليد حيلة ! سأعود ونلتقي مرة أخرى » .

كانت نستاسيا عازمة على العودة في أيلول لقلع البطاطا .

كان الجد ينظر إلى العجوز بريبة : فهي من عيد العنصرة لم تذرف دمعة واحدة كأنها أدركت يقينا في نهاية الأمر أن الرحيل لابد منه ولا عودة عنه سواء بكتْ أو لم تبك . أما قبل ذلك فكانت تروح وتجيء بعينين مبللتين ونشيج متصل ، وكلما كان موعد الرحيل يدنو كانت تزداد بكاء ونشيجاً . كانت تتوقف أثناء عملها وتنظر ، تحدق في يغور فكان هذا يشيح بوجهه بينما كانت تقول :

— لعلنا لا نذهب يا يغور ؟ لعلنا نبقى هنا ؟ لو نعتمد ونبقى ....

— إيه أنت يا لعينة ! — كان يجيب مهتاجاً ، — كم مرة أفهمتك ! من بحاجتنا هنا ، من ؟

— كيف ستكون حالنا هناك ؟ ... وتنهال الدموع من جديد . وبعد ساعة أو يزيد قليلا يعود كل شيء ليتكرر من جديد .

منذ اسبوع رسا للمرة الأولى في الصيف الحالي كشك عائم لإمداد حراس العوامات بالمؤونة . سمع الجد يغور بوصوله فهرع واشترى

بعض التبغ وقنينتي نبيذ أحمر خفيف . إحدى القنينتين فُتحتْ في العيد . كانا يجلسان بمفردهما أي العائلة كلها . فالجد يغور ، على وجه العموم ، صار يتجنب الناس في المدة الأخيرة فيظل ملازماً بيته وكأنه يحاول في وقت مبكر الإقلاع عن التعود على متيورا والتعود على الوحدة .

شربت نستاسيا ، ارتخت ، تململ شيء ما في رأسها المعاند ، قالت :

— ونحن يا يغور سنظل هناك أيضا الواحد إلى جانب الآخر . ما العمل الآن ... اين المفر ؟

— من زمن بعيد آن لك أن تفهمي ، — قال مسروراً دون أن يثق مع هذا ثقة خاصة بمزاج العجوز ومخمنا في الوقت نفسه إن كان فهمها هذا سيطول أم لا .

— لقد فقدنا أولادنا .... أين نأتي بهم الآن؟ — تابعت نستاسيا في استسلام ساج . — ونحن اثنان فقط ... قد لا يكون هذا مهماً ... هناك أيضاً بشر . وما همّ أن لا معرفة بيننا ، نتعارف . أو ، أقول لك : لا ، نبقى اثنين . ماذا بيدنا الآن ؟ ... لا تبك يا يغور ...

لقد سلم بالأمر : المهم الرحيل بأقل عذاب ممكن . ومنذ تلك الحادثة كأنما جفت دمعته . إنما في بعض الأحيان، عندما لا تعود نستاسيا قادرة على التحمل ، كانت ترفع إلى عجوزها وجهها الكبير المنفوخ وتردد وهي تعض شفتها السفلى المعاندة المرتجفة :

— لا تبك يا يغور ... ماذا دهاك الآن ... ربما ...

انجلى آخر ليل عن متيورا وأشرف آخر صباح . إنما قبل الضوء، حين صرخ فيها ايغور فرشت نستاسيا دراعتها على الصندوق وألقت رأسها بسرعة لتنام ، لكنها سرعان ما نهضت دون أن تبلغ النوم ، بل

حتى دون أن يلم بها . كان يغور لا زال متمدداً . خرجت نستاسيا ووقفت قليلا أمام البيت تتدفأ تحت الشمس الطالعة للتو وتلفتت حولها فرأت متيورا ، القرية والجزيرة ، ثم تنهدت وفكرت قليلا وجمعت كومة حطب وعادت أدراجها وأوقدت الموقد الروسي . سمع يغور ما يجري فدمدم برماً :

— ماذا دهاك يا عجوز ، جننت تماماً ؟

— لا يا يغور ، يجب إشعال الموقد لآخر مرة — قالت معترضة على عجل ، — فليبق هنا شيء من الدفء . فليشتعل قليلا . فهل أمامه وقت طويل كي يحترق ؟ ثم كيف يمكننا أن نترك بعدنا الموقد بارداً ، هل فكرت يا يغور ؟

وأوقدت الموقد وسخنت آخر وجبة عندها ، ثم طمرت الجمرات .

كان النهار يمضي على نحو رائع . لقد كان من نصيب العجوزين أن يغادرا متيورا في يوم طيب . لا قذى في السماء الهائلة الجافة الساطعة ولا تجهم ، والشمس رنانة حامية . وكالعادة سرت في الجو نسمة لكنها هدأت وقد أماتها السكون دون أن تستطيع إثارة موج . تغضن مجرى النهر وانبسط فوراً . كان كل شيء حولهما يرن ويشرق منذ الصباح الباكر تحت الشمس الساخنة المرنانة وكان كل شيء مهما كان صغيراً يبرز وينبسط أمام عيون الناظرين لا يخفي نفسه ولا ينزوي . كانت أرض متيورا تمور بالترف والغنى : كانت الجزيرة تشتعل خضرة في الغابات والحقول وعلى الضفاف ، وكان نهر انغارا ينساب بملء عنفوانه . لو يعيشان ويعيشان في هذه الفترة ويروحان عن نفسيهما بالنظر إلى ما حولهما ويخمنان ما سيكون عليه المحصول : الحبوب وكل ما تنتجه

الحواكير من أشياء كبيرة وصغيرة ، والفطور وكل نبات بري صالح . وأن ينتظرا الحصاد ثم الجني ، وأن يستعدا لهما على مهل وعلى مهل يتصيدان في النهـر وأن يؤديا دون أن يضنيا نفسيهما العمل الذي يأتيهما يوماً بعد يوم — على هذا المنوال ، إذن ، عاشا وعاش أهل القرية سنين طويلة طويلة ولم يعرفوا ما هي هذه الحياة .

سخنت نستاسيا السماور لآخر مرة وشربا الشاي . لكن الشاي كان عجولا ، دون نكهة لأنهما كانا على عجل ولم يكن هناك مكان يجلسان فيه . سكبت نستاسيا بقايا الماء المغلي ، حركت الجمرات ووضعت السماور المعد للطريق على الأرض عند الباب ، أقرب ما يكون إلى المخرج ، وأخرج الجد يغور من تحت السقيفة عربة . واندارا إلى الصندوق يحاولان رفعه : تعرقا ، انهدت قواهما لكن دون جدوى : لم يرفعاه . الجد يغور الحائر والمغتاظ — هنا لا بأس ، هنا تجد من يساعدك ، لكن ما العمل هناك ؟ — أمر غاضباً بافراغ الطاولة مع أنها كانت في أول الأمر آخر ما كان يتهيأ لأخذه معه . وبالإضافة إلى الطاولة أخذا معهما من أثاث البيت سريراً حديدياً قابلاً للطوي ذا شبكة صدفية ومنضدتين صغيرتين وخزانة لأدوات المطبخ . أما القن والمقاعد والدكك والموقد الروسي وطاولة أخرى والقبو والأبواب فقد بقيت . وأشياء أخرى كثيرة مما توارثاه عن آبائهما واجدادهما وكانا في مسيس الحاجة إليه كل دقيقة هنا ثم تبين لهما دفعة واحدة أن لا ضرورة له هناك بقيت في العنابر ، في الفناء ، في المتبن ، في الممرات ، على الوجاق — ملاقط ، مقلاة ، معجن ، مطحنة صغيرة ، قدور ، قلل ، براميل بأنواعها ، ماعون ، مغزل ... ثم هناك الرفوش والمجارف والمناشير والفؤوس

(من أربعة فؤوس أخذوا واحدة فقط) ، مسن ، موقد حديد ، عربة ، زحافة ثلجية ... وأيضاً شراك ، أناشيط للصيد في البر والنهر . وكل ما يحتاجه صاحب عمل من عدة . وتوضيب هذا كله وفرزه أشبه بتقطيع نياط القلب . وإلى هذا ليس هناك من تبيعه أو تعطيه ، فكل منهم عنده الهم نفسه : أين يذهب بما عنده ؟ أن ترميه حرام ، كذلك لا يصح أن تدخل قصراً بأمتعة عتيقة ، وعلى أي حال فهي هناك نافلة لا حاجة إليها .

وكانت نستاسيا لا تدع شيئاً ، بل تجره إلى كومة الامتعة وكان الجد يغور يصرخ :

— إلى أين ؟ إلى أين ؟ اللعنة ! ...

— لا يا يغور ، تأمل : طست جيد تماماً كأنه جديد . يمكن أن نضع فيه الماء .

— دعيه حيث هو ولا تمدي يدك إلى شيء ... تضع فيه ماء ... لماذا تضعين فيه الماء ؟

لكنه هو نفسه أخذ معه بندقيته القديمة التولية(*) الصنع عيار١٦ وكل ما كان عنده من ذخيرة لها ، مع أنه كان من المشكوك فيه أيضاً أن تنفعه في سنيه هذه وفي مدينة كبيرة : لكن البندقية هي البندقية ، ولم يكن على استعداد للتخلي عنها مهما كانت المغريات . ونستاسيا بدورها لم تشأ التخلي عن مغزلها . صرخ الجد يغور من جديد وقد رآه في يدها : « إلى أين ؟ » ، لكن نستاسيا رفضت بحزم :

— لا يا يغور .. اغزل بعض الكتان ... كيف أعيش بدون مغزل ؟

— تفو عليك يا لعينة ! كتانك هذا على المغزل أو تحت المغزل لا فرق ، من أين تأتين به ؟

(*) نسبة الى مدينة تولا .

– لا ، يا يغور ... – قالت معاندةً ، وكان لها ما أرادت :

وضعت المغزل إلى جانب الطاولة وربطته بعقدة ليكون في أول نقلة . دحرج الجد يغور العربة إلى الشاطىء حيث كان يرسو قارب كبير للنقل استأجره من عامل العوامة . في هذا الزورق كان على العجوزين أن يبحرا إلى بودفو لوتشنايا حيث تأتي باخرة في المساء فيتركان الزورق هناك عند عامل عوامة آخر وينتقلان بالباخرة . كان بافل بينيغن ابن داريا قد عرض على الجد يغور أن يقطره إلى قاربه الآلي حتى الميناء كي يوفر عليه عناء التجديف لكن الجد رفض :

– عبر انغارا فليكن ، اسحبنا ، أما هناك فعلى هوانا . علام نسرع ؟ نزحف إلى الباخرة على مهل . نريد أن نتأمل انغارا مرة أخرى .

ما ان ابتعد بعربته حتى أتت داريا . توقفت في الحاكورة قليلا وهي تتطلع وتصيخ السمع إلى شيء ما في اشفاق ، ثم صعدت إلى مدخل البيت وسحبت إليها الباب في حذر .

– نستاسيا ! – نادت داريا وهي لا تعرف إن كانت صديقتها في البيت أم لا .

– نعم ، نعم ، – ردت نستاسيا ، – ادخلي : سنرحل أنا ويغور : الناس يعيشون ...

– جاهزان ؟ – سألتها داريا ، وهي تدخل .

– نعم ، ويغور مازال يبكي ، يبكي ، لا يريد أن يرحل : أقول له : « لا تبك يا يغور ، لا تبك ... » – واستوقفت عينيها على داريا كأنما لم تعرفها الا الآن وارتعدت وصمتت – أي عادت إليها ذاكرتها تماماً . – لابأس يا داريا ، – قالت بهمس المذنب ، – كما ترين ...

هذا ما صرنا إليه ... — وأشارت إلى الربُط على الأرض وإلى الجدران العارية مُفْهِمةً بذلك درايا أنها ستكون مسرورة لو بقيت في كامل عقلها ، لكن هذا ليس في مقدورها . وطلبت منها بأسى : — انت يا داريا لا تذكريني بسوء ...

— وانت أيضاً ... — قالت داريا بصوت مرتعش تستغفر نستاسيا عن حياتها الطويلة إلى جانبها وهي تمسح دموعها بمنديل رأسها .

— كان عندنا أطفال ، أتذكرين ؟

— وكيف لا أذكر ؟

— أين نأتي بهم الآن ؟ أقول ليغور : « فلنرحل يا يغور ، ليس هنا ما ننتظره ، فلنرحل » وهو ... — وهنا تلعثمت وتهاوت على الدكة في عجز . اقتربت دريا منها وجلست إلى جانبها . الجلوس في بيت خاوٍ متهدم أمر غير مريح ، أما الجلوس في بيت مسلم لبراثن الموت فأمر مر وآثم . وليس هناك من مجال للمساعدة ، ليس هناك مثل هذه المساعدة لتُقدم . وإنه لأمر لا يطاق أن ترى الجدران تُعمى والنور الذي لا يحتاجه أحد ينسكب من النوافذ .

وتذكرت نستاسيا :

— كنت أريد أن أطلب منك ، يا داريا شيئاً كدت أنساه . خذي إليك تونيا ، يا داريا . خذيها .

— أي تونيا هذه ؟

— قطتنا . ألا تذكرين قطتنا ؟

— بلى .

— إنها الآن خارج البيت . خرجت حين أخذنا نجهز انفسنا ولم تعد حتى الآن . خذيها إليك وأطعميها حتى عودتي .

— عندي قطتان . وانفيزا تركت لي قطتها حين رحلت . ماذا أعمل بها كلها ؟

— لا يا داريا . نونيا يجب أن تأخذيها ، — قالت نستاسيا في انفعال — . نونيا قطة لطيفة ليس عندك مثلها . كنت أريد أن آخذها معي ، ما كان بودي أن أتركها يوماً ، لكن يغور يقول إنهم لا يسمحون بحملها على الباخرة . وإذا كانوا حقاً لا يحملونها فهذاه معناه أن نونيا ستهلك . نونيا لن تسبب لك أي تعب ، إنها لا تأكل شيئاً إلا أذا ألقيت لها به ...

— يا إلهي .. على نونيا ، على قطتك هذه ... إذا وقع عليها نظري أخذتُها وإلا فهي وشأنها . لن أركض أبحث عنها في الجزيرة .

— لا يا داريا ، هي ستأتي بنفسها . هي تفعل كل شيء بنفسها . يا لها من قطة فهيمة . ستتذكرينني كلما نظرت إليها . إنها كذكرى مني . وحين أعود استردها ... المهم الآن أن تنتبهي إليها كيلا تموت .

— ستعودين حقاً ؟

— كيف ستكون حالنا دون بطاطا ؟ إذا لم يُكتب علينا أن نموت هذا الشتاء فكيف نعيش دون بطاطا ؟ — كان يبدو أن نستاسيا تقول هذا لشخص آخر ، أما لداريا فقد قالت بصوت أشبه بالأنين : — آه ، أي شتاء ذاك الذي أتكلم عنه ! أن لا أرى أمامي أي يوم هناك ! آه يا داريا فيم أذنبنا ؟

عاد الجد يغور يطرطق بالعربة ، فنهضت العجوزان . حاولوا وقد صاروا ثلاثة رفع الصندوق لكنهم عادوا فأنزلوه — لم تكن فيهم

القوة المطلوبة . واضطرت داريا لمناداة بافل . أقبل هذا ونظر بطرف عينه في دهشة إلى الصندوق الغريب غير المعد للطرقات ، بل المعد في القديم للانتصاب إلى أبد الآبدين في مكان واحد ، لكنه صمت ولم يفتح فمه بكلمة أمام العجوزين . إنما فيما بعد ، حين سحبوا الصندوق بعد جهدٍ ووضعوه فوق العربة وربطوه قال ناصحاً :

— حين تصل يا عم يغور إلى بودفولوتشنايا اذهب فوراً إلى ميشكا ، ولا تفكر أبداً في أن تجهد نفسك بمفردك مع هذا الصندوق .

— كيف وحدي ... — لوح الجد بيده ، — حتى لو تزل لي فتق لن أتمكن منه . لقد حشته ذات الرأس اللعين ... ! — أراد الجد يغور إلقاء تبعة عجزه مع الصندوق على نستاسيا .

— لا بأس يا يغور ، لابأس ، — قالت نستاسيا ، دون أن تسمع شيئاً مما قال ، وهي تهز رأسها الكبير وتتطلع حولها كأنما لازالت تبحث عن شيء .

بافل هو الذي نقل الصندوق على العربة ، وكان الجد يغور يسير إلى جانبه ممسكاً الصندوق من حلقته النحاسية المعقوفة كي لا يسقط . كما ان بافل نفسه ساعدهما في نقل الأشياء المتبقية وشحنها إلى الزورق ، وبعدها أنزل الزورق إلى الماء وتفقد احتياطي الوقود على متنه فوجده كافياً . وأعيدت العربة إلى البيت فوضعها الجد يغور تحت السقيفة وأسند عريشها على الأرض ثم عاد بعد أن فكر قليلا فرفعه لسبب ما وغرزه بالحائط . .

كانت الدجاجات المباعة لفيرا نوساريفا تروح وتجيء في أرض الفناء في لغط . كانا قد ذبحا ثلاث دجاجات ، وقبلها أكلا اثنتين ،

وواحدة سلقاها للطريق ، وأربع بلحمها وريشها اشترتها فيرا بعشرة روبلات ، وها هي ذي الدجاجات لغيابها تعود إلى هنا ، إلى فنائها فهي لم تدرك أنه صار غريبا وميتا . والعجلة سلماها إلى السوفخوز لقاء (١٣٠) روبلا (اغتنيا ، فأين يذهبان بكل هذه الثروة !) . لكن العجلة كانت ترعى في بودموغا ، وهذا حسن : على الأقل لن يرياها . هذا كل شيء . لكن لا ، كانت هناك « خيرات » بيتية — فهما لم يعيشا حياتهما دون أيد ... وكل هذا الرزق والخير اتسع له الزورق !

ازداد عدد الذين في البيت . وصلت كاترينا وسيما مع الصبي . كانوا يجلسون في صمت وانسحاق بعد أن أضاعوا كل الكلمات ولم يعد لهم من عمل سوى متابعة نستاسيا التي لم تتوقف عن السعي من زاوية إلى أخرى كأنما لا تزال تبحث عن ذاتها — تلك التي يجب أن ترحل لكنها لا تستطيع أن تجدها — بنظراتهم . ارتعدت العجائز مذعورات حين دخل الجد يغور مع بافل وتجمدن متأهبات لتلقي الأمر الأخير . لكن الجد يغور أخرج قنينة الخمر الثانية التي اشتراها من الكشك العائم وجلب مع بافل طاولة ووضعاها عند المقعد ، وتحركت النساء في ابتهاج وتنهدن بارتياح — أن لم يحن وقت الرحيل . وكانت نستاسيا أشدهن سروراً : انفرجت أساريرها وراحت تقهقه وتحدثهن كيف أشعلت اليوم للمرة الأخيرة الموقد الروسي .

لم تكن هناك إلا كأسان ، وكان بافل والجد يغور أول من رفعهما .

— هل نشرب نخب الرحيل ؟ — سأل بافل بلهجة غير واثقة ، وأحس أنه يجب أن يقول شيئاً ما آخر فأردف : — عيشا طويلا يا عم يغور ويا عمة نستاسيا .

– سنعيش ! – ردّ الجد يغور وهو يضغط على الكلمة حتى صأت .

شرب بافل ومضى يجهز نفسه . وصمتت العجائز من جديد وهن يرشفن النبيذ رشفات صغيرة كالشاي مقطبات منه ومتألمات ، مُسميات بهذا الألم ألما آخر . ونهض الجد يغور أيضاً وأشعل سيجارة تحت أعين العجائز المصوبة إليه وأنذرهن وهو يخرج قائلا :

– لا تطلن الجلوس أيتها الجارات . يجب أن نتحرك .

شرقت العجائز دمعهن ورحن يتكلمن مستغفرات نستاسيا دفعةً واحدة ، أما ما هو ذنبهن ومما يعتذرن فلم يكن يدرين – ولهذا كانت هذه الخطيئة المجهولة تحتاج إلى صفح أكبر . كانت نستاسيا توافقهن دون أن تسمع شيئاً مما يقلنه أو تفقه شيئاً – فما دام التيار قد جرفك فما الداعي لعد الحصى على الضفة ؟ .

– تأخذين السماور معك ؟ – سألت سيما وهي تشير إلى السماور المنظف اللامع كما احتفاءً بالعيد ، الموضوع عند العتبة .

– وكيف لا ؟ – أومأت نستاسيا بالإيجاب . – لن يثقل علينا . لم اعطه ليغور لينقله ، بل سأحمله أنا بيدي . لا يجوز لفه وهو خارج من البيت ، في الزورق ألفه .

– لماذا لا يجوز ؟ – كان يجب أن يتكلمن في شيء وتكلمن .

– كي يرى كيف يمكنه أن يعود . نوع من الفأل .

– الآن لم يعد أي فأل يناسبنا . – قالت داريا رافضة فكرة نستاسيا . – نحن أناس لا تنفع لفأل . حقاً لو يفطن أحدهم ويضع لإحدانا في التابوت سماورا . كيف ستكون حالنا هناك دون سماور ؟

– وما نفعه لك هناك ؟

ـ لشرب الشاي طبعاً ، ولماذا غير ذلك ؟

وقالت نستاسيا مقاطعة هذا الحديث الفارغ في رأيها :

ـ الآن سنذهب أنا ويغور . ربما بعد قليل ... فكل شيء نقلناه إلى الضفة .

وكأن الجد كان يتنصت ويتحين اللحظة المناسبة ، فقد نقر على النافذة وأشار أن آن الأوان .

ـ ها هو ذا ، آن الأوان ، ـ تحركت في ابتهاج وانسلت قبل الجميع من وراء الطاولة ؛ ـ كنتُ أقول لهم ... هيا يا يغور ، هيا ! ـ صرخت وكأنما خافت شيئا فتبدلت فجأة تبدلاً كاملا . ـ انتظرني يا يغور ، لا تذهب .

خطفت السماور وانطلقت نحو الباب وهي تدير إلى العجائز وجهها تستحثهن بتوسل صامت . نهضت داريا ورسمت إشارة الصليب بوقار باتجاه الزاوية الفارغة وتبعتها كاترينا فرســمت هي أيضاً إشارة الصليب باتجاه الزاوية مودعة . وتباطأتا تنتظران شيئاً من نستاسيا ـ بادرةً أو عملا ما مما يفترض القيام به في مثل هذه الحالات ، لكن نستاسيا التي بلغ بها الارتباك أشده لم تفطن إلى شيء ولم تفعل شيئاً . وضعت السماور من يدها أمام البيت في مكانه عند الحائط حيث كان يغلي دائماً ، وعندما خرجت العجائز من البيت ظلت طويلاً في عجلتها لا تستطيع إدخال المفتاح في القفل فأغلقت الباب بالمزلاج . واستدارت ـ كان يغور يخرج وقتها من البوابة الخارجية ، فصاحت بقدر ما فيها من قوة .

ـ يغو ـ ور !

تعثر يغور .

ــ يغور ، المفتاح إلى أين ؟

ــ إلى انغارا ، ــ أجاب الجد بلا مبالاة .

ومضى بعد أن لم يعد هناك ما يعيقه يخطو إلى الطريق محركاً قدميه بذلك الانتباه الذي يبديه الناس حين يعدون لكل خطوة من خطواتهم ويذكرونها . وكانت نستاسيا تنظر في إثره عابسة الوجه نظرات مفعمة بعدم الفهم والأسى .

ــ هاتيه ، ــ قالت داريا التي غطت فمها بمنديل كي لا تنفجر في النحيب وأخذت منها المفتاح وضغطت عليه بقبضتها . ــ فليبق عندي. أنا هنا سأبقى أتردد على البيت .

ــ أغلقي الباب الخارجي ، ــ لم تنس نستاسيا أن توصيها . وكانت ، وهي تقول هذا ، لا يمكنك أن تعرف أهي تبتسم أم تضحك ساخرة ، فقد كان وجهها المنسي المتروك دون عناية يميل تارة إلى هذا الجانب وتارة إلى ذاك ، ــ وإلا أتت الدواب ووسخت ، هذا أكيد .

ــ أنا هنا قريبة ، سأطل كل يوم . لا تشغلي بالك بهذا .

ــ أنا ويغور سنذهب ...

كان الصباح قد ارتفع عالياً ، لكن الوقت كان مازال صباحاً حين أبحرت نستاسيا مع يغور من متيورا . كانت الشمس قد توهجت والخضرة تفتحت في الجزيرة ، والحجارة تلمع ريانة عبر الماء في القاع . كان نهر انغارا يشتعل ، وهو يلعب ، أشرطة ساخنة براقة ، وكانت الخطاطيف تنقض فيها من شاهق طيرانها وتضيع في شررها . وكانت السماء العالية الساطعة تغوص ، حيث المجرى رائق ، عميقاً تحت الماء ، وكان انغارا كأنما يطير في الجو وهو يرن .

كان الزورق المحمل يقف عنـــد السقالة حيث يردون الماء .
هبطت العجائز إثر نستاسيا إلى الضـــفة الصخرية فغابت القـــرية خلف المنحدر عن ناظرهن ، ولم تعد أصوات متيورا تسمع بالقرب من انغارا .
وضعت نستاسيا السماور في مقدمة الزورق وعادت تودع العجائز .. كن قد اطلقن الآن لانفسهن العنان وانخرطن في نشيج لا يتوقف ، وكان صغير سيما الذي أخافته دموعهن يبكي بكاء عالياً . أخذت نستاسيا تمد يدها للعجائز الواحدة تلو الأخرى ، إذ لم تكن تعرف طريقة أخرى تودع بها ، وتردد وهي تهز رأسها :

— لابأس ، لابأس ... ربما ... لابأس وكان الجد يغور يستحثها .

صعدت إلى السقالة وهي تنظر تحت قدميها وتلوح بيدها الممدودة إلى الخلف كأنما تشيح بها ، والتفتت مرة أخرى التفاتة سريعة وجازت إلى الزورق .

— ويغور يبكي ، يبكي ... ، — بدأت تردد وهي تشير إلى العجوز وصمتت للتو. واستدار الجد يغور بوجهه نحو الشط وانحنى ثلاثاً انحناءة عميقة لمتيورا — يميناً وشمالا وأمامه مباشرة . ثم دفع الزورق عن الشط بسرعة وارتمى فيه .

كانت العجائز يصحن :

— نستاسيا ! نستاسيا !

— لابأس ، لابأس ، — كانت نستاسيا تجمجم وهي تقف منتصبة في الزورق بملء قامتها وتمسح دموعها بيديها . وفجأة هوت على الصرر ، وكأنها تقصفت وأعولت .

أخذ الجد يغور يدفع على عجل الزورق بمجدافه بعيداً عن الشط .

وهناك في المياه العميقة كان بافل ينتظرهما في قاربه الآلي . وحين تلقف التيار الزورق قذف الجد يغور بالحبل إلى بافل . وأدار هذا المحرك فاهتز الزورق بعجوزيه وانساب أسرع فأسرع وأبعد فأبعد هابطاً نهر انغارا .

ومـــرة أخرى بانت متيـــورا القرية فترة قصـــيرة عند المنعطف واختفت للحال .

* * *

— ٨ —

وهبط هذا الليل أيضاً — أول الليالي الحارة والساطعة في متيورا . سيكون الكثير من أمثال هذه الليالي فيما بعد ، في أيلول ، مع اقتراب النهاية . ستتوهج الليالي الواحد بعد الآخر وينوّر نهر انغارا حتّى مسافات بعيدة على جانبيه مشّبعاً بأنوار هائلة كأنما أشعلت خصيصاً على شرفه . لكن هذه الليلة كانت الأولى وقد أطلت على متيورا أبكر كثيراً من الأخريات .

في هذه الليلة احترقت دار بتّروخا . وقد أحاط بتّروخا ، الذي ظل من البداية حتّى النهاية هنا ، والذي عرف رغم التخبط والبلبلة كيف يحدد الوقت المناسب ، أهل متيورا علماً بأن بيتا جيدا ويابساً وثابتاً يمكن أن يحترق في ساعتين . قليل في القرية من شك في ان النار شبت في البيت لسبب آخر سوى انفاذ لرغبته هو . قبل هذا كان بتّروخا قد سافر إلى مكان ما وتنسم هناك أخبارا . ولما عاد أمر أمه ، العجوز كاترينا ، أن تنتقل إلى مكان آخر بحجة أنه إن لم يكن اليوم فغداً سيداهمهم أهل المتحف . و الحق أنه لم يكن هناك ما يُنقل . فبتّروخا كان من ذلك الصنف من الاغنياء الذين لا يزيد الانتقال لديهم في مشقته عن مشقة الذهاب إلى الحمام . فالبقرة باعوها من سنتين ، وآخر ما بقي عندهم من حيوانات وهو خنزير فتي ذبحوه في نيسان حين أقفرت المائدة تماماً . جمعت كاترينا عفشها القليل وحملته بين يديها

إلى داريا . قبل يوم واحد من الحريق بالضبط حماته : في ذلك اليوم أصر بتروخا السكران على خروجها وكاد يخرجها بالقوة ، لكنها أذعنت دفعاً للفضيحة والشر . كانت داريا قبل ذلك قد دعت كاترينا للانتقال إلى بيتها محاولة إقناعها أنه من الأسهل عليهما ، هما الاثنتان ، أن يمضيا معاً الأيام الباقية لهما في متيورا . وبالفعل هذا أيسر وأبهج ، والعجائز على أي حال كن يتحلقن طول اليوم حول داريا . كانت داريا تعيش نفس الخوف الذي تعيشه الأخريات ، لكنها كانت تعيش حياة أكثر ثقة ورزانة ، فابنها وهو ليس من أواخر الناس في السوفخوز كان يقيم لها اعتباراً ، وكان لها مكان تسند إليه رأسها بعد الغمر ، بل إنها كانت صاحبة الخيار في المكان الذي تريده : إن تشأ ذهبت إلى هذا الجانب أو تشأ فالى ذاك . وداريا إلى هذا ذات خلق لم يلن مع الأيام ولم يصبه عطب ، وكانت إذا اقتضت الحاجة تعرف كيف تدافع عن نفسها وليس عن نفسها وحسب . في كل قرية من قرانا كانت هناك دائماً ولا زالت عجوز ذات خلق صلب وأحيانا اثنتان يحتمي بها أو بهما الضعفاء والمعذبون . وحتماً : ما ان تنهي واحدة كهذه أيامها وتموت حتى تحل محلها على الفور أخرى أدركتها الشيخوخة هي أيضاً وأكسبتها أخلاقُها الصارمة وطبعها العادل المستقيم منزلةً بين قريناتها . في هذا الوضع الخاص الذي وجدت فيه متيورا نفسها لم يكن بوسع داريا أن تمد يد العون للعجائز ، لكنهن كن يمضين إليها ويجتمعن معاً ليشعرن في قربهن من داريا بقدر أكبر من الجرأة والأمان . معروف المثل القائل : على الجماعة حتى الموت جميل . ولو ان أحدهم اقترح

عليهن الموت في ساعة واحدة معاً ، الواحدة إلى جوار الأخرى ، لما ترددت أي منهن لحظة ولقبلن ببالغ الرضى .

سكنت متيورا باكراً هذه الليلة . الأمور المتأخرة تحدث عادة عند الشبان ، وهؤلاء لم يبق منهم في متيورا أحد اللهم إلا من كان يعرج منهم عليها بين الحين والحين قادماً من السوفخوز . رقد أهلها مع آخر خيوط ضوء النهار الذي كان يهدأ ويحتضر منسحباً إلى ما وراء نهر انغارا حيث غاصت الشمس . الآن حتى الوقت جاء غير معقول ، ليس كما عند باقي الناس : فمن ناحية هناك رغبة في إيقاف الصيف وإطالة هذا الذي يختمر ولم يتسن لأحد أن رآه وعاشه ، ومن ناحية أخرى هناك نفاد صبر ورغبة في أن تنتهي في أقرب وقت هذه البلبلة حيث لا تشعر إن كنت في بيتك أو في زيارة ، إن كنت تعيش حقاً أو كنت ترى نفسك في حلم طويل مشؤوم . رقدوا باكراً كعادتهم ؛ كانت كاترينا تترك بيتها لأول مرة . ومع انها أعدت نفسها منذ فترة طويلة وكيفتها مع فكرة الرحيل ، ومع أنها توقعت قبل فترة طويلة أن يأتي هذا الانتقال الصغير أيضاً سابقاً للانتقال الكبير ، إلا انها شعرت بمرارة وقرف لا مثيل لهما وبدت لها أي كلمة غير مناسبة وغير ضرورية . لم تحاول داريا التي فهمت وضعها الدخول في حديث معها ؛ وفي المساء أتى بوغودول ؛ ومعه أيضاً لا يمكنك التبسط في الحديث . ولكي لا يصمتوا تماما ، تبادلتا معه بعض الكلمات التي لا تعني شيئاً ثم ودعت داريا العجوز . فرشت داريا لنفسها فوق الموقد الروسي ؛ هنا كانت داريا تنام أكثر لياليها صيفاً شتاء بعد أن تزحف إلى هنا عبر الكرار ، أما

كاترينا فقد أعدت فراشها على المقعد الطويل ، وبقي السرير الخشبي لبافل حين يعرج على البيت .

رقدتا وسكنتا . ولا تدري كاترينا إن كانت غفت أو أنها كانت على وشك أن تغفو وهي تضرع دون أمل ، حين سُمع قرع ، على النافذة أولا ثم على الباب بعده مباشرة ، وصوتُ بوغودول خلف الباب (كل أخبار السد كان بوغودول هو الذي يحملها) يعلو جشراً مدويا :

— كاة — رينا ! — وأعقبها برشققمن الشتائم التي لم تكن لتستقيم بدونها كلمتان عاديتان عنده ، — كاة — ري — نا ، انت تحترقين ! عكروت ، بترونخا !

وثبت العجوزان . كانت ألسنة اللهب تتراقص في النافذتين المطلتين على المنطقة العليا من متيورا ، وبدت النار قريبة حتى ان داريا التي لم تصح تماماً من نومها ذعرت أشد الذعر .

— يا إلهي ! أو نكون نحن ؟ !

أما كاترينا فأدركت على الفور ما يجري . وراحت ، وهي تتعثر في ثيابها ، تصرخ بصوت غاضب وضعيف وكأنها تلطم جبينها بالحائط :

— هكذا يا ابن الأبالسة ! هكذا يا ابن الأبالسة ! هذا ما توقعته ! هذا ما توقعته ! يا ربة السماء ! — وانطلقت بكل ما في ساقيها من قوة إلى هناك ، إلى بيتها — إلى ما كان حتى مساء هذا اليوم بيتها . وأسرع بوغودول في إثرها إلا انه غير في منتصف الطريق رأيه وانعطف إلى المنطقة السفلى يوقظ القرية .

كان البيت يشتعل كله حين وصلت كاترينا ، ولم تكن هناك أي

امكانية لانتشاله من براثن النار ، ثم لم تكن هناك أي حاجة إلى ذلك .
وحده بتروخا كان يسعى بين الناس الواقفين بصمت لا يرفعون بصرهم عن النار ويحاول إخبارهم كيف أنه كاد يحترق ، وكيف أنه صحافي آخر لحظة « من دخان في رئتيه ومن حرارة في شعره — كان شعري يطقطق » ، « وإلا كان عليّ السلام ، — كان يردد بابتسامة خفيفة ، — كنتُ شُويت تماماً ولم يبق مني أثر ، ولما كنتم وجدتم مني شيئاً في مكانه » ، ثم كان يثبت رأسه ويحلق في عيونهم : ترى هل يصدقونه أم لا يصدقونه ؟ وكانوا يشيحون بوجوههم عنه كأنه مصاب بالطاعون . لكن بتروخا لم يكن يعوّل بشكل خاص على تصديقهم فقد كان يعرف متيورا وكان يعرف أنهم يعرفونه جيد المعرفة ، ولهذا كان يسلم بمسؤوليته غير المقصودة . « البارحة أوقدت الموقد واستلقيت في الفراش — كان يندس بينهم بايضاحات وتفسيرات لا حاجة لأحد بها — لربما طارت جمرة ملعونة ففعلت كل هذه الأفاعيل » — ثم يعود ليروي لهم كيف نجا بنفسه . كان المهم بالنسبة إليه فقط أنه كان يمكن أن يحترق وأنه إنما نجا بأعجوبة . ثم انه صدق هو نفسه ما يقول بحيث كان وهو يتحدث يستقطر من عينه دمعة ويصطنع في صوته رعشة أي ما يلزم ليكون ما يقوله هو الحقيقة . وكان ينسى للتو قصة الموقد والجمر ويأخذ في التهديد والوعيد: «لو اعرف فقط النذل الذي أضرم النار لكُنْتُ ...» ويضرب قبضتيه الواحدة بالأخرى كما لو أنه يشحذ السكاكين . إما ان بتروخا ثمل من الحريق أو انه لم يصح بعد من سكرة الأمس . لكنه كان يبدو غير صاح ، يترنح ويتعثر ؛ أشعث كان ، قذراً يلبس قميص مايوه تنزلق إحد حمالتيه عن كتفه وجزمةً . وجد مع هذا

الوقت ليبتعل جزمته كما يجب . وإلى هذا تمكن بتروخا من انتزاع أشياء من براثن النار : على الأرض كان ملقى شرشف قطني ، ولوحة عتيقة و« بود غورنا » وهي هرمونيكا لم تكـن تعرف أن تردد بين يدي بتروخا إلا اغنية واحدة : « انت يا بودغورنا ، انت يا بودغورنا أيها الشارع العريض لا أحد يسير فيك لا دجاجة ولا ديك ... » . كان بتروخا يمسك بها لا يفارقها وينقلها معه من مكان إلى آخر بعيداً عن الحريق ؛ وكان الناس أيضاً يتراجعون القهقرى حين يالمعهم وهج النار لكنهم لا يتفرقون ولا يحولون عن النار عيونهم القلقة المحاولة أن تتبين شيئاً ما في هذا كله وأن تفهمه .

اجتمعت هنا القرية الحية الباقية كلها حتى الأطفال الصغار . لكن هؤلاء لم يكونوا يلغطون كعادتهم بل وقفوا مسحورين ومسحوقين بقوة النار المخيفة . ولم تكن العجائز ذوات الوجوه الصارمة الجزعة يقفن معاً بل كيفما اتفق — كل واحدة تسمرت أمام اللهب في الجهة التي هرعت منها . وبدت وجوههن الجامدة في نور النار معمية وشمعية كما لم تبد من قبل قط ؛ وكانت أطيافهن الطويلة الشوهاء تنط وتتلوى . وصلت كاترينا ، صرخت ، ولولت وهي تبسط يديها باتجاه البيت المحترق وراحت تتمايل منتحبة . التفت إليها الموجودون ليعرفوا من تكون ولماذا لها الحق في أن تصرخ، عرفوها ورثوا لحالها في صمت وعادوا يسمرون عيونهم على النار في تفكير ميت . طفرت داريا على حين غرة من العتمة ووقفت إلى جانب كاترينا . وشعر الآخرون بارتياح أكبر لأن داريا هناك ، قريبة ولأنها ، إذا دعت الحاجة ، ستبقي كاترينا إلى جانبها ، وان بإمكانهم بالتالي أن يبقوا حيث هم . لكن حتى كاترينا

ما لبثت أن صمتت مستسلمة لصمت الناس الفظيع والمواسي ورفعت عينيها ولم تحولهما بعد هذا عما كان بيتها من صغرها .

نسي الناس ان الواحد منهم ليس وحده ، أضاع أحدهم الآخر ولم تعد الآن حاجة للواحد منهم إلى الآخر . هكذا دائماً : حين تقع حادثة مزعجة مشينة يحاول الواحد منا ألا يلاحظ الآخرين ، مهما يكن عدد المتواجدين منهم معاً كبيراً ، ليبقى وحيداً . هكذا سيكون أسهل عليه فيما بعد أن يتحرر من الاحساس بالعار . كانوا يشعرون في مرارة نفوسهم بالحرج والضيق من وقوفهم دون حركة ، ومن عدم قيامهم بأي محاولة لإنقاذ البيت حين كان هذا ممكنا ، — لا معنى للمحاولة . الأمر نفسه سيحدث للبيوت الأخرى وقريباً جداً ، فما بيت بتروخا إلا أولها . وكانوا يشخصون بأبصارهم ولا يفوتون شيئاً مما يحدث كي يعرفوا كيف سيحدث هذا لهم ، — هكذا يغرز الواحد منا باهتمام جنوني عينيه في الميت محاولاً أن يتصور نفسه في هذا الوضع الذي لا مفر منه .

ولشد ما أضاءت هذه النار بسطوع ودونما عائق مصير كل واحد منهم ، هذا المصير الذي توقف عند حدود الآخرين ولم يعد أحد يتقاسمه مع الآخرين ، بحيث لم يعد يؤمن بالناس الموجودين إلى جانبه كأنما كان هذا من زمن بعيد بعيد .

كان اللهيب قد امتد إلى البيت كله وشب عالياً في الفضاء . كان كل شيء — الجدران والمداخل — يحترق احتراقاً قوياً منتظماً متوهجاً بفعل الحرارة ، وكانت الجذى والشرر تنطلق في الجو مرغمة الناس على أن يفقدوا صوابهم ، كان الزجاج يفرقع ويذوب ، وكانت تندفع من الداخل في فحيح ألسنة طويلة هائجة ، تماماً كما لو ان أحدهم

يرش بنزينا . كانت النار تستعر في البيت بحيث كانت تحجب وجه السماء . إنما كان كل شيء مضاء على مسافة بعيدة بهذا البريق الحار والشرير . وفي هذا البريق كانت البيوت القريبة التي تبدأ عند الشارع تضيء ، بل كانت تبدو هي أيضاً وكأنها تحترق بفعل بقع النور المتراقص على الخشب ؛ كان البريق ينير انغارا تحت الضفة ، وحيثما كان البريق ينيره كان ينشق عن جرح راعف كأنه جسد ينتفض . والتلة التي خلف الطريق التي كان هذا البريق المتراقص ينتشلها من الظلمة تارة ويرميها فيها تارة أخرى كانت تلوح بنية متشيطة . وراء الجدران المتاظية كان شيء ما ينهار ويطقطق كأنما بفعل انفجارات ، ومن النوافذ كانت تتقذف جمرات متشظية ، وكان شررها يرتفع عاليا ويتطاير ضائعاً بين النجوم ؛ وكان اللهب يفح في الأعلى متحولاً إلى دخان رقيق . وفجأة انتصبت الألواح الخشبية على السطح عمودياً وسط النار ومالت سوداء فحمية ، وهي ما تزال تحترق ، باتجاه القرية — أن هناك ستنشب حرائق ، انظروا إلى هناك . وفي اللحظة ذاتها تقريبا انهار السقف وهمدت النار وتداعت العوارض الخشبية العليا المحترقة . تصايح الناس وتراجعوا . انخرطت كاترينا من جديد في بكاء مر وهي تنحني دون أن ترى شيئاً للبيت الصريع الذي لم يلفه الدخان إلا قليلا — ريثما التقط اللهيب انفاسه وشحذ همته وعاود انطلاقه بزخم جديد ، وكان الموقد الروسي يتطاير من قلب اللهب هذه المرة قطعة قطعة وكأنه يتراقص . وزحفت النار إلى الفناء عبر السياج . وهنا لم يشأ أحد ايقافها — ما نفع الفناء دون بيت ؟ من ذا الذي ينقذ رجليه بعد أن يبقى دون رأس ؟

حين انهار أعلى البيت ولم يعد هناك بالتالي بيت ضعف اهتمام الناس بالنار . التفتوا كانما بايحاء من مجهول إلى بتروخا . التفتوا أيضاً إلى كاترينا التي كانت تنشج ورثوا لحالها شفقةً ، لكنهم ثبتوا نظرهم على بتروخا . كيف حاله ؟ وماذا يفعل ؟ ماذا يشعر ؟ هل هو راض أم مذعور ؟ كان بتروخا يقف وهو ينكش صدره العاري وينفض رأسه في اضطراب : فقد أغاظته نظرات الناس المتسائلة . وكان يعذبه منذ فترة ، مذ وصلت أمه ، أنها لم تدن منـــه ، لم تسأله ولم تشتمه وتوبخه بل كانت كمن نسي وجوده تماماً ، تخلت عنه وأنكرته . ولهذا شعر بتروخا بدافع إلى الدنو منها وتذكيرها بأنه هنا ورؤية كيف ستتصرف أمه . وها هو الآن بعد أن استبد به الغيظ قد حزم أمره .. فقال لها وهو يقترب منها شيئاً ، وقاله بوقاحة وجلافة ذعرهو نفسه لهما :

— هاتي شيئاً ادخنه يا أمي :

رفعت إليه وهي ما تزال تنشج وجهاً غير فاهم :

وأزدف دون توقف .

— انت تنشقين التبغ ، اعرف ، لابد أن عندك منه .

وسمعت داريا :

— الآن أريك كيف تدخن ! — قالت له بصوت خفيض لكنه حازم متوعد : — الآن سأشعل جمرة في سحنتك ! الآن يا ابن النار آخذك وأعطيك انتشم ما الرائحة هناك ! هذا ما كان ينقصه — أن يضحك على أمه ! هيا انقلع من هنا قبل أن تمتد يدي إليك !

— هيك ! — كان هذا كل ما وجده بتروخا لإجابتها وتراجع إلى الظلمة .

لكن الظلمة كانت وهنت ، خبت بشكل ملحوظ ، وكان الفجر ينسكب من السماء . وعلت الآن ، بعد أن خبت النار ولم تعد تنشب إلا في الخشب المتبقي في الأسفل ، رائحة الحريق أقوى وتتاثرت قطع تهلهلة من السخام . كانت الجمرات المتطايرة ترسل دخانها فوق العشب وفي الطريق ، وكان العنبر منزويا يحترق بشكل عادي ، دون حماسة ودون هياج . ومع نور الصباح المتحفز صارت حتى النار أكثر بياضاً وإشراقاً .

أخذ الناس يتفرقون . كانوا يغادرون أمكنتهم وهم يتطلعون حولهم بتوجس وعدم ثقة : ها هو ذا نظام متيورا قد خرق ، من أحد جانبيها تعرت القرية، وفي جانبها الآخر باتت عزلاء . يقينا ،من هنا ستواصل النار سيرها ولن ينجو أحد منها ...

هذا أيضا ما كانت داريا تقوله لكاترينا وهي تحاول تهدئة روعها والمضي بها بعيداً عن الحريق . الجميع سيحدث لهم ما حدث لها ، لن يوفر هذا المصير أحداً . كان من نصيب كاترينا أن كانت الأولى . وهذا أريح لها : فلن يكون عليها فيما بعد أن تتألم وتتعذب في انتظار نارها ثم ان تنظر إليها ، بعد أن تنتظر ، وهي تحترق وتحرق قلبها . لقد عاشت دورها .

حقاً ، البيت يحترق بالنار في فترة قصيرة ، في ساعتين أو ثلاث ، لكن الدخان يظل يتصاعد منه أياماً طويلة ، وتظل تفوح من حناياه بقوة روح الإنس والحياة التي تبقى ، مهما عملتْ فيها النار حرقاً ، عصيةً على الفناء ، لا تُقتَل .

خرج السيد هذه الليلة باكراً إلى المركز الذي اختاره منذ زمن

لنفسه فوق التلة القريبة حيث يمكنه أن يراقب الحريق بيسر وأمان . ولقد رأى كل شيء من بدايته إلى نهايته . رأى بصيص أول عود ثقاب شعر به البيت وميز على الفور وميضه الخاص غير الضروري : تمطى البيت وصر بألم وحط . هرع السيد إليه ، التصق للمرة الأخيرة لحظة بخشبه الجاف المتجمد ليثبت أنه هنا وأنه سيكون هنا حتى النهاية ، وعاد أدراجه للحال .

رأى كيف نور البيت من الداخل ببصيص خافت متقطع أول الأمر سـ رعان ما أخذ يشتد ويشـتد إلى أن غمر النوافذ بحمرة متراقصة . كان السيد ينظر عبر الجدران ويرى ما يجري في الداخل . حاولت النار طويلاً الإمساك بأرض البيت المرصوصة والملساء التي داستها الأقدام قرونا دون أن تتمكن منها إذ كانت تنزلق وترتد عنها خائبة . وفجأة لمحت الحاجز الخشبي الرقيق فانقضت عليه وشبت فيه بيسر حتى أعلاه . طقطقت الجدران وقد اشتد عليها لظى النار . وانصفق الزجاج في النافذة المطلة على نهر انغارا بلطف كأنه ينسكب ، ولا تدري إن كان هذا بفعل وهج الحرارة أم بتدخل غريب . وهب هناك ، كأنما من فوهة منفاخ ، هواء طلق فتنفست النار بطلاقة وأزت وراحت تسرح وتمرح في أرجاء البيت كله ملتقطة أي شيء قابل للاحتراق وممعنة في تأجيج حرارة السقف والجدران .

رأى السيد كيف هرع الناس ، وكيف كان بتروخا يروح ويجيء على مرأى من أوائل الهارعين وهو يلوح بيديه ويشير بهما إلى البيت الذي يرتفع فيه اللهب من كل جانب . كل ما كان في الخشب من حياة كان قد أزهق في هذا الوقت ، وأخذ الخشب يحترق دون ألم . انسل اللهب

إلى الخارج وأحاط البناء من جانبيه واندلعت النار على السقف على شكل هالة عالية طال ضوءها حتّى السيد الذي اضطر إلى الانسحاب زحفاً إلى الظلمة .

وفيما كان البيت يحترق بملء قامته ، كان السيد يرسل الطرف في القرية . رأى جيداً في ضوء هذا الحريق السخي الأنوار الضاربة إلى البياض ، وكأنها المرسومة ، فوق البيوت التي ما زالت حية — كان بامكانه أن يراها وحسب ، ولقد رآها وحدد الترتيب الذي ستشب النار فيه في كل منها ورأى قربها أناساً أغراباً وكانوا كثرا . رفع السيد رأسه إلى أعلى أيضاً فرأى أدخنة فوق غابات متيورا ، وفي سكون الريح ظلت هذه الأدخنة تحوم طويلاً في الجزيرة على شكل حلقات وداع .

كانت بودموغا تحترق ...

رأى دخاناً فوق المقبرة ، نفس ذلك الدخان الذي حالت العجائز يومها دون تصاعده ...

رأى ، وقد انكفأ بعينيه مرة أخرى باتجاه بيت بتروخا ، كيف ستأتي كاترينا غداً إلى هنا ، وكيف ستسعى هنا حتى المساء تبحث عن شيء ما ، تقلب شيئاً ما في الرماد الحار وفي الذاكرة ، وكيف ستأتي بعد غدٍ وبعده وبعده ...

لكن كان يرى أيضاً ما هو أبعد ...

* * *

— ٩ —

كان بافل يتردد على القرية في فترات باتت أندر فأندر ، وكان لا يمكث فيها طويلا بل يسوي أموره على عجل ويقفل عائداً . هذه السفرات التي لا تهدأ كانت تنهكه فكان يصعد من الضفة متعباً وصامتاً. ولم يكن بافل ، أصلاً ، من سلالة الميالين إلى الكلام أما الآن فقد تيبس لسانه تماماً . عمل بافل في الكولخوز رئيس فريق ثم مديراً للمرآب وكان يؤدي عمله على أحسن وجه . أما أين سيعين في السوفخوز فهذا أمر لم يعرف شيئاً أكيداً عنه حتى الآن ، ولا أحد ، على ما يبدو ، كان يعرف . وبالفعل كانت إحدى المسائل الصعبة التي تؤرق القيادة الجديدة هي أين تذهب بموظفي الكولخوز السابقين الكثر ، وهم من الحلقتين المتوسطة والعليا من الذين ذاقوا طعم السلطة (وإن كانت هذه السلطة صغيرة، إلا أنها سلطة) ولا يستطيعون أن ينزلوا عنها ، والذين تعلموا كيف يأمرون ونسوا بطبيعة الحال العمل تحت إمرة الآخرين . كان بافل مستعداً لأن يذهب إلى أي مكان فهو لم يعلق أهمية كبيرة على هذا الأمر ، لكنه كان يرى كيف كان الساعون إلى المناصب يسعون هنا وهناك وهم ينشرون بعضهم بعضهم ، وكيف كانوا يتحدثون بارتباك وتصعيرات مع الكبار والصغار وهم لا يعرفون بعد ألى هؤلاء أم اولئك سيسوقهم مصيرهم . وضع بافل في ورشة إصلاح الآليات وعين بمرتبة رئيس فريق وكان في أول الأمر وحيداً ، لكن

سرعان ما ظهر إلى جانبه رئيس آخر والآن أخذوا يلزقون بهما رئيساً ثالثاً . هذا معناه أنه لن يكون هناك مسؤول بل سيكون هناك ما يسأل عنه : الآليـــات ، الجديدة منهـــا والقديمة ، كانت تتخرب دون حركة ودون عناية ، وقطع الغيار ، كالعادة ، لا تكفي ، وأصحاب الطلبات تكاثروا أثناء ذلك ، فكان كل طلب يتبعه أغلب الأحيان رفض ، وبعد الرفض طلب مكرر . والشيء نفسه كان يحدث عندهم – بين الرؤساء والعمال ، فهؤلاء لم يكونوا يعرفون من يطيعون . لم يكن هذا عملاً بل حرق أعصاب ، وإلى أن يسحب السوفخوز رجليه تماماً من نهر انغارا ويضم كل الأشخاص وكل التجهيزات وتستقر الحياة الجديدة وتنتظم ، لم يكن هناك شيء أفضل يمكن توقعه .

مع انتقال كاترينا إلى بيت داريا أحس بافل أيضاً باطمئنان أكبر : فالحياة ستكون أسهل على العجوزين معاً ، وستكونان معاً أقدر على تحملها كما سيكون بمقدوره هو أن يكون أقل قلقاً على أمه . كما ان كاترينا يمكن أن تساعدها في أعمال البيت ، فهي مازالت قادرة على الحركة ولم تخرف بعد،والحقيقة إنه حاول هو نفسه في الأشهر الأخيرة أن يأخذ إجازة ويأتي إلى هنا ، إلى متيورا للحصاد وجني المحصول ولينظف الجزيرة على طريقته كرب عمل ويطلقها تحت الماء ، وكانوا يجيبونه بالضبابية البعيدة النظر والمألوفة « سنرى » ، ولم يكن هو نفسه يعلق كبير أمل على موافقتهم . والحقيقة أنه هو نفسه لم يلح كثيراً خشية أن يجبروه بعد حصاد القمح أن يقوم في الوقت نفسه بتنظيف آخر : بحرق البيوت : لابد لأحدهم أن يباشر هذا العمل فيما بعد . لكن بافل لم يكن بوسعه حتى أن يتصور كيف يكون هو من يقود عملية حرق قريتهم .

سيظل الناس يذكرون حتى بعد عشرين وثلاثين بل وخمسين سنة : « آ ، بافل بينيغين ، ذاك الذي حرق متيورا ... » . لا ، إنه لا يستحق ذكراً كهذا .

كان بافل يدهش كل مرة يأتي فيها متيورا من تلك الجاهزية التي كان الزمن ينغلق بها وراءه : كأنْ لم تكن هناك أي بلدة وصل منها بالنهر لتوه ، كأن لم يغب عن متيورا في أي مكان . البلدة هذه تقع هناك على الضفة الأخرى لكن ليس لها أي علاقة به هو بافل . لها علاقة بشخص أو بآخر طبعاً لكن به لا . لقد كان هناك ورآها — بلدة جيدة ، لكن أقليلة البلدات الجيدة على وجه هذه الأرض ؟ بيته هنا ، والواحد منا لا يرتاح إلا في بيته كما هو معروف. هذا ما كان يمثل دائماً أمام عينيه ما ان يصعد المنحدر وتنكشف أمامه قريته بكل ما رآه فيها وعرفه منذ طفولته . وصل إليها فاصطفق باب غير مرئي وراء ظهره ولم تعد ذاكرته تسعفه إلا بما له علاقة بالحياة هنا حاجبة ومُبعدةً التحولات الأخيرة كلها .

وما قوله التحولات ؟ إنك لن تغير فيها ولن تبدل شيئاً ، ولا مفر منها ولا مهرب . هذا أمر لا يتوقف عليه ولا على غيره . « يجب » معناها « يجب » ، لكن من « يجب » هذه لم يكن يفهم إلا نصفها — كان يفهم أنه يجب الانتقال من متيورا ، لكنه لم يكن يفهم لماذا يجب الانتقال إلى هذه البلدة التي وإن كانت بنيت بغنى وجمال ، البيت إلى جانب البيت والصف إلى جانب الصف ، الا أنها أقيمت بطريقة ليست انسانية وبشكل سخيف بحيث لا يبقى أمامك إلا ان تسلم أمرك لله؟ وعندما كان رجال القرية يجهدون ، وهم مجتمعون معاً يحللون

الأمور ، أن يخمنوا لأي غاية ولأي سبب يجب نقل البلدة إلى خمسة فراسخ عن شاطىء البحر الذي سيمتد هنا إلى المنحدر الشمالي للمنحدر وطمرها في الطين والحجارة، لم يكن يرد إلى الخاطر أي تخمين على الإطلاق . أقاموها وافقعْ إذا شئت ! كأنهم ، كما في الخرافات القديمة ، أطلقوا سهما على العمياء ، وإلى حيث حملته الريح تبعوه . والتفسير بسيط مع هذا ، فهم لم يبنوا لأنفسهم بل كان همّهم كيف يكون البناء أسهل ما يكون ، وآخر ما فكروا فيه إن كان العيش هناك مريحاً .

كانوا يعتبرون حين فرضت عليهم هذه البلدة الجديدة أن لهم في اللجنة رجلهم الذي سيدافع عن مصالح السكان وهو مدير الكولخوز ، لكن « رجلهم » هـذا ظهر منجانب واختفى على الفور في الجانب الآخر ولما يكد يضع توقيعه بالموافقة . ولربما كان مستعداً أن يضع توقيعه باطمئنان حتى ولو كانت ستُبْنَى تحت الأرض . ويقال إنه حتى مدير المؤسسة الحكومية للانشاء القائمة على بناء البلدات الجديدة حين قدم ورأى أي مدينة هذه التي ستبنّى سب وشتم واعترف أنه لو كان الأمر بيده لما وافق على الإطلاق ولنقل البلدة إلى حيث ينبغي . لكن الأمر كان قد انتهى والاموال رصدت ، وهي أموال ليست بالقليلة ، وتغيير أي شيء بات مستحيلا . الحياة إنما هي حياة لتستمر ، إنها تتحمل كل شيء وتتقبل أي مكان حتى ولو على صخر أجرد أو في شق لزج ، بل تحت الماء إذا اقتضى الأمر ، لكن لماذا نمتحنها على هذا النحو ، دونما حاجة أو ضرورة ولماذا نخلق للناس صعوبات لا حاجة لأحد بها ، لماذا نخلق منغصات كبيرة ونحن نُعنى بأسباب الراحة الصغيرة ؟ هذا ما كان بافل يفكر فيه وما كان يحاول أن يفهمه ، وظل مع هذا عاجزاً عن فهمه . ولهذا لم يستطع أن يتقبل بشكل كامل هذه البلدة

الجديدة على رغم معرفته أنه لابد له على هذا النحو أو ذاك أن يعيش فيها وان الحياة هناك ستنتظم في آخر الأمر .

« يجب » معناها « يجب » . لكن قلبه كان يخفق بقلق وارتباك حين كان يذكر أي أرض هذه التي ستُغْرق . إنها أفضل أرض ، أرض ظل الآباء والأجداد وأجداد الأجداد قرونا يعتنون بها ويحسنونها ويسمدونها ، أرض أطعمت أكثر من جيل ، أوليس الثمن باهظاً ؟ ألا ندفع أكثر مما ينبغي ؟ الذين لم يعيشوا هنا ولم يعملوا ولم يرووا كل ثلم بعرقهم هم وحدهم الذين لا يؤلمهم فقد هذا كله . هاكم : قلبُ هكتار من أرض الفلاحة يكلف الف روبل . في هذا الهكتار الذهبي بذروا في الموسم الحالي قمحاً ولم ينبت القمح . التربة من فوق سوداء ، قلبوها فصارت حمراء تصلح تماماً لبناء معمل آجر . واضطروا إلى إعادة زراعتها لكن بالفصفصة هذه المرة حسب المثل القائل « حسبك من الغنمة الجرباء حفنة صوف » . ولا أحد يدري حتى الآن إن كانت الفصفصة ستنمو . من يعرف كم يلزم من الوقت حتى تجعل هذه الأرض الحراجية المتوحشة الفقيرة تصلح للقمح وتفعل ما ليس في طبيعتها أن تفعل . أما من الأرض القديمة فأذكر أننا في الزمن القديم كنا نطعمَ منها وكنا ننقل إلى الشمال والشرق آلاف البودات منها . أرض حراث رائعة كانت !

« لا ، واضح أني أشيخ ، — كان بافل يرد نفسه إلى رشدها — إني أشيخ ما دمت لا استطيع أن أفهم . أما الشبان فيفهمون . لا يخطر ببالهم حتى مجرد الشك . ما يفعلونه بهم هو الذي يجب أن يُفعل . يبنون لهم قرية هنا ، هنا إذاً يجب أن تُبنى ، هذا هو مكانها الوحيد

الممكن . مهما يحدث فكله الأفضل ، لكي يعيشوا أمتع وأسعد . عش كما يحلو لك : لا تلتفت ولا تفكر . إن لم تعط الأرض قمحاً جلبوه لك جاهزاً مطحوناً مخبوزاً أرغفةً بيضا ، سوداً ، رمادية ، كلٌ حتى تنتفخ ! لا يأتيك حليب من بقرتك؟ سيجلبونه لك أيضا كي لا تشقى بهذه البقرة ، كي لا تتمرغ بين الشجيرات وانت تجمع لها الحشيش . وسيجلبون لك البطاطا والفجل والبصل وكل شيء ... أما من أين يأتون به فليس شغلك . عندنا بلدة على نمط المدن ، إذاً سيكون فيها كما في المدينة ، وليس أقل من ذلك بأي حال . على الأرض التي تقلبها ، على زراعتها ثم إعادة زراعتها ستقبض نقوداً ، وبهذه النقود يمكنك أن تشتري ما يلزمك. انظر أي محل زجاجي هذا الذي أقاموه — ما أحلى النظر إليه . وإلى جانبه سيقام ثانٍ ثم ثالث ... إن ساءت الحال هنا انتقلت إلى مكان آخر حيث الحياة أسهل وأطيب ، فالطرق كلها أمامك مفتوحة .

إني أشيخ ، — قال في نفسه معترفاً ، — لا بل شخت . هذا واقع ! اعتبر أن أمي متمسكة بالقديم لعجزها عن افهم ، لكن هل أنا بعيد عنها كثيراً في هذا ؟ أو يكون زمني قد ولى ؟ أمي لها يقينها والشبان لهم يقينهم ، أما أنا فليس عندي أي يقين ، لست هنا ولست هناك ، بل بين بين ، بين اولاء واولئك . ام هي السن ؟ لا تستطيع أن تفك لغزاً حتى يدهمك آخر أعوص . لكن امك عاشت زمنها ، أما أنت فلا زال أمامك أن تعيش وتعمل . أأكون لا أدرك أن الجديد لا يُبنى في فراغ ،وانك لن تنال من اللاشيء شيئاً، وأنه في سبيله يجب أن تدفع شيئاً ما غالياً،أليفاً، أن تبذل في سبيله جهوداً غير قليلة ؟ إني أدرك هذا بشكل رائع . وأدرك أنه بدون تقنية . بدون أرقى التقنيات لا يمكننا أن

تفعل الآن شيئاً ولا يمكننا أن نذهب بعيداً . كل واحد منا يدرك هذا ، لكن كيف نفهم هذا الذي فعلوه بالبلدة وكيف نقره ؟ لماذا فرضوا على الذين سيقطنون هناك جهوداً نافلة لا لزوم لها ؟ كم ضيعوا علينا حين لم ينظروا إلا إلى يومهم هذا ، ولماذا لم يحسبوا حساب هذا كله مقدماً ؟ يمكنك بالطبع ألا توجع رأسك بهذه الاسئلة ، بل ان تعيش كيفما اتفق وتبحر كيفما اتفق ، لكنك معجون هكذا : لأن تعرف ماذا ولماذا ولأي غاية ، ولأن تغوص حتى جلاء الحقيقة . لهذا انت انسان » .

ويعود إلى البلدة ويدخل إلى فناء بيته الذي جعله مرور الوقت يلتصق به طوعاً أو كراهية ، فتهدأ ثائرته : الحياة ممكنة فيه . إلا ان هناك شيئاً غير مألوف ، غير مريح ، تشعر بنفسك مستأجراً ، وانت بالفعل مستأجر لأن البيت ليس بيتك ولا تستطيع أن تتصرف فيه تصرف السيد . لكنك بالمقابل تجد كل شيء جاهزاً : لا حطب عليك أن تحتطب ولا موقد عليك أن توقد ... صحيح ، مازال عليك أن تحمل الماء لكنهم يعدونك بايصال الماء أيضاً إلى البيت . هل بوسعك الإنكار : الحياة صارت ميسرة . تأتي من العمل ، تغتسل وبعد يمكنك أن تستلقي ما طاب لك ، ليس هناك أي مشاغل وهموم ولا أي معاناة ... لكنك ، مع هذا اليسر كله ، تشعر على نحو ما أنك لست بكامل وزنك ، أنك لا تقف على أرض صلبة آمنة ، كأنما بوسع أي ريح غير مواتية أن تمسك بك وتقتلعك ، وابحث بعد ذلك أين انت . هناك عدم ثقة واطمئنان يمعنان في تحزك خفية : أهذا أنت أم لا ؟ وإذا كنت انت فكيف صرت هنا ؟

لابأس ، سيعتاد على هذا أيضاً ...

كان بافل يدهشني وهو ينظر إلى زوجته سونيا : ما ان دخلت البيت — الشقة يجب ان نقول الآن لا البيت — ما ان دخلت حتّى شهقت

إذ رأت لعبة لامعة — فرنا كهربائيا ، وزهوراً وبراعم على الجدران التي لا حاجة لتبييضها بالكلس كما تبين ، وخزناً داخل الجدران ناهيك عن حمام ببلاط مصقول وفيه مقعد ، وإن كان ، في الحقيقة ، دون ماء ، لا يعمل ، وشرفة خضراء بهيجة مزججة بالكامل من أحد جانبيها — وكأن سونيا عاشت طول عمرها هنا . تأقلمت في يوم واحد ، هرعت إلى الجيران لترى ما فعلوا وراحت تتدبر الأمور : ماذا يمكننا أن نضع واين نضعه ، ما الذي لا نخجل من جلبه من الأثاث الموجود وما الذي يجب أن نبتاع ، وارتأت أين نحفر القبو وكيف نوسع بيت المؤونة . كانت تروح وتجيء في هرج ومرج وحمية ورضى كاملين ، على استعداد لأن تسمّر نفسها إلى هذه الشقة . لكنها امرأة قروية مع هذا لم تخالط الأمراء ولا الأشراف ولم تشم حتّى مجرد شم رائحة الحياة الحلوة ، فإذا بها تنتفش فجأة ، فمن أين جاءها هذا ؟ صحيح ، هذا إغراء للمرأة أن يكون ما حولها جميلا نظيفاً ، ليس عليها أن تسعى كالمجنونة بين الفناء والمطبخ ، وكل شيء أمامها ، في متناول يدها . زد على ذلك أن لسونيا اختين . إحداهما بعد زواجها من رجل حرك وناجح يعمل في التموين كانت تعيش كالأميرة لا ينقص شقتها شيء ، وكانت سونيا تشعر نحوها بقدر غير قليل من الحسد . وحين كانت تسنح لها فرصة القيام بزيارة خاطفة لأختها وتعـود من المدينة كانت تنظر نظـرة شر إلى القدور والمواقد . بل حاولت مرة إغراء بافل الانتقال إلى اركوتسك . كانوا هناك قد حشوا رأسها بكلام كثير عن هناءة الحياة

ورخائها وتحضرها وكرامتها وأملّه عديله الذي في التموين أن يجد له عملاً.
ذابت سونيا واستسلمت وطارت إلى القرية كأنما لتجهز نفسها للانتقال .
وكاد بافل يهتز هو أيضاً ، إذ سرت في هذا الوقت بالذات شائعات عن
الغمر ، وكان لا مفر من الانتقال إلى مكان آخر على أي حال ، لكنه
تماسك . في المدينة تحلو المعيشة لمن يرى المدينة حلوة ، أما الذي أنشأته
أمه القرية وأوصلته إلى شيخوخته فاجلس هنا مكانك لا تتحرك . وتبين
سريعاً أن لا حاجة إلى الذهاب إلى المدينة فالمدينة نفسها شرفت إليك .
والآن بات بوسع سونيا أيضاً أن تطمئن ، وإلا كانت ستقيم القيامة
على رأس زوجها . لقد خرجنا من الوحل والطين وانطلقنا إلى حياة
الترف واللين ...

شيئاً فشيئاً تُصقل الحيـــاة وترق ، ويتكيف الانســـان ويتأقلم .
ولا يمكن أن يكون غير هذا . يقتطعون بعد ذلك في مكان ما قطعة أرض
صغيرة للبطاطا على بقايا الحقول القديمة – فلا يمكنك أن تنقل كل شيء
معك مهما حاولت ، ثم يفطنون إلى ان الأمور صعبة بدون بقرة أيضاً –
خلّ أملك معقوداً على قطعان السوفخوز لكن لا مانع مع هذا أن تربي
عندك بقرة ، ثم يسمحون لك ، وكأنما يهبونك هبة عظيمة ، أن تربي
حيوانات إذا كنت تحتاج إلها وأن تسيج وتحصد وتشقى من العتمة إلى
العتمة إذا كان هذا يعجبك . لكن هذا لا يعود يعجب الجميع ، فالناس
قد اكتسبوا عادات جديدة .

الأمر أيسر عليهما ، فسونيا لا يلزمها أكثر من هذا ، وهو
سيتكيف ويتأقلم . لكن بافل كان يدرك جيداً أن أمه لن تستطيع
التعود على هذا المكان فهو بالنسبة لها جنة غريبة . إن يحملوها إلى هنا

ستتزوي في الركن ولن تخرج منه حتى تجف تماماً . هذه التبدلات لاطاقة لأمه بها . كانت تكاد لا تسأله عن المكان الجديد وحاله وكأنها لا تستعد للمغادرة إلى أي مكان ، وعندما كان لسانه يفلت بشيء ما في هذا الخصوص كانت تتأوه وتضرب كفاً بكف لكن كأنما على شيء غريب وبعيد ليس له علاقة ، أي علاقة بها . لم تكن هذه البلدة أقرب وأحب إليها من أية أميركا مثلاً حيث الناس ، كما يقال ، يسيرون على رؤوسهم كيلا يؤلموا أرجلهم . كان بافل يزداد قناعة وهو يراقب أمه أنها ، وهي تفكر في شأن الانتقال، لا ترى نفسها ولا تتصور نفسها إلا في متيورا. وكان يخشى اليوم الذي سيكون عليه فيه مع ذلك أن يحملها من متيورا .

* * *

— ١٠ —

بتروخا ابن كاترينا اختفى في اليوم التالي للحريق ، كما كان ينبغي توقعه . وها هو ذا اسبوع يمر دون أن تبدر منه إشارة . اختفى دون ان يترك لأمه كسرة خبز . كانت كاترينا تعيش في ضيافة داريا ، فآخر حفنة طحين في بيت المؤونه احترقت . ومع ان كل شيء في البيت قد احترق على الأرجح ، إلا أنها راحت تنقب بعد الحريق — هذا احترق ، وذاك احترق ... تحسرت كاترينا أكثر ما تحسرت على السماور ؛ فهي حين انتقلت إلى داريا لم تفكر في أي حريق ممكن طبعاً ، وتركت السماور إلى اليوم التالي ، وفي اليوم التالي لم تنتشل الا كتلة نحاسية مصهورة . لم ينس بتروخا هارمونيكاه العديمة الصوت أما السماور صاحب الفضل الذي سقاه وأطعمه فقد تخلى عنه ورماه . وشعرت كاترينا أنها يتيمة تماماً بدون السماور .

كانت ما تزال تأمل أن يعود بتروخا إلى صوابه ويجد له عملا ويأخذها إليه . وكانت تتنهد حين تتصور أنه سيكون عندهم بيت ، لكن لن يكون في هذا البيت سماور . فالآن لا يصنعون السماور ولا يمكنك أن تجده في أي مكان . المائدة التي لا يتصدرها السماور ليست بطاولة بل هكذا ... معلف كما عند الحيوانات والطيور لا طعم لها ولا لون ولا هيبة . من قديم الزمان ويجلون في البيت ثلاثة أرباب : كبير الأسرة والموقد الروسي والسماور . كانوا يسايرونهم ويداورونهم

ويحترمونهم ، بدونهم لم يكونوا يبدؤون نهارهم عادة ، وبأمرهم ورأيهم كانوا يقومون بالأعمال الأخرى كلها . والآن لم يعد عند كاترينا دفعة واحدة لا بيت ولا سماور ولا موقد روسي (لا ، الموقد لم يحترق ، إنه ملقى هناك متشققاً ومنفلقاً فوق الرماد كأنه نصب – فهل أُبقي هناك ليتدفأ به الأرض ؟) . ولم تعرف كاترينا بعد أبيها سيداً .

أما داريا فهذه لم يكن بوسع دماغها أن يفهم كيف يمكن لانسان أن يحرق بيته قبل الأوان . لهذا كانت تأخذ المرة بعد المرة في صب الشتائم على بتروخا مطالبة بجواب : كيف ارتفعت يده لتفعل فعلة كهذه ؟ وكانت كاترينا تحبس أنفاسها وتلوذ بالصمت وتخفي عينيها كالمذنبة كأنما كانت هي المعنية ، وعندما كانت داريا تقترب منها مباشرة ، وكان عليها أن ترد بجواب ما ، كانت تتملص على عجل :

– طائش ، هكذا خلق .

ولم يكن في هذه الكلمات القصيرة أي حقد على ابنها الذي تركها دون سقف ودون خبز ولا أي زعل منه بل معنى واحد يغفر ويحمي : ما أدراني ، هكذا خلق ، فماذا يُنتظر منه ؟

– هاك، هاك، – كانت داريا تثور وتغرز فيها إصبعها، – طول عمرك أنت هكذا .طول عمرك تتساهلين معه،أفسدته بشكل غير معقول. هذا ما تستحقينه الآن، هذا ما تستحقينه ،هذا ما تستحقينه ... كما حرق بيتاً حياً سيدفنك في الأرض حية .لا ليس في الأرض، – أردفت مستدركة في أسى ، – بل في الماء، في الماء كي لا تُدفني. وانت بنفسك ستتوسلين إليه أن يربط إلى عنقك أكبر حجر ممكن كي لا تطفين على سطح الماء .

— يفعلها ، — كانت كاترينا تتنهد ، — طائش قلتُ لك .

وكانت داريا تضرب كفاً بكف :

— ما نفع الحديث معها ، أنا أين وهي أين . أنا أقول لك ، يعني التّمي على بترّوخا ، كوني معه ما دام الله أعطاك من يعيلك ...

كاترينا لم تتزوج قط ، وابنها بترّوخا هذا رزقته من رجلها المتيوري أليوشا زفونيكوف الذي قتل في الحرب ولم يعد في عداد الأحياء من زمن بعيد . كانت كاترينا أصغر سناً منه بكثير عندما التقيا . كان عنده أربعة أطفال يركضون بين الكراسي ، لكنه كان قد وخز قلبها بحيث لم تتزوج أحداً مع ان الراغبين فيها كانوا كفاية في سنوات شبابها . كان أليوشا زفونيكوف مشاغباً لا يستهان به ، وقد أخذ عنه بترّوخا في هذا الجانب قدراً ليس بالقليل ، لكن الأب كان رجلا محباً للعمل،ولا بد أنه كان ينطوي على شيء ما خاص متميز ما دامت زوجته رضيت بوضعها مع كاترينا،وما دامت كاترينا نفسها التي لم تكن تأمل في شيء، كانت تشرق وقلبها يخفق من الفرح حين كان هذا الرجل يتسلل إليها في انصاف الليالي . وما زال وجهها يتغير حتّى الآن حين تذكره وروحها تنتعش كما بفعل الخمر ، وعيناها تنفتحان وتشخصان بسعادة إلى هناك ، إلى تلك الأيام والليالي التي عمرها أربعون عاماً ، وما كانت تراه هناك كان يدفيء قلبها حتّى الآن . كانت تتكلم عن أليوشا وكأنه رجلها ، وفي متيورا كان لها الحق في ذلك لأن عائلة أليوشا غادرت الجزيرة بعد الحرب .

لم يكن ممكنا إخفاء العلاقة بين كاترينا وأليوشا وكان الجميع في القرية يعرفون بأمرها . وفيما بعد حين وُلد بترّوخا لم يعد أليوشا يحاول

التستّر وأخذ على عاتقه علناً أمر الاهتمام بأسرته الجديدة ، فكان يأتي كاترينا في وضح النهار وعلى مرأى من أهل القرية بالحطب والحشائش الجافة ويرمم السياج المتداعي . وهكذا عاش ثلاث أو أربع سنوات موزعاً بين الاسرتين إلى أن أطبقت الحرب ، وقد اعتاد أهل متيورا ذلك منه وكفوا عن إطلاق النمائم . الا ان اليوشا نفسه لم يكن ممن تؤثر النميمة تأثيراً خاصاً فيه فكانت ترتد دونه كما دون جدار أصم . بل كان هو نفسه جاهزاً على الدوام لأن يعيب على أي كان وأن يسخر منه . ولم يكن أي كان مستعداً للاشتباك معه . كان يحب أن يردد متباهيا : « هكذا أنا ، لا يمكن تغييري » . وظل أهل القرية بعد عشرة أو خمس عشرة سنة بعد الحرب يقولون في الرجال والشبان المشاغبين المشاكسين : « ها كم ظهر أليوشا زفونيكوف جديد بيننا » .

أما هذه الخفة ، هذه الذلاقة في اللسان فقد أخذها بتروخا عن أبيه غير الشرعي وأخذها بوفرة . لكن إذا كانت هذه الصفة في الوالد ليست قائمة وحدها في فراغ ، فأثناء العمل لم يكن يهذر ولا يثرثر بل كان لا يعرف إلا عمله وحسب وبعد ذلك يفعل ما يفعله ، فالأمر عند بتروخا كان على العكس . كان عاملاً رديئا ، كل ما تمتد إليه يده كان يخرج لا نفع فيه . حيثما كان يجب أن يحرك يديه كان يضعهما خلف ظهره ، وحيثما يجب أن يبدي مهارة ونباهة كان يحوص ويلوص عاجزاً والنتيجة لاشيء . أرسله الكولخوز لاتباع دورة سائق جرار ، درس هناك نصف سنة ثم اعطوه كسائر خلق الله جراراً جديداً من نوع « بيلاروس » ذا دواليب كبيرة ، فهدم بهذه الدواليب نصف أسيجة القرية وهو يطارد الفئران والكلاب ، ولم يُبق وراءه حتى

في حاكورته وزريبته بعد أسبوع من الزمن إلا أرضا مستوية . إن يشرب فبرويل قطعاً ، ثم ينطلق يدور بجراره فليس على الجانبين إلا نثار وشظايا . وتندفع إليه أمه : « ماذا تفعل يا بتروخا ؟ أفق إلى نفسك ، ماذا تفعل ، إلى أين أنت ذاهب ؟ ألهذا بُني هنا بالخشب كي تسحقه ؟» . وكان يكتفي بالرد : « انت يا عجوز لا تفهمين شيئاً . هذا هو المفروض ، هذه هي مهمتي لهذا اليوم » ويتابع ما بدأه . أما كاترينا فتتحول عنه وهي تقول في نفسها : ما أدراك ، لعل هذا هو المفروض حقاً ، كي يدرب الجرار على السير بانتظام في الحقل ولا ينط خارج الثلم .

سحبوا الجرار من بتروخا اتقاء لأذاه وأنزلوه للعمل في الأرض، لكنه كان قد فسد خلال ذلك تماماً ولم تعد به رغبة للقيام بأي عمل : نقلوه من مكان إلى مكان ومن عمل إلى عمل فما كان منه نفع أو فائدة ، فكانوا يحاولون التخلص منه بسرعة ، ولم يكونوا يخفون برمهم بهذا حتى أمامه فما كان يفعل سوى أن يقهقه وهو يستمع إلى ما يقولونه فيه ويحاول الرد بكلمات أقوى وأجرح كأنما كان هذا يوفر له لذة . لكن لم يكن بوسع أي شيء التأثير في بتروخا ، وحين أخذوا يحولون الكولخوز إلى سوفخوز كان بوسع الكولخوز أن يموت راضياً : فقد تخلص أخيراً من هذا العامل الوضيع .

عمر الرجل يناهز الأربعين ومع هذا لا يريد الإقلاع عن طيشه ، ومع هذا كالصبي الصغير : لا أسرة (جلب بأعجوبة مرتين امرأتين من وراء النهر ، لكن الأولى ثم الثانية هربتا في الشهر الأول صيفا عبر النهر) ولا يدان قادرتان على العمل ولا رأس قادرة على الحياة . لا يُشغل باله بشيء . المهم أن يُمضي يومه ، أما ما يكون من غده فأمر لا يخصه :

أفكاره القصيرة اللامبالية لا تصل إلى هذا . في أول الأمر سجل اسمه للعمل في السوفخوز ثم رفض متذرعاً بعزمه الانتقال إلى المدينة ، ثم عاد على حين غرة يتكلم عن العمل في تعاونية للصيد مع أنه لم يطلق في حياته طلقة من بندقية إلا على الزجاجات ، وكان إلى هذا يخطئها . وفي الفترة الأخيرة صار يحلم في نومه بالشمال وروبلاته الطويلة ... لكن حتى مجرد الوصول إلى الشمال كان يستلزم صبراً ، وهذا الصبر لم يكن منه عند بتروخا ولو قطرة .

احكموا بأنفسكم كيف تكون حال أم رجل كهذا . كانت كاترينا في جزع وخوف دائمين : فمن ولغت نفسه في الإثم لابد مُحاسَب يوما ، ولهذا كانت كاترينا تلقي تبعة أعمال بتروخا الجنونية على كاهلها . كانت تقول :

ـ إذا كان خُلق هكذا فماذا أفعل به ؟ هل أقطع رأسه ؟

ـ وماذا يمكن أن يكون منه مادامت أفسدته كل هذا الإفساد ؟

ـ كانت داريا ترد مستدركة ، ـ لقد أحرق البيت ، فهل قلت له كلمة واحدة ؟

ـ قلت في نفسي ، سيحرقونه على أي حال ...

ـ لكن أن يحرقه بيده ! كيف لم تتيبس يده وهو يقدح عود الكبريت ؟! يجب أن يكون في صدره حجر لا قلب ليفعل ما فعل . لقد وُلد فيه ، وشب فيه ومع هذا سبق الجميع إلى حرقه ! ماذا تقولين !

ـ ربما عن غير قصد بالفعل .

كانت الدهشة تتملك داريا :

ـ يا للمسكينة ، يا للمسكينة ! وكيف لا ، عن غير قصد طبعاً .

هو الذي بناه لك وهو الذي أغناك – يدان من ذهب عند بتّروخاك هذا .
لماذا يأخذ في حرقه – انظروا ماذا ظنوا في الرجل ! عن غير قصد ،
عن غير قصد ...

كانت كاترينا تلوذ بالصمت .

– وكيف يوجد أناس كهؤلاء ؟ – كانت تسائل نفسها في محاولة للفهم ، ولم تكن المرة الأولى التي تحاول فيها أن تفهم ، وكانت تدرك سلفاً أنها لن تفهم ومع هذا كانت تسأل على رجاء طمأنة قصيرة ومغفرة لها ، حين كانت لا تستطيع حتّى مع داريا أن تجد للأمر حلاً – من صغره وهو طائش . تقولين أني أفسدته ، وكيف أفسدته ! لقد عاملته بالحسنى وبغير الحسنى فما العمل إن كان وُلد هكذا . كان صغيرا ولم يرد أن يفهم شيئاً . يدور عينيه ولا يريد أن يسمعك سواء كلمته أو ضربته على رأسه . وانت هل اعتنيت بالأولاد كثيراً ؟

– من أين كان عندي الوقت لاعتني بهم ؟ من العتمة إلى العتمة وأنا على رجلي أركض هنا وهناك .

– ومع هذا خرجوا كلهم رجالا ، لم ينحرف منهم أحد . أدلله ؟ أنا أيضاً لم يكن عندي امكانية لتدليله . صحيح . لم أهمله وحاولت جهدي . حين أنظر إلى أولاد كلافكا أقول في نفسي الأفضل أن يعيش الواحد مع امرأة أب . هي التي ولدتهم لكنها ليست بالام . لا رعاية ولا بشاشة – يعيشون على اللكمات على القفا وعلى الفتات . فقراء لكن يا لهم من فتية رائعين ، لطيفين ، مطيعين ... من أي شيء ، من أي خميرة ، إذا كانت كلافكا لا تعرف إلا الزجر والسباب ؟ أتكون هي التي ربتهم ؟

ـ لا ، ـ هتفت داريا رافضة هذا القول عن كلافكا رفضا تاماً .
كان الكلام يدور الآن حول كلافكا ستريغونوفا .

ـ فماذا إذن ؟ أحدهم يُضرب كل يوم فيخرج رجلا ، وآخر لا ينفع فيه أي ضرب ـ كان قاطع طريق وشب قاطع طريق . أحدهم يُدلل فيكون لنفعه ، ويدلل آخر فيكون شراً عليه . كيف نفهم هذا ؟ ما في الفرد يبقى ثابتاً فيه على الكبر ؟ كسري يديك عليه إن شئت أو احترقي لهفة عليه لن يغلب فيه إلا الطبع ، لا يمكن إصلاحه وتقويته بأي شكل . أليس هكذا ؟ تقولين إني لا أسأله ولا أحاسبه . يا ربة السماء ! لقد مللتُ سؤاله ومحاسبته . الآن بالفعل تركته وشأنه ، رأيت أن لا فائدة . الآن هو هو ، لن يتغير . الآن انتهى الغيظ منه ، لم يبق في القلب إلا الشفقة عليه لكونه هكذا . هل أسوقه إلى المشنقة مثلا ؟ ليفعل ما يشاء ، فالحياة حياته .

ـ لكن انت أيضـاً لا تتكلمين من القبر . انت أيضاً يجب أن تعيشي بشكل ما باقي أيامك .

ـ آ ، فليكن ما يكون ، ـ قالت كاترينا لتتخلص من هذا الحديث .

ـ الآن لم نعد نمشي مشيتنا ، باتوا يجروننا وحيثما يجروننا علينا أن نوافق .

ـ أما انهم يجروننا فصحيح ، إنهم يجروننا ، ـ قالت داريا موافقة .

وعادت كاترينا تقول لتلطف الحديث :

ـ سيكبر أولاد كلافكا ويحملونها على الراحات لأنها لم تُسمعهم كلمة طيبة. يقال : كما تكون التحية يكون الجواب ... آ ـ أ . ـ

ـ مطت في أنين يشي بعدم موافقتها . ـ ليس الأمر هكذا . كل وما كتب له . أقليل ما يحدث : أحيانا تربي أم دزينة ، وفي شيخوختها تعيش معهم أسوأ مما مع الأغراب . الأغراب يخجلون من مسها ، أما أبناؤها فكأنما أعطي لهم الحق فيشتدون عليها ويقسون ... اللص يرجمونه أكثر منها . فعلام ؟ هل تذكرين العجوز أغرافينا ؟

ـ لا عشنا حتى شيخوخة كهذه ، ـ ردت داريا بغيظ فجأة وكأنما دون مقدمات ، ـ على الواحد منا أن يعرف أجله ، ـ وأطفأت صوتها ، خفضته مدركةً أن الانسان لم يُعط معرفة أجله . ـ هل لخطايانا ، ولأي خطايا يبقي الله الواحد منا أكثر مما ينبغي . أوي ، يجب أن يكون قد اقترف خطايا شنيعة حتى يحصل له هذا ... فمن أين يأتي بها .؟ يجب أن يعيش الانسان طالما فيه نفع .فاذا لم يعد فيه نفع فانزلْ مع السلامة . لماذا يتعذب ويعذب الآخرين ؟ الأحياء ... إذا كانوا أحياء فعلاً يجب أن يعيشوا لا أن يُحلوا الموت في البيت ، وتُسْحَبَ المبولات من تحتهم . لقد سحبت المبولة وأعرف هذا الأمر ، وقريبا من تحتي أنا يمكن أن يسـحبوا المبولة . لكني أذكر ، لا زلت أذكر حماتي وكيف كنت أنظر إليها ، ـ تابعت داريا بحنق لا تدري سببه . ـ كنت أنظر إليها وأقول في نفسي : « متى يأخذك الله إليه ؟قرفتك أكثر من فجاة مرة .. » على الرغم من أننا كنا نعيش معاً عيشة رضية ، فهي كانت لينة العريكة وأنا لم أكن من الميالين إلى التأفف . واذكر مقدار ما كنت أشعر به من قرف في آخر الأمر وأنا اقترب منها . ومع أني كنت أعرف أنها ، المسكينة ، لا ذنب لها ، إلا أنه ما كان بوسعي أن أفعل بنفسي شيئاً ، لا استطيع وحسب . وكنت أقول في نفسي أيضاً : لو كانت أمي هي

التي ترقد مكانها هل كنت تمنيت لها الموت أيضاً ؟ وأحاول أن أقنع نفسي ، لكني اسمع صوتا يأتيني من بعيد : كنت تمنيت لها الموت أيضاً . وعلى فرض أن الأمر ليس هكذا تماماً وأني أبديت قدراً أكبر من الصبر ، إلا أني كنت ، في اللحظات العصبية ، بيني وبين نفسي سأنفجر . وهذا لا يصدر بارادة مني بل من شيء ما آخر . لا يا كاترينا لا يا كاترينا لا داعي للإغراق في الشيخوخة ، لا حاجة لأحد بهذا .

— يعني ماذا ؟ هل نضع خناقة على رقبتنا ؟

ولم تجب داريا على الفور ، لكنها أردفت بعد قليل تقول :

— ثم يدفنوننا ويبكون ... إنهم لا يبكوننا نحن الموضوعين في التابوت بل يبكون من يذكرون ... وأي أناس كنا ، ويتحسرون علينا لأنهم يتحسرون على أنفسهم . إنهم يرون أنهم يشيخون ، وأنهم لن يكونوا أحسن حالا منا ، وأنهم بدوننا سيشيخون أسرع . بينهم وبين أنفسهم دفنونا قبل هذا ، فلو نتحين تلك اللحظة ونرحل . ونحن مع هذا نتمسك بالحياة. نتمسك بها وليس في هذا إلا الضرر. إذا غادرت باكراً ستكون ذكراك أفضل . ستبقى ذكراك أجمل ، تبقى آلم وأقوى . أما حين يضعونك في التابوت كتلة من العظام فمنظرك يثير رعب الناس، وهذا الرعب يقتل فيهم كل ذكرى قديمة عنك .

— ونحن ما ذنبنا ؟

— ذنبنا أننا نتمسك بالتعود علينا والتعلق بنا تمسكنا بكلب نريد له أن يحرسنا ويعوي على غيرنا . لو فكرت في صباك كيف ستطيقين نفسك فيما بعد لرسمت إشارة الصليب وما صدقت . لن يبقى فيك شيء حي ،

كله تداعى وتعظم — لا أسنان ولا قرون ولا شيء أبداً . لكن لا ، الدنيا لم تر ألطف منك وأحلى . ولماذا ؟ الله اعطاك الحياة لتفعلي شيئاً ، لتتركي أطفالا ثم تنزلي تحت التراب كي لا ينقص تراب الأرض.هناك الآن منك نفع وانت هنا مازلت تعاندين ، صرت شوكة في الحلق . أنهيت طبختك فحيدي لا تعيقي الآخرين ، دعيهم يعملون عملهم ، لا تأخذي منهم وقتهم فوقتهم هو أيضاً ضيق .

— إلى أين هذه العجلة ؟ — ردت كاترينا نابذة هذه الفكرة ، — نعيش ركضاً ونموت ركضاً ؟ لعلنا لن نعيش مرة أخرى ؟

— ربما لست أنت الآن التي عشت ..

— ومن إذن ؟ قولي لي ، لا تضيعيني بكلامك . من سيعيش مكاني ؟

— ربما شخص آخر . لقد خدعوك حين قالوا لك إنه انت . وإذا كنت أنت فعلا فلماذا إذن لا تستطيعين العيش مع بتروخا ابنك في سلام ؟ لماذا لا تعيشين كما ترغبين بل كما يشاء الآخرون ؟ لماذا تشقين طول حياتك ؟ لا يا كاترينا ، أنا لا أجرؤ معاذ الله على القول عن نفسي إني أنا التي عشت ... كثير جداً من الأمور لم تصحّ معي ...

... بالفعل كان أسهل عليهما ، وهما معاً ، أن تمضيا الوقت في القيام بشؤون البيت وإدارة الحديث . كانت الأيام تتوالى طويلة ، وكانت العجوزان تتمكنان من عمل كل ما يجب عمله ثم كانتا تتمددان بعد الغداء للراحة بعد أن أخذ التعب منهما كل مأخذ ، لكنهما لم تكونا تغفوان بل كانتا تتجاذبان أطراف الحديث رقوداً . وكانتا تتحدثان بعد أن تنهضا في انتظار تنظيفات المساء ثم بعد التنظيفات . وهكذا كان الوقت يمر ، وهكذا كانت أيام الصيف الطويلة تنسل من جانب إلى جانب

دون أن تشعرا بها . إلى هذه الأحاديث كانت تأتي سيما وذنبُها الذي لا ينفصل عنها – كولكا ، وكان يحضر بوغودول وهو يتف ويشتم ، ويتحين هو أيضاً الفرصة ليحشر نفسه بكلمة ، وكانت تأتي تونغوسكا الثقيلة السمع وغليونها بين اسنانها تكاد لا تخرجه منها وبالتالي كانت تكاد لا تشارك بكلمة . وكان يأتي إلى تناول الشاي والحديث آخرون ممن بقوا في متيورا ... كانوا يذكرون القديم ويعجبون للجديد ويجمعون معاً بين هذا ذاك ، بين الحياة والموت ... لا ، لم يسبق لهم أبداً أن تحدثوا سابقاً مثل هذه الأحاديث الطويلة .

وبقي لديهم قليل مما لم يتكلموا فيه ويشبعوه كلاماً ، وبقي لديهم القليل مما فهموه في هذه الحياة رغم الحياة الطويلة التي عاشوها .

وأمامهم ، إذا ما نظرنا إلى الأيام الباقية ، كان المدى يتفتح أفسح وأطلق ، وكانت الريح تسرح وتمرح في الفراغ .

* * *

- ١١ -

لكن الحياة في متيورا تغلبت مرة أخرى وفاضت حين بدأ موسم الحش . لم يكن هناك في الأراضي الجديدة أعلاف بل ان الأراضي الجديدة نفسها لما توجد ، ولهذا تحركوا للمرة الأخيرة باتجاه الأراضي القديمة . اضطر السوفخوز إلى أن يزحف باتجاه الكولخوزات من جديد . نادرٌ من لم يسر بهذه الامكانية السعيدة – أن يقيم ويعيش قليلا قبل النهاية المرتقبة في القرية التي ولد فيها وشب ، فلكل واحد منهم تقريبا بيت ودواب وحاكورة وأعمال لم تنجز تماماً هناك ، ثم ان الأرض لم تكن تلزم الصمت ، بل كانت تناديهم إليها قبل الموت ليودعوها وتودعهم . قلة ممن لم يكن أعمى أو أصم أو مسترخياً في مكتب أو مشغولا بعمل لا يقبل التأجيل هي التي رفضت الذهاب – ألا ما أشد ارتباط الانسان الذي يملك بيتاً ووطناً ، آه ما أشد ارتباطه !

عاد نصف القرية إلى متيورا ، وبعثت في متيورا من جديد الحياة ، التي وإن لم تكن حياتها السابقة الجارية في مجراها المعلوم، إلا أنها تشبه حياتها السابقة ، كأنما هذه الحياة لم تعد إلا لتشاهد وتتذكر كيف كان هذا كله . حمحمت من جديد الخيول المُساقة من بودموغا ، وعلت في الصباح أصوات العاملين متقاطعة ، ورنت ودوت عدة الحصاد . بحثوا عن دكان الحدادة وحموها ليسووا أدوات الجر بالحصان وأخرجوا الحاصدات – ونهض الجد مكسيم من سريره وأخرج من تحت متاعه

العتيق مطرقة وشد إليها الأنشوطة كي لاتطير فيما لو أفلتت من يده الهزيلة.
لزم الأمر فهاكم : حضرت الحاصدات كالسابق وتبين أن الجد مكسيم حي يرزق . وجاؤوا إليه أيضاً بالمجارف والمعازق والمناجل والمذاري فكان يجدد فيها ، يرص ، يشحذ ، يستبدل المسننات القديمة بمسننات جديدة . وكأنما تنشط الجد وتهلل وهو يقوم بعمله مع أنه كان يحتضر فصار يلوح بيديه ويصرخ ويأمر وينهي ، وكانوا يذعنون له بابتسامة ورضا — هكذا كان يصرخ فيهم قبل عشرين سنة أو يزيد ، وهكذا كان بافل ، رئيس الفريق آنذاك والطامح إلى رئاسته حالياً ، يعين لكل عمله ، فكأن شيئاً لم يتغير . وكما في السابق استغنوا عن الآليات الكبيرة : الجرارات ، السيارات في ذلك الجانب لا تعرف دقيقة راحة ، أما هنا فبقيت سيارة صغيرة عتيقة وماكينتا حصاد تنتظر أجلها في مرمى النفايات خارج القرية . لكن السيارة كانت، وكأنما عمداً وعقاباً لها على أنها وجدت هنا ، رهن الإشارة دائماً — لجلب الكفاس البارد في وقت الحر أو لإيصال امرأة تخلفت مع ماشيتها إلى المرج ، إلا أنهم لم يكونوا ينيطون بها عملا جدياً . ولنزوة ركبتهم أتوا من المركب النهري بعربتين قديمتين وشدوهما إلى أحصنة ، وكانوا يخرجون بهما إلى المروج صباحاً بينما كانت السيارة تدب خلفهما وحيدة لا تجرؤ على استباقهما ، وكانت تبدوا في هذا الموكب أقدم من العربتين وأضعف وأقل ملاءمة . إلا أن هذا كان بالفعل إرضاء لنزوة ، لعباً اشترك فيه الجميع مع هذا واشتركوا فيه عن طيب خاطر .

صحيح ، لا يمكنك الاستغناء عن التقنية فيما بعد ، وستضطر بشكل أو بآخر أن تنقل إلى هنا عبر النهر الجرار بل أكثر من جرار حين

يحين أوان تكديس الأكوام عند الضفة — وهم كانوا بالفعل يعدون لتكويمها على زلاجات الجرار — لكن هذا فيما بعد ، فيما بعد ... أما الآن فكانوا يستعينون كما في السابق بالحاصدات اليدوية ، المجارف التي يجرها الحصان والمكانس ...

وكانوا يعملون بفرح وحماسة لم يشعروا بمثلهما من مدة طويلة . كانوا يلوحون بأدواتهم كأنما كانوا يريدون أن يظهروا أيهم أكثر معرفة بهذا العمل الذي سيكون عليهم أن يتركوه هنا ، مع هذه الأرض إلى الأبد . كانوا بعد أن يشبعوا من التلويح ينطرحون على العشب المقصوص ويروحون ، وقد أثملهم هذا العمل وأثارهم وأغراهم الإحساس بأن هذا كله لن يتكرر أبداً ، يستثيرون الواحد في الآخر الحمية ويشاكسونه بالتذكير بما كان وبما لم يكن . وكانت النساء اللواتي جاوزن سن الشباب واللواتي كن يدركن أنه بعد هذا الصيف فوراً ، لا بل بعد هذا الشهر الذي ردهم بأعجوبة عشر سنوات إلى الوراء ، سيكون عليهن أن يشخن ، يستعدن شبابهن على مرأى من العين . كن يهرجن ويلعبن ويتشاقين كالصغار : ما يكاد يجف عرقهن حتى يلقين بأنفسهن في نهر انغارا وهن يتراعقن ويتصايحن . ومن لم يكن يرغب في القاء نفسه كانوا يلتقطونه ويجرونه بملابسه ؛ الحياء لا يعـود له محـل حين تكـون بين أهلك . وبخفة يد كلافكـا ستريغونوفا كن ينزعن ملابسـهن حتى الصدر العاري ويخطرن بحمية وقرصنة أمام الرجال الذين كانوا الأقل عدداً ، بل كن يلاحقنهم جماعة ليدفعنهم إلى الماء . ويمضين إلى العمل من جديد فيثبن إلى رشدهن : « لقد جنت النساء تماما ، تهافتن على متيورا . وهي ، كما

يبدو ، لا تصدق أننا نحن أبناؤها » . لكنهن كن يعدن بطيبة خاطر إلى جنونهن ثانية في الاستراحة التالية .

كانت العجائز يزحفن من القرية إلى المروج ، ولم يكن بوسعهن حبس دمعتهن وهن يرين إلى الناس كيف يعملون . وكن يقاربنهم بالسؤال :

— ما الذي كان ينقصكم ؟ ما الذي كان يلزمكم ؟ مم كنتم تشكون عندما كنتم تعيشون هكذا ؟ أ ؟ آه ليس هناك من يجلدكم !

وكان الناس يوافقون في شرود ويقولون :

— ليس هناك أحد .

حتى كلافكا ستريغونوفا كانت تلزم الصمت ولا تنبري تناقش .

في المساء كانوا يعودون وهم يرددون الأغاني ، وكان الرجال الذين كانوا يترفعون سابقاً عن الاغنية الصاحية يشاركون في الغناء . وكان الذين بقوا في القرية — أطفالاً أو عجائز أو مجرد زائرين في حال تواجد امثال هؤلاء (في الفترة الأخيرة صارت الحركة أكبر ، وأخذت الزوارق الآلية تطقطق شاقة أنغارا ذهاباً وإياباً) — كان هؤلاء يخرجون لدى سماع الاغنية ويصطفون على طول الشارع . كانوا يأتون إليها ليس من السوفخوز وحده ، بل كان يأتي إليها من المدينة ومن المناطق النائية من عاش هنا في يوم من الأيام ولم ينس متيورا تماماً .

كان هذا عيداً مراً لكنه عيد على أية حال حين كان اثنان لم ير أحدهما الآخر سنوات وسنوات تمكن خلالها أن يضيعه وينساه ، يندفعان بعد أن التقى أحدهما الآخر ولقيه يندفعان الواحد نحو الآخر ويتعانقان وسط الشارع ويهتفان وينتحبان حتى تخور أرجلهما . الأمهات والآباء ، الجدات والأجداد كانوا يأتون معهم بالأطفال ، كما كانوا يدعون حتى الأغراب ليروهم

الأرض التي خرجوا منها والتي لن يتيسر بعد الآن أن يروها ولا أن يعثروا لها على أثر . بدا وكأن نصف المعمورة يعرف بمصير متيورا . ظهرت خارج البلدة من المنطقة العليا حيث الأرض مرتفعة خيم مختلفة الألوان ، وفي الجزيرة أخذ الناس يسرحون ويمرحون : من يتمشى في المقبرة ،ومن يجلس على الضفة يرنو بطرف حزين إلى مكان ما بعيد، ومن يقطف في المروج بين الغابات أول ثمرة حمراء . ولم يكن من اليسير القول إن كان هؤلاء من أهل متيورا أو من الأغراب .

كان الحصادون يعودون من العمل بخطى وئيدة ، متعبة ورزينة ، في المقدمة الجياد المشدودة إلى العربات تومىء برؤوسها في انسجام كأنها تنحني لدى دخولها القرية وفي العربة شخصان أو ثلاثة وبعض الخيالة على الجانبين ، أما الباقون فيسيرون خلف العربات رافعين أصواتهم بالغناء . والاغنيات متنوعة،حينا قديمة وحينا جديدة ، لكنها على الأغلب مع هذا قديمة_ أغاني وداع وذكرى ، وكان الناس، كما تبين ، يذكرونها ويعرفونها وكأنما حفظوها في قلوبهم وصدورهم لساعة كهذه ... من كان يغني كان الأمر أخف عليه ، أما الآخرون الذين كانوا يستمعون إلى الماضين بالأغنية كأنها تعويذة رتيبة ويائسة فكانوا يشعرون بألم ووجع يترف معهما القلب دما .

كان تموز قد دب إلى نصفه الثاني ، وكان الطقس صاحياً جافاً أنسب ما يكون للحصاد . كانوا يحصدون في مرج وفي مرج آخر يجرفون ، وفي أحيان كثيرة كانت المناجل ترن،والمجارف ذات الاسنان الكبيرة المعقوفة التي تجرها الخيول تنط وتقرقع في مكانين جد متقاربين . كان الحشيش المحصود يجف في الشمس والهواء خلال يوم . كانت

النساء يعملن بالمقاطف قبل الغداء فيحصدن في الأماكن الرطبة غير المستوية التي لا تصلح للدواليب ، وبعد الغداء يلجأن إلى المجارف . وكان الرجال يعملون المذاري ليكوموا الحشائش ؛ وكانت المذاري تسبح خلف ظهورهم كأنها شيء حي مستقل يتحرك على قدميه برأس قبيح مرتد إلى الخلف ، وفي آخـر النهار كانوا يختنقون مـن العمل ومن الشمس ، وأكثر من هذا كله من تلك الروائح الحادة واللزجة والثقيلة المنبعثة من الحشائش المتجففة . وكانت هذه الروائح تبلغ القرية ؛ وهناك كان الناس يملؤون صدورهم منها بلذة : آه ، يا للرائحة ! يا للرائحة ! أين ، في أي مكان آخر يمكن أن تكون مثل هذه الرائحة ؟ !

وأخذوا يتلفتون حولهم بتوجس وخيفة : بسرعة ، بسرعة يتقدم العمل ، وعلى هذا فالعودة قريبة ولما يمكثوا في متيورا قدر ما تشتهي النفس . لو يسقط المطر ليتمهلوا ، ليتكاسلوا وليبقوا فترة أطول . أخذ الرجال يفككون دواليب الجرارات . وبالفعل النهاية لاحت ففيم العجلة ؟ في أثناء الحصاد لا وقت لديهم ليجلسوا إلى متيورا يودعونها ، وليروا المكان الذي عاشوا فيه حياتهم كلها وما كانوا يملكون وما يفقدون . كانوا يخرجون صباحاً فيأخذ العمل مجراه ويشتد من تلقاء نفسه ولم تكن هناك قوة بشرية لإيقافه ، بل على العكس كانوا يغذون في العمل ساخطين على أنفسهم إن لم نقل أكثر من هذا — لا فالعمل الذي يمكن إيقافه ليس بعمل ، والعاملون هنا لم يكونوا ممن أدركهم الفساد والدلال .

وفي المساء كانوا يخرجون إلى الطريق قبل أن ينطرحوا في سريرهم ويجتمعون معاً — المرج ليس المرج والسَّمَر لم يعد ذاك السمر — ومع

هذا فهم معاً يجتمعون ناسين تعبهم وذاكرين في الوقت نفسه أنه لم تبق أمامهم أماس كثيرة مثل هذه . كانت متيورا تتجمد في هذه الساعات واجفة القلب من مصيرها : كانت لجة السماء تمعن في الارتفاع والماء تحت الضفة القريبة يخرخر ببرود . كان النهار ينطفىء ، وكانت الحياة تنطفىء شاكرة : كانت الاصوات والألوان تندغم في اهتزاز هادىء ناعس يشتد حيناً ويهن حيناً آخر ، وكانت المشاعر الانسانية تتجاوب معه وتأتلف في تيار واحد غير مستقر لاينبىء بشيء. كان يبدو أن البيوت في القرية تزداد التصاقاً وتصدر وهي تتمايل صوتاً داخلياً واحداً مع صوت الريح ؛ كان يبدو أنه كانت تنتشر من مكان ما رائحة الأدخنة المتطايرة منذ زمن بعيد ، وكان يبدو أن كل ما كان في الجزيرة مما صنعته يد الانسان أو وُجد بنفسه ، يطل قريباً ، ويقف الواحد منه وراء الآخر يسترق النظر ويسأل بهمس واحد عن شيء ما . أما ما الذي كان يُسأل عنه فلم يكن بالإمكان سماعه أو فهمه ، لكن كان يتهيأ أنه يجب إعطاء جواب على هذا الشيء غير المفهوم وغير المسموع .

كانوا يتكلمون قليلا وبصوت خافت كأنهم كانوا بالفعل يحاولون إجابة شخص ما . لم يكونوا يفكرون في حياتهم التي عاشوها ولم يكونوا يتوجسون مما هو آت ؛ فهذه الحالة من الغيبوبة هي التي كانت تبدو لهم المهمة الآن ، وفيها وحدها كانوا يريدون أن يبقوا . لكن كان بتروخا يظهر ، كالشيطان في قداس ، بهر مونيكاه المقيتة التي استخلصها، ويا للأسف ، من النار ويأخذ يعزف عليها : « انت بودغورنا ، انت بودغورنا ... » فيفسد الأمزجة ، فما يكون أمامهم إلا أن ينهضوا ، إلا أن يتذكروا ما ينتظرهم في الغد ويمضوا إلى سريرهم .

بعد اسبوعي غياب عاد بترّوخا إلى متيورا بادي السرور يلبس بزة جديدة بيضاء وإن كانت ملوثة ومدعوكة إلى حد كبير ، ذات خيوط حمر ويرتدي كبية جلدية ذات طوق بني ، وكان في زيه هذا يشبه إلى حد كبير قاطع طريق .

صاحت داريا أول ما رأته :

— إي ... من أين زحفت إلينا هذه البقرة ؟

— عفواً تحرك ، — قال بترّوخا في استياء ، ولم يكن استياؤه من « البقرة » بل من « زحفت » . أنا لا أزحف ، أنا لو أردت أن تعرفي على الطائرات أطير .

هذه العبارة « عفواً تحرك » كان التقطها في مكان ما خلال اسفاره الأخيرة ، ولقد راقت له وبدت له جميلة وموفقة بحيث لم يعد يتصور حديثاً له يخلو منها . وعند عودته حمل معه إلى أمه من المال الكثير الذي قبضه بدل البيت المحروق خمسة عشر روبلا ، وحين حاولت هذه أن تفتح فمها بأن هذا قليل أجابها :

— عفواً تحركي ، وأنا كيف أعيش ؟ يجب أن أذهب وأرتب شؤون إقامتي الدائمة . من يأخذني هكذا مجاناً ؟ انت التي لست بحاجة إلى نقود .

لكنه عاد فرق قلبه وعد لها عشرة أخرى من الأوراق المدعوكة حتى التمزق .

— وهل صرفت كثيراً منها ؟— سألته كاترينا لدى رؤيتها هذه الأوراق الخفيفة المصرورة في ألف صف التي كانت كأنما تجري دائماً بين أيدي أمثال بترّوخا ولا تقع في أيد طيبة .

ـ هذا شأني . أنا لا اتدخل في حياتك الخاصة ، فلا تتدخلي انت أيضاً في حياتي . عندما استقر سأسجلك هناك ونعيش معاً ، وحتى ذلك الوقت عفوا تحركي .

أمضى يومين في متيورا دون أن يجد ما يشربه ، فغاص في البلدة الجديدة وسبح هناك ثلاثة أيام دون أن يخلع بزته السريعة التلوث غاب خلالها لونها الأبيض في العمق واختفى خيطها الأحمر تماماً . والآن ظهر من جديد في متيورا ، وأخذ يبيت حيثما اتفق له بل انه بات أحياناً في كوخ بوغودول الكولتشاكوفي الأمر الذي كان يعتبر دليلا على أقصى ألوان التشرد والانحلال ، لكنه ظل يتظاهر بالعنجهية موهماً نفسه أنه في إجازة أصولية ،وانه سيأتي أحدهم في زورق سريع في طلبه وأخذه بوصفه انساناً لا يستغنى عنه ؛ وربط إلى هرمونيكاه القعيدة حبلا ليحملها على كتفه « وينقر » عليها ، على حد تعبير بتروخا نفسه ، ليل نهار . بل إنه جر نفسه وجرها معه إلى المرج مرة ، وسوى لنفسه مكاناً تحت شجرة بتولا وأخذ يقطع عليها ، لكن العاملين المعروقين ، المرحين والشريرين ،طردوه بحيث أخلى ، وهو السليط اللسان ، المكان دون أن يتفوه بكلمة شتيمة .

لكن بعد طقس جميل طويل وثابت تمكنت سماء أخرى أن تزحف ليلاً لتحل مكان الأولى ، وتساقط المطر ....

* * *

- ١٢ -

في أول يوم بدأ فيه المطر يرش منه السماوي الصالح للحقول والحواكير نزل فجأة ببيت داريا ضيف – وصـل أندريه الأبن الأصغر لبافل . كان من نصيب بافل كأب أن يبقى دون بنات . امرأته سونيا ولدت أربع مرات وكانوا جميعهم صبية . لكن أحدهم ما أن فتح عينيه لم يحتمل هـذه الدنيا ومات . وهكذا بقي لديـه ثلاثة . بكره تزوج فتاة غير روسية وذهب إلى موطنها في جبال القفقاس يستطلع فبقي هناك وقد أغرته العيشة الدافئة ، والأوسط وهو أقبلهم للعلم كان يدرس الجيولوجيا في اركوتسك وكان من المفروض أن ينهي تعليمه في ذلك العام ، أما أندريه فسرح الخريف الماضي من الخدمة في الجيش وزار متيورا ومكث فيها اسبوعاً ونصف الاسبوع ودهش لكل هـذه الجلبة المتنامية والمرتبطة بالانتقال وغادرها إلى المدينة وتدبر له عملاً في مصنع . والآن تبين أنه سرح من المعمل ويقصد مكاناً آخر ، وفي طريقه عرج على البيت . أمضى أندريه يومين عند أمه في السوفخوز (كانت سونيا تعمل في المحاسبة وبقيت في البلدة) ثم ركب النهر بعدها إلى أبيه وجدته . كان بافل قد حصل شيئاً فشيئاً على بغيته ، وها هو الآن يعمل في الحصاد في متيورا ، ويقيم بتشكل دائم هنا . لكنه كان يطل بين الحين والحين على السوفخوز كما كان يطل من قبل على متيورا .

جاء المطر في وقته : صار بامكانهم أن يجلسوا ويتحدثوا دون عجلة ؛ لم يتجرؤوا على أخذ استراحة بأنفسهم فأنزلها الله عليهم . كان أندريه ، الذي يبدو إلى جانب أبيه شاباً معافى لم يعرف المرض ولا أرهق نفسه في العمل ، بل إن خدمته في الجيش كانت ذات نفع واضح له ، يخرج إلى هناك منحني الظهر يتأمل الأرض بنظرة علم رضا ويعود نشيطاً منتصب القامة مرفوع الرأس — اندريه هذا ، فيما كانت جدته تعد المائدة ، كان كمكوك الحائك يروح ويجيء من البيت إلى الفناء ومن الفناء إلى البيت بنفاد صبر ، يطرق عند المدخل طرقاً عالياً بحذائه لينفض عنه ليس الوحل بل الغبار المبلل قليلا الملتصق به ، وكان يتذكر أهل القرية : من هنا ومن هناك ، من انتقل ومن لم ينتقل . وبسبب بطالته كان يشاكس داريا بلطف كواحد من أهل البيت :

— ماذا يا جدة ، هل تخلين قريباً ؟

— أخلي ، أخلي ، — كانت تجيبه بدعة ، باذعان حتى بدون تنهيدة .

— لا رغبة ، على الأرجح ، في المغادرة ؟

— وأي رغبة يمكن أن تكون ؟ لو اننا نحن العجائز بقينا في مكاننا لزحفنا قليلا على مهلنا . لكن انظر ، ينكشوننا فنموت دفعة واحدة الواحد إثر الآخر .

— طريف ، من هذا الذي سيسمح لكم بالموت ؟

— هذا لا نطلب فيه إذناً من أحد . نموت من تلقاء انفسنا ، — قالت داريا وقد بدأ الغيظ ينتابها على غير قصد منها ولا وعي . — لم يفطنوا حتى

الآن إلى تعيين مسؤولين لإعطاء أوامر في هذا الشأن . وهكذا يموت الناس كيفما اتفق لأنه لا ترتيبات في هذا الأمر .

— لا تزعلي يا جدتي . هل زعلت حقاً ؟ أنا أتكلم لمجرد الكلام .

— ولماذا أزعل منك ؟

— ممن أنت زعلانة إذاً ؟

— لست زعلانه من أحد ، من نفسي أنا زعلانة . هذا انت يجب أن تزعل مني لأني أنا هنا جمرت لك مكاناً بالقراص لتجلس فيه ، لكني ، على ما يبدو ، جمرته بشكل سيء بحيث لم تحتمل فعدوت هارباً ...

وكأن أندريه يضحك :

— مادام الواحد منا شاباً ، عليه يا جدة أن يشاهد كل شيء ، أن يزور كل الأماكن . ما الجيد في أنك عشت حياتك كلها هنا لم تبرحي مكانك ؟ يجب ألا نستسلم للقدر بل أن نتحكم فيه .

— تحكم ، تحكم ... بودي أن أرى إلى أي مدى ستتحكم . لا يا شاب ، لا يمكنك أن ترى العالم كله حتى لو طرت بأجنحة . ولا تأمل في هذا . تظن أنك إن وُلدْت انساناً ، بامكانك أن تصنع كل ما تريد ؟ آه يا أندريه ، لا تظنن هذا . عش تر وتفهم ...

— إي ، إي يا جدة ، أنا لا اتفق معك هنا . هذا عندك من متيورا لأنك لم تضعي انفك خارج متيورا ، لأنك لم تري شيئاً . الانسان يستطيع أشياء وأشياء حتى إنه لا يستطيع أن يقول كم عددها . بين يديه الآن من القوة أويْ ، أويْ ، بحيث يستطيع أن يصنع ما يشاء .

– بلى ، يصنع ، يصنع ... – قالت داريا موافقة .

– إذاً لماذا تتكلمين هكذا ؟

– هكذا ، يصنع ، يصنع ... ثم يجيء الموت فيموت . انت يا اندروشكا لا تناقش . أنا رأيت القليل لكني عشت الكثير . ما تهيأ لي أن أراه عاينته طويلا طويلا ولم أمر به سريعاً كما تفعل أنت . طالما كانت متيورا قائمة لم يكن عندي ما اتعجل إليه . تفحصت الناس وتأملتهم ورأيت أنهم صغار . مهما تظاهروا يظلون صغاراً ، يستحقون الشفقة . وإذا كنت لا تشفق على نفسك فلأنك شاب ، وبحكم شبابك القوة فيك فوارة ، تظن أنك قوي تستطيع كل شيء . لا يا شاب أنا لا أعرف حتى الآن انساناً لا يستحق الشفقة،ولو كان أذكى من سليمان. عن بعد يبدو لك أنه لا يخاف شيئاً ، انه يستطيع أن يغلب ابليس نفسه ... يبدي العجرفة والعظمة ، لكن تأمله عن قرب تر أنه انسان كباقي الناس لا يفضلهم في شيء . أتريد أن تخرج من جلدك ؟ لا ، يا اندروشكا لن تخرج . لم يحدث شيء كهذا أبداً ، لن تفعل سوى أن تضني روحك وتعذبها عبثاً ، ولن تقوم بما يجب أن تقوم به . وفي حين تحاول أن تقفز وتتعجرف يأتيك الموت ، لن يتركك . دعني أقول لك : الناس نسوا مكانهم تحت عرش الله . نحن لسنا أفضل ممن سبقنا ... ضع في العربة قدر ما يستطيع البغل أن يجر وإلا لن تجد ما تتقل عليه . الله لم ينس مكاننا ، لا لم ينسه . إنه يرى . لقد تكبر الانسان ، تكبر . تكبر فهذا أسوأ لك . ذاك الممسوس الذي قطع الغصن الذي يحط عليه كان هو أيضاً يظن في نفسه الكثير الكثير . لكنه سقط ومزق كبده . على الأرض مزقه وليس على السماء . لا مفر لنا من الأرض . مالي أداري :

لقد اعطيتم قوة كبيرة الآن .. آه كبيرة كبيرة ! من هنا من متيورا يمكن رؤيتها . وخوفي أن تطحنكم هذه القوة . إنها لكبيرة وأنتم كما كنتم صغاراً بقيتم صغاراً .

جلسوا إلى المائدة طويلا : شرب الأب وابنه قنينة فودكا كان اندريه قد جلبها معه ولم يثملا إطلاقاً ، إنما ازداد وجه اندريه شباباً ووجه بافل شيخوخة . كانت داريا تنظر إليهما يجلسان متجاورين قبالتها وتقول في نفسها : « هاكم ، خيط واحد ذو عقد . كم سنة يا ترى كان بين العقدة والعقدة ، واين هي ؟ عقدتي عما قريب يحلونها ويسوونها ويجعلونها نهاية مستوية كي لا يروا ... كي يعقدوا عقدة أخرى في الطرف الآخر . إلى أين ، وإلى أين جهة سيمدون الخيط ؟ ماذا سيكون ؟ كم بودي لو أعرف ما سيكون ؟ » .

اشتد سقوط المطر في الخارج وظهرت على النوافذ خيوط من الماء . اكفهرت الأرض وتساقطت من الأسطح قطرات ضخمة كحبال الجليد وتوقف انغارا في النافذة وهو يرغي . وفاحت رائحة السماور على المائدة أقوى وألطف ، وبدا الشاي الذي كانوا ثلاثتهم يرشفونه الآن أعطر ، والحديث العائلي الذي كانوا يتحدثونه أنسب وأهم .

— هل كنت تكسب قليلا ؟ — سأل بافل مستفسراً اندريه عما دعاه إلى طلب تسريحه من المصنع .

— كنت أكسب ... بما كان يكفيني وحدي ، — أجاب اندريه وهو يهز كتفيه . كان يحاول أن يتحدث مع والده حديث الند للند ، لكنه لعدم تعوده بعد على المساواة بينه وبين والده كان يرتبك ويخرج عن اللهجة المطلوبة فكان يرفع صوته تارة ويخفضه تارة . — كان

يكفيني وحدي بالطبع . لكن الموضوع ليس هنا . ليس في المصنع شيء ممتع ، مثير . وهناك عمليات البناء تملأ الدنيا . تفتح الراديو صباحاً — لا يمر صباح دون أن يتكلموا عنها . يذيعون خصيصاً لأجلها النشرة الجوية والحفلات الموسيقية . أما المصنع فمثله كثير ، في كل مدينة مصانع .

— لا يذيعون النشرة الجوية للمصنع قلتَ ؟

— كنت أعرف أنك ستقول لي هذا ، — قال اندريه مستدركا ، — لا حاجة للمصنع بالنشرة الجوية ، هذه للمدينة . لكن الموضوع ليس هنا . المصنع لن يهرب أما ورشات البناء والإعمار فتنتهي ثم تشعر بالأسف . أشعر برغبة في المشاركة في البناء ما دمت شاباً ... كي يكون لي ، يعني ، ما أتذكره فيما بعد ...

قطب أندريه وقد بقي غير راضٍ عن جوابه : لقد قلب جوابه ، لاكه ، مضغه كي لا يقول كلمات عالية ملوية كان يعرف أن أباه لا يحبها . وكان بافل لزم صمت من ينتظر شيئاً ، وبسبب هذا الصمت المبهم كأنه المتخفي بدأ أندريه يحتد .

— نحن الآن في وقت لا يمكنك فيه أن تقبع في مكان واحد ، — لم تكن تدري إن كان اندريه يبرهن أم يبرر . — انت مثلا بودك أن تجلس ومع هذا ينهضونك ويجعلونك تتحرك . الآن زمن حي بشكل ، كل شيء في حركة كما يقال . أريد لعملي أن يظهر ، أن يبقى إلى الأبد ، فماذا في المصنع ؟ تجلس في أرضه اسبوعاً لا تغادره ... وانت على آلـــة تلف وتدور كالنملة من مكان إلى آخر ، من خط انتاج إلى آخر وتنقل قطع حديد . هذا عمل يقوم به أي عجوز . المصنع

إنه للكهول ، لأصحاب العيال كي يحالوا من هناك على المعاش . أنا يطيب لي حيث الشباب مثلي ، حيث كل شيء مختلف ، جديد . المحطة الكهرمائية ... تظل قائمة ألف سنة بعد أن ينتهوا منها .

— تأخرت قليلا مع هذا ، — قال بافل وهو يهز رأسه في شرود ، — المحطة الكهرمائية انتهوا منها بدونك مع هذا ، مادام الغمر سيبدأ بين يوم وآخر .

— لا ، لازال هناك الكثير الكثير من العمل ، بما يكفيني ويزيد . الآن يبدأ هناك أمتع الأعمال .

أرهفت داريا السمع في توجس .

— اسمع ، انت إذاً تتطلع إلى هناك حيث يحجزون الانغارا ؟ — لم تفهم داريا إلا الآن .

— إلى هناك يا جدة .

— لا ، هذه ... — بدأت داريا ولم تكمل ، فقد اذهلتها المفاجأة عما تريد قوله ، فبقيت تجحظ أندريه في عدم فهم كامل .

— وماذا يا جدة ؟

— ألم تستطع أن تجد لك مكاناً آخر .

— مالي ولمكان آخر . أريد الذهاب إلى هناك . متيورا سيغمرونها على أي حال يا جدة — بوجودي أو بدون وجودي سيغمرونها . أنا لا علاقة لي بهذا الأمر . الكهرباء ، يا جدة ، الكهرباء هي المطلوب ، — قال أندريه وهو يثبت رأسه على رقبته القوية يصطنع صوت من يشرح لفتاة صغيرة . — متيورانا ستستخدم للكهرباء ، هي أيضاً ستنفع الناس .

— كنت أظن أنها ، المسكينة ، كانت قائمة هنا للضرر ، — أجابت

داريا بصوت خفيض ولنفسها ، دون رغبة منها في نقاش حسم منذ فترة طويلة بدونهم ، وصمتت ، انغلقت على نفسها تستمع ، وتستمع دون اهتمام خاص إلى ما يقولان وتراقب كيف تتغير الوجـــوه أثناء الحديث وكيف يجدان بجهد أو بدون جهد الكلمات وبأي لهجة تقال . لكن ما عرفته لم يوفر لها طمأنينة فقالت ، وقد نسيت نفسها ، كأنما لا لتسأل بل لتؤكد لنفسها من جديد — فما سمعته لم يكن رأسها بقادر على استيعابه : — هذا انت إذن الذي سيفتح علينا الماء ؟ لا ، لا ، انظروا ما يحدث !

— لماذا أنا ؟ — قال اندريه ضاحكاً . — هناك كل شيء جاهز بدوني كي يطلقوا الماء . أنت يا جدة لا تخطئي في حقي عبثاً .

— لو أنك لا تذهب إلى هناك ...

— وماذا ، — تلقف بافل كلمات أمه بحذر . — لو تبقى هنا ! نحن بحاجة إلى سائقين ، تستلم سيارة جديدة ، عندنا هنا عمل يكفي مصنعك كله .

قال هذا وضحك ضحكة خافتة دون أمل ، وأطرق ببصره إلى الأرض : ما كان يجدر به أن يعرض عليه ، فهو لن يبقى . وبالفعل صمت أندريه كأنما ليفكر ثم هز رأسه :

— هل تركت المدينة لأعود إليكم ؟ لا ، لا .

كان يمكن لكلامه أن يثير الاستياء : فأي حق أعطاه لنفسه ليتكلم على هذا النحو عن مسقط رأسه ، وهو الذي ولد هنا وشب وأصبح رجلا . لكن بافل لم يبد استياء ، وكأنما بدأ هذا الحديث عمداً ليسمع ما عند ابنه من جواب ، وما الذي اكتسبه في هذه السنوات الأخيرة من

حياته المستقلة غير المرتبطة بالبيت، وما الهواء الذي يتنفسه ، وما القواعد التي يهتدي بها . ومهما يكن الجواب الذي سيلقاه الآن من أندريه ، يجب تقبله بهدوء وتفهم . ولماذا لا يبحث بالفعل في كلماته عن معنى معقول ــ فهو شئت أم أبيت بالغ راشد ، وانسان غير سيء على ما يبدو ، وهو الذي سيخلفه قريباً على هذه الأرض ، لا الأصح القول في هذه الدنيا . لقد ابتعد عن الأرض ، ولن يعود إليها أبداً على الأرجح . وإذا كان بافل استمر في الحديث فليس من أجل إقناع ابنه ، بل لمعرفة أجوبته .

ــ عبثاً تقول هذا . الوضع عندنا ليس بهذا السوء . إنها ليست تلك القرية القديمة التي نجلس فيها أنا وأنت الآن . ــ هنا اختلس بافل نظرة إلى أمه خشية أن يزعلها عن غير قصد ؛ فهو نفسه لم يكن يشعر بمحبة خاصة لتلك البلدة السوفخوزية ، لكن الحقيقة تظل حقيقة . ــ سيكون كل شيء عندنا هناك كما في المدينة ؛ زد على ذلك ان عملا كبيراً يجري هناك . لقد كنت هناك ورأيت ما يجري .

ــ رأيت . شيء عظيم بالطبع . ومع هذا ليس هناك ما يمتع ويثير .

ــ وما نوع الإثارة التي تلزمك ؟

ــ لقد قلت لك .. ، ــ قطب أندريه حاجبيه قليلا لعدم رغبته في تكرار ما لم ينتظم ويستقر في رأســه تماماً إنما كان يدير له رأسه وبالتالي يصعب التعبير عنه بشكل محدد . ــ فيما بعد تصبح لي اسرة ، ووقتها ربما أعود إلى هنا . أما الآن فما دمت شاباً ، عازباً فعندي الرغبــة في الذهاب إلى هناك ، إلى الخطوط الأمامية كما يقال ... كي لا أتخلف . الشبيبة كلها هناك .

— أهي حرب يا ترى ، الخطوط الأمامية ؟ — لم يدع بافل هذه العبارة تمر دون تعليق .

— أمامية ، غير أمامية ... لا أعرف كيف أقول ، لكن هذا ما يقال. حيث المكان الأحمى فهناك البناء الألزم . الآن كل الاهتمام منصب على « هناك » . انظر من أي مسافات يأتي الناس ليشاركوا وأنا الساكن بالجوار لا أبدي اهتماما . أكاد أقول إن هذا لمحرج ... كأني أختبىء . فيما بعد ربما ندمت طول عمري . لكن هذه المحطة الكهرمائية لابد أن تكون ضرورية تماماً ما داموا يكتبون عنها كل هذه الكتابات . اهتمام مثل هذا وأنا ... فيم أنا أسوأ من الآخرين ؟

— ينتهون منها فيتوقف اهتمامهم ، فماذا ؟ سنبحث عن مكان آخر يكون موضع الاهتمام ؟ ستتعود ان تكون محط الأنظار ، سيفسدك التدليل وسيبدو لك ان الشمس وحدها قليلة . هل تظن أنْ سيستمر طويلا موضع الاهتمام هناك ؟

— سيتضح الأمر هناك ، — وإذ شعر أن هذا قليل لإجابة شافية أردف بسرعة وثقة أكبر ، وبنبرة جديدة عليه ،حزينة وكأنما برمة :
— كيف لا تفهمان ؟ ... جدتي لا تفهم ، —معذورة ، إنها عجوز ، أما أنت ؟ — تلجلج اندريه قليلا إذ لما يعزم على مناداته بـ « أبي » ، لكنه رفض في الوقت نفسه العودة إلى مناداته بالاسم السابق الذي بدا له طفلياً الآن « بابا » — أما انت فلماذا لا تفهمني ؟ انت نفسك تعمل على السيارات وتعرف أن الوقت الآن وقت آخر . الآن يستحيل إدارة أي منشأة مشيا على القدمين كما يقال . لن تمضي الأمور بعيداً . ترى هل علينا أن ندب دبيب متيورا ... وهل في متيورا هذه نفع كبير ؟ ها هم

يبنون محطة كهرمائية ... لابد أنهم فكروا ملياً في الأمر ولم يقدموا عليه هكذا جزافاً . إذن هذا ضروري بالحاح الآن ، الآن باللذات وليس البارحة أو ما قبل البارحة . إذن هذا هو أضر شيء ، وأنا أريد أن أذهب إلى هناك حيث الأضر . لا أدري لماذا لا تفكرون إلا في انفسكم ، وتفكرون فيها إلى هذا بذاكرتكم أكثر ، لقد تجمع لديكم قدر عظيم من الذاكرة ، أما هناك فيفكرون في الجميع دفعة واحدة . إنكم تأسفون على متيورا وأنا أيضاً آسف عليها فهي بلدتنا ، مسقط رأسنا . هذا طبيعي ولا يمكن أن يكــون غير هــذا . ومع ذلك فانها في حالتها الراهنة ما كانت لتصمد طويلا وهي ما هي عليه من قدم . كان لابد لها من أن تعيد بناء نفسها وتنتقل إلى حياة جديدة . حتّى البشر لا يعيشون أكثر من مائة سنة ، هناك دائماً آخرون يولدون . كيف لا تفهمون هذا ؟

نظر بافل إلى ابنه باهتمام ودهشة كأنما أدرك الآن فقط بشكل حقيقي أن أمامه بالفعل انساناً بالغاً وعاقلا تماماً ، لكنه انسان ليس من جيله هو بل من الجيل التالي .

— لماذا لا نفهم ، — أجابه بعد لأي بشرود . — نفهم وإن كان ما نفهمه قليل . أنا لا أكلمك عن ضرورة المحطة الكهرمائية أو عدم ضرورتها . أنا أقول لك إنه لابد أن يعمل أناس هنا .

— اعملوا . العمل أيضاً كأنما هو بحسب الأعمار . حيث البناء الجديد ، حيث العمل أصعب فهناك الشباب . وحيث العمل عادي أكثر ، سهل أكثر هناك آخرون . لا مجال هنا للمقارنة ، هناك أو هنا ، فالظروف مختلفة . إنما يذهب الناس إلى هناك ليقوموا معاً بعمل واحد

كبير ، وهذا العمل بالنسبة إليهم هو الأهم ، ويعيشون هناك من أجل هذا العمل فقط ، أما أنتم هنا كأننا على العكس ، تعملون من أجل العيش فقط . تقول اهتمام ، الاهتمام يتأتى من الأهمية والضرورة ، وليس لوجود خصوصية فيه . في رأيي أن هذا ما كان دائماً . انت أيضاً إذا كان يلزمك أن تقوم بعمل له أهمية قصوى بالنسبة إليك ، فلن تدعه يغيب عن اهتمامك ، وسوف تفكر فيه شئت أم أبيت إلى أن تنجزه . أما هناك فذاك على مستوى البلد كله ، ربما توقفت أمور كثيرة أخرى على هذا البناء . البناء هو موضع الاهتمام أما الناس فيعملون وحسب ليس من أجل الشهرة بل من أجل القضية . ولعلهم يعملون هناك أفضل مما يعملون في أي مكان آخر . — وهذا هو المطلوب ..

— هنا ، أيها الفتى ، هو وجه السؤ — أن نطالب بعمل أجود في مكان بينما نعتقد أنه يمكننا العمل كيفما كان في مكان آخر .

— هذا سيء طبعاً ، — قال أندريه دون تردد وهو يهز رأسه ، ومفكراً في الوقت نفسه فيما سيرد به على والده . — تذكر كيف كانت الحال قبل ثلاثين أو عشرين سنة مثلاً وكيف هي الآن . كم بنوا وكم أوجدوا أشياء ! لابد أن أحدهم تساءل في يوم ما : علام المجيء إلى قريتنا متيورا ؟ هل كانت الأرض بدونها غير كافية ؟ لكن أتى أحدهم وبقي وتبين أن الأرض بدونها لا تكفي فعلا . ومضى الابن أبعد من أبيه . هذا هو قانون الحياة ولا يمكن ايقافه ، والشباب أيضاً لا يمكن ايقافهم ، لهذا هم شباب . الكهول يبقون في الأماكن المعمورة ، يبقون ليعمروها أكثر ، أما الشباب فهكذا ركبوا ، كيما يسعوا إلى الجديد على الأرجح . واضح أنهم أول من يمضي إلى حيث الأصعب ...

ـ ولماذا تظن أن الأمور هنا أسهل ؟

تدخلت داريا تقول وهي لا تخاطب أحداً بالذات ولا تنظر إليه :

ـ في القديم كانوا يقولون ... الأم إذا كانت تدلل طفلاً وتقسو على آخر فهي أم سيئة .

ـ هل تتكلمين يا جدة ؟ ـ همهم أندريه بمرح وبهجة لأنها تدخلت وقطعت هذا الحديث غير المنسق وغير الصريح والمعيب إلى حد ما بين الأب وابنه ـ كأنما كانا يتحدثان عن النساء .

ـ لا أتكلم عن شيء ، ـ رفضت داريا الإجابة ، وهي تزم شفتيها الرقيقتين ، الحادتين .

ـ انظروا كيف ينهمر المطر ، ـ قال أندريه يقطع الصمت حوله وهو يتطلع من النافذة ؛ فقد بدا له أن عليه هو بالذات أن يقول شيئاً ليزيل الحرج وسوء الفهم .

أخذوا ينظرون إلى المطر كيف يرتطم بالأرض وكيف يتجمع بركاً في المنخفضات الصلبة ، وكيف أخذ يسيل الآن من سطوح العنابر لا على شكل نقط بل خطوطاً جركة ؛ سمعوا بقبقة مقطرة متقطعة تتردد سكينة لطيفة وشعروا على الفور أن التنفس بات أيسر وأنعش ، وان الهواء المتجدد بالروائح السماوية النظيفة التي حملها الماء ، وبروائح الأرض المتفتحة التي أثارها المطر قد تمكن من الجري والوصول إلى داخل البيت . وايقنوا أنهم أطالوا المكوث على المائدة وعلى الحديث ، وان الحديث لم يفعل سوى أن فرق وباعد بينهم هم الأقرباء ، أقرب الأقرباء وان هذا التطلع الفارغ الذي استمر دقيقة إلى المطر تمكن من التقريب بينهم من جديد . لكن بافل سأل ، وهو ينهض ، ابنه ما كان يجب على الأرجح أن يسأله من فترة طويلة :

ـ متى ستغادر ؟

– حتى الآن أنا باق ، – أجاب أندريه وهو يبتسم ويهز كتفيه مظهراً بذلك أنه لم يتشكل بعد لديه قرار جازم . – إلى أين العجلة ؟

– إذا كنت ستبقى ، لعلك تساعدني في الحش ؟ – اقترح عليه والده على حين غرة . كانت هذه الفكرة قد طرقت رأسه للتو ، وللتو انطلق بها لسانه دون أن يتمكن هو نفسه من إدراك ما إذا كان يجب أن يقولها وما اذا كان هو نفسه مستعداً لما يدعو ابنه إليه .

وافق اندريه بطيب خاطر :

– هيا ، وهل عندي هنا ما أفعله ؟ أساعدك طبعاً .

– حقاً ، – قال بافل مسروراً وأردف بحيوية أكبر وقد حزم أمره :
– سنحش نحن الاثنين للبقرة وسنبقيها شتاء آخر . مادمت هنا لن يطول بنا العمل . وإلا كنا قد تولانا الذعر ، لم نكن نعرف ماذا نفعل . وحدي ... من أين لي ؟ أنا في العمل وأمك هناك . وجدتك أيضاً ليست ممن يمكن الاستعانة بهم . .

– حتى الموت ثلاث خطوات ، – أومأت داريا برأسها .

هذا التذكير الخفيف والعابث بالموت كان قد لازمها بسبب ما كانت تعاني منه بشكل متواصل في الفترة الأخيرة . ثم أردفت ، بعد أن نهضت وانتصبت ، بصوت مخنوق ضارع . :

– والقبور يا بافل . لقد وعدت . متى تكون « فيما بعد » هذه . لو أننا معاً ...

– آه ، – قال بافل متذكراً ، – يجب نقل القبور . إنها تطلب هذا من زمن بعيد .

دهش أندريه لكنه لزم الصمت منتظراً وقد رفع حاجبيه – أجداً يتكلمون ، لكنه وافق بشأن القبور أيضاً .

— ١٣ —

كان المطر يخف حينا فيتحول إلى رذاذ قاتم معلق في الهواء كالمغبرّ ، وينهمر تارة بقوة جديدة يسوط الأرض . ابتل كل شيء حول متيورا حتّى أقصى درجات البلل ، انتفخ ، ثقل ، تشبع بالماء فلم يعد يتشربه ، وأخذ يفيض بالعرض ويعلو ويعلو ... علا الماء حتّى الاعشاب ، وكان الطريق الذي أتلفه سير العربات والآليات فوقه يشبه ساقية اصطفت على ضفتيها البيوت . صار السير متعذرا إلا على طول هذه الصفوف ، أما الانتقال من ضفة إلى أخرى فكان يستلزم بعض التحايل - إقامة معبر . وخيمت طوال بضعة أيام متتالية سكينة نادرة . في الأعلى كانت السماء الثقيلة المنفوخة تجد أحيانا القدرة على التحرك كأنما تزيح جانباً الغيوم السود التي أدت عملها وأمطرت مطرها ، أما في الأسفل فلم يكن هناك حتّى ما يشبه النسمة ، بل كان الهواء الجامد لا يشقه إلا المطر وحده تهدلت الأغصان على الأشجار ، وكانت قطرات كبيرة بيض أشبه بالثلج تنسلخ عنها وتسقط . وانحنت أيضا الأعشاب غير المحصودة مخفية رؤوسها الحادة وممتدة في احديداب متصل كان المطر المتساقط يحدث فيه صوتا يشتد تارة ويخبو تارة أخرى . أخذ نهر انغارا يرتفع بمضي الأيام الثلاثة الأولى . اختنقت غمغمة النهر المرحة في أعلى النهر وفي السلسلة الجبلية وخرست ، وانجرفت الأوساخ والنفايات وانتفخ

الماء المحمول من علٍ بشكل ظاهر وهو يرغي ويزبد . كان النهر يقذف الزبد والرغوة إلى الضفتين ، إلى السكينة المغمورة . لكن الرغوة كانت تتجمع على شكل حلقات بيض ، ثم تتملص من جديد بعد مناورات ماكرة مراوغة لتلحق بالمجرى السريع للتيار وتندفع إلى مكان ما مبديةً بعض ما فيها من قوة .

اوقدوا المواقد اتقاء الرطوبة : كانت الأدخنة ترتفع في الصباح فوق البيوت كما في أيام الشتاء ، وكما في أيام الشتاء كانت تشق طريقها في تآلف ورزانة عبر الهواء الكثيف ؛ نفث بيت نستاسيا أيضاً دخانه وقد انتقلت إليه كاترينا بعد وصول حفيد داريا . بدا أن كاترينا سرت لهذا السبب الذي توفر لها الانتقال إلى هناك كي يُكرم بركنٍ جاف ابنها بتروخا الذي كان يتسكع في القرية كسابق عهده بلا هم ولا غم ، كالهندباء البرية حيث تميل الريح تميل . كان بتروخا قد حضر إلى أندريه حين سمع أن هذا ذاهب إلى المحطة الكهرمائية ومكث عنده طويلاً يستفسر عن ظروف العمل وشروطه : كم يكسب الواحد هناك ، كيف الحياة ، أي « مرقٍ » هناك ، كان يقصد « بالمرق » المنفعة والربح ؟

— أنا تلزمني شقة وليس زريبة ، — كان يقول بسخف وهو يثمن نفسه . — أنا معي أمي ، أريد أن أوفر لها حياة روحية : كفاها ما عانت . الأمر واضح ، إنها شاخت لتكون من الكومسمول* ، وانت تقول الكومسمول هناك ... لكن إذا لزم الأمر فقد تكون ذات نفع كبير ، يمكنها على سبيل المثال أن تحدثهم عن الحياة القديمة المظلمة (كان بتروخا يلفظ كلمة حياة بملء فمه مُجلجلا بها بمتعة ...) .

إنما لم يكن بوسع اندريه أن يقول له شيئاً واضحاً معقولاً عن ورشات

* هي الشبيبة السوفييتية .

البناء ، فهو نفسه لم يكن يعرف عنها إلا ما يقرؤه في الجرائد ويسمعه من أحاديث متقطعة . لكن بتروخا لازمه فجأة فصار يتردد عليه كل يوم ليتحدث معه عما سيكون وكيف سيكون متصوراً نفسه هناك عاملاً مجربا دربا لا غنى لهم عنه ، بينما كان يشيع في القرية ما يوحي بأنه استقر في عمله ، بل انه يكاد يستلم راتبا . وبما ان أهل القرية كانوا يعرفون بتروخا ، فقد كانوا يسألونه وليس بدون لؤم :

— يرسلون الراتب إلى هنا ؟

— وكيف إلى هنا ، مادام لا يوجد عندنا بريد ؟ — كان بتروخا يجيبهم مشدوها من جهلهم الفاضح.— كان يمكن أن يرسلوه لو لم ابعث أبين لهم الوضع وأطلب ابقاء الراتب هناك . وفيما بعد حين ينتهي هذا الطقس الرديء اذهب واستلم الرواتب دفعة واحدة .

— ألن يحسموا منك ضرائب يا ترى إذا كنت لم تعمل ؟

— لماذا ؟؟ —كان بتروخا نصير العدالة التامة.. وحيث لا أطفال عندي فأنا نفسي سأحول إلى الميتم ما يتوجب مادام هذا هو المفروض . تقول إني لم أعمل ، وماذا في الأمر إن لم أعمل ؟ إنهم يدفعون لي رغم هذا كي لا أتركهم إلى مؤسسة انتاجية أخرى . إنهم يريدون الاحتفاظ بي ؛ وبحسب القانون لا يعود بوسعي أن انتقل إلى مكان آخر. القانون خبيث ، ماكر ، إنه ، عفوا تحرك ، اوه ؟ أوه ؟ « الحلقة » معه ليست سهلة ؟

— يا ابن ... يا ابن ... ؟ — كان الناس يرددون في إعجاب ، وكانوا يبدون إعجابهم أمام ناظريه مباشرة . وكان هو يجيبهم بثقة متزايدة بالنفس وقد غمره الرضا بأنهم لا يجدون ما يردون به عليه :

— يجب تشغيل الدماغ .

بسبب الملل والبطالة ، لكن أكثر ما يكون بسبب قلق مبهم ، قادم ، كثيراً ما كان الناس يجتمعون معاً في هذه الأيام غير الصالحة للعمل ويبلمون ويعيدون الأحاديث نفسها ، لكن حتى هذه الأحاديث كانت هي أيضاً مقلقة ، لزجة تقطعها فترات صمت طويلة . ولا تدري لهذا سبباً ، أهو تأثير الطقس أو أن الفهم حل عليهم : أن لا ، ان هذا الحصاد بعمله المتناغم الحماسي وهذه الأغاني وهذه الأسمار وهذه الحياة التي يعيشها أهل الكولخوز كله تقريباً في قريتهم مسقط رأسهم وكأنها حياة ممنوحة بل الأصح مسروقة للتوديع أن هذا كله ليس سوى خداع وقعوا في شراكه بسبب ضعف القلب الإنساني .

والحقيقة هي أنه يجب أن ينتقلوا ، أنه يجب عليهم شاؤوا أم أبوا أن يتدبروا أمر حياتهم هناك لا أن يبحثوا ويسألوا عما عاشوا به هنا ، فاذا كانوا عاشوا ولم يعرفوا بما عاشوا ، فعلام يعرفون وهم يرحلون مخلفين وراءهم مكانا خالياً ؟ الحقيقة ليست فيما يشعر به الانسان في العمل ، في الأغاني ، في الدموع الحيرة حين تغيب الشمس ويتجمد العالم ويعلو في النفس القلق والحب والظمأ إلى حب أكبر مما لا يتكرر كثيراً في هذه الحياة ، الحقيقة هي في أن تعلو أكوام الحشيش . هذا ما جاء بهم إلى هنا . إنما كانت الشكوك تراودهم : هذا صحيح ، لكن ليس تماما . أكوام الحشيش سيعلونها آخر الأمر ويحملونها ، ولن يأتي الربيع حتى تكون الأبقار قد أتت على آخر عرق فيها ، على عملهم كله . أما هذه الأغاني التي غنوها بعد العمل ، والتي كأن لم يكونوا هم ، الناس ، بل نفوسهم التي غنتها وقد اندمجت في نفس واحدة لشدة ما كانوا يؤمنون بأزلية وقدسية الكلمات البسيطة المنشدة ، ولشدة

ما كانوا يرفعون أصواتهم في توحد وحمية وغيرة : وهذا الذهول اللذيذ والقلق في العشايا أمام جمال الليل الآتي ورهبته حين لا تعود تدري أين انت وما انت ، حين يتهيأ لك أنك تنزلق فوق الأرض في سلاسة وصمت تكاد لا تحرك جناحيك مسيطراً ومشرفا على الطريق المباركة المكشوفة لك ، مصيخاً بارهاف إلى كل ما يطفو تحت : والألم العميق الهادىء الناشيء من مكان لا تدري أين هو يبعثه فيك أنك انت حتى اللحظة الراهنة لم تعرف نفسك ، لم تعرف أنك لست ما تحمله في ذاتك وحسب ، بل أيضاً ما هو حولك دون أن يلاحظ دائماً والذي يكون فقده في احيان كثيرة أفظع من فقد يد أو رجل — هذا هو بالذات ما سيظل يذكر طويلا ويبقى في النفس نوراً لا يغيب وفرحة لا تخبو. ولعل هذا هو الخالد وحده ، وهو وحده هذا المتنقل كالروح القدس من انسان إلى انسان ومن الأب إلى ابنائه ومن الابناء إلى الأحفاد مبلبلاً وحافظاً ، موجها ومطهراً ، هو الذي سيؤدي في يوم ما إلى ما من أجله عاشت أجيال بني البشر .

علام إذن لا يغتسلون في نهاية العمر بالحياة التي سارت في متيورا سنوات طويلة طويلة ، ولا ينظرون حولهم بعيون حزينة ودهشة إلى ما كان . وما كان مضى .الموت يبدو مخيفاً ، لكنه هو ، الموت ، الذي يزرع في نفوس الأحياء الجني النافع والوفير ، ومن بذرة السر والفناء تنضج بذرة الحياة والفهم .

انظروا ، فكروا ! الانسان ليس واحدا ، ففيه غير قليل من أبناء جلدته ، مواطنيه المختلفين المجتمعين في جلد واحد كما في زورق واحد يبحرون من ضفة إلى أخرى. والانسان الحقيقي يكاد لا يبين على حقيقته إلا في لحظات الوداع والعذاب — هنا يتجلى كما هو فتذكروه .

لكن لم كل هذا القلق وكل هذا الكدر في النفس ، أبسبب الطقس الرديء المديد والعطالة الإجبارية بينما العمل كثير كثير ، أم بسبب شيء ما آخر أيضاً ؟ حاول أن تفهم وتتبين الأمر ؟ ها هي ذي التي خلتها خالدة ، لكنك خلتها وحسب — إذ لن يكون هناك أرض . تنتشر رائحة الاعشاب ، تنتشر رائحة الغابة ، وكل شجيرة بمفردها ، مع ابرتها ومع وريقاتها ، تصدر أنفاسها ، وتفوح رائحة الخشب ورائحة البناء الخشبي ، وتفوح رائحة الدواب ورائحة الأنس والسكن وكومة الروث خلف الزريبة وأوراق القثاء ، والفحم الحجري القديم في محل الحدادة ، فقد غسل المطر كل شيء وامتص روائح قابضة مختلفة ، واعطى كل الأشياء متنفساً حراً طلقاً . فلماذا لا يبقى شيء من هذا كله معهم ، مع أولاد الذين يعيشون الآن جنباً إلى جنب على هذه الأرض ؟ لماذا يحدث هذا الآن بالذات وليس من قبل أو من بعد ؟ هل يحدث هذا ببساطة ؟ هل هذا جيد أم سيء ؟ بماذا ، بأي تعزية يمكنك أن تريح نفس الانسان ؟

حاول الطقس منذ الصباح أن يعود إلى صفائه . ابيضت الغيوم المعصورة وتململت وهبت لا تدري من أين نسمة أخرى ، خفيفة وبدا إن هو إلا حين وتظهر الشمس تحت الغيوم . وصدق الناس فتحركوا إلى بافل يسألونه إن كان هناك عمل اليوم . وفيما اجتمعوا يتناقشون اكفهرت السماء وانهمر المطر مرة أخرى . لم يكن بهم رغبة في التفرق فمكثوا جالسين يديرون الأحاديث نفسها . غلت داريا السماور ، لكن الشاي لسبب ما لم يُغرهم ، فحلقهم كما يبدو لم يجف بعد من الشاي الذي شربوه في بيوتهم . وحدها كاتريتا وضعت كأساً على ركبتيها .

وعلى دكة عند الباب أخذ أفاناسي كوشكين أو كوتكين مكاناً له وقد استند إلى الجدار وزفع رجله وطوقها بيديه . كل واحد في القرية كان يناديه كما يحلو له: بعضهم كوشكين(١) وبعضهم كوتكين(٢)، أما بتروخا فمن قبيل العبث والسخرية كان يقرن الاسمين معاً وينادي بملء صوته في القرية كلها : « كوت وكوشكين ، أي يا كوت وكوشكين ؟ » . كان أفاناسي كوشكينيا طول حياته ، ولما أخذ ذووه ينتقلون إلى السوفخوز غيروا كلهم كنيتهم إلى كوتكين : ماداموا مقدمين على جديد فليكن كل شيء جديداً ، وما دام هناك كل شيء جميلاً فليكن كل شيء دون استثناء جميلا . وكانوا يمازحون أفاناسي فكان يرد على مزاحهم بضحكة كلها طيبة نفس : شارحاً :

— وما الفرق ؟ . سواء لدي كوشكين أو ميشكين (١) . ستون سنة بل ستون وأكثر وأنا بين الناس كوشكين ولم يبصق أحد في وجهي . هذا كله من فعل الشباب . الكتائن ، اللعينات ، لم يهدأ لهن بال ، خصوصاً غالكا . وبالفعل ماذا تعني لهن هذه الكنية ، إنها ليست كنيتهن الأصلية. إنها كمنديل على الرأس، اليوم يضعن منديلاً وغداً يضعن آخر. ألحَحْن وألحفن : هيا ، هيا غير الكنية . وذات مرة أسكرنني ؛ قلت في نفسي : « كوشكين كأنك تحت امرأة أما كوتكين فكأن المرأة تحتك . » ... إلى أي حد سممن أفكاري ؟ فكرت وقلت : « إلي بنصف ليتر أيضاً ولكن ما تردن » . لم ير أحد مثل هذا : هرعن على قوائمهن وبطرفة عين أحضرنه .

١ — الكنية هنا مشتقة من كوشكا بمعنى القطة .
٢ — الكنية هنا مشتقة من كوت بمعنى القط .
٣ — ميشكين من « ميش » وهي الفأر .

— بعت كنيتك بنصف ليّر إذاً ؟

— هكذا يبدو ، هذا ما حصل . سافرت غالكا إلى مركز المنطقة لتعيد تسجيل الأوراق الثبوتية ، ثم ذهبت أنا بنفسي . لكن حين اكتب كنيتي اقصر الشين وأتغافل عن النقطة ليقرأها كل كما يريد .. فأنا كوشكين كنتُ ومازلت . أما الآخرون فكما يريدون .

فيرا نوساريفا ، جارة داريا من المنطقة التحتانية ، همت عدة مرات في النهوض والمضي إلى بيتها ، بل حتّى ليس إلى بيتها بل إلى قطعة أرضها ، ففيرا كانت تسرع ، بالمناسبة ، إلى أرضها بين الفينة والفينة حين تتيسر لها الفرصة لتحش بعض العشب . لكن لم تكن بها رغبة الآن أن تتخلى عن هذا الهدف وعن هؤلاء الناس ، زد على ذلك ان المطر كان قد اشتد وانهمر موجةً صاخبة متصلة . وكانت كلافكا ستريغونوفا تتململ فوق المقعد الخشبي كأنها تجلس على إبر وتتطلع بين الحين والحين من النافذة — كان بودها لو تخرج من فترة طويلة لكن المطر لم يمكنها من ذلك . ومن سأمها علقت كلافكا بأندريه تستفسر منه عن رجال المدينة وأي النساء يحبون الآن: الممتلئات أم ذوات البشرة الملوحة. كان أندريه يهز كتفيه في ارتباك . وفي رأد الضحى ادلهمت السماء وأخذ المطر يطرق كالمجنون وفتر الحديث المرح على غير إرادة من الحاضرين وتحول شيئاً فشيئاً إلى الموضوع ذاته ، إلى متيورا ، مصيرها ومصير أهلها .

وأشاحت داريا بيدها بحزم ويأس كالعادة :

— أــأــ لم يعد هناك ما يؤسف عليه ...

— بلى ، يوجد ، كيف لا يوجد ... — بدأ أفاناسي وصمت إذا لم يكن لديه ما يقوله .

— أيْ ، أيها الثرثارون العجائز لا أمل فيكم ، — تحولت كلافكا عن أندريه وتدخلت فجأة في الحديث كالملدوغة . وجدتم ما تبكون عليه ؟ يبكون ولا يملون من البكاء ... لقد تعفنت متيوراكم بالكامل ! لا مجال للتنفس فيها . ما الفرحة التي وجدتموها هنا ؟ لقد حلت حياة جديدة حولنا وأنتم كبق المزابل تتشبثون بالحياة القديمة وتتكشون فيها تبحثون عن شيء ما شهي . إنكم لا تخدعون سوى انفسكم . آن لنا منذ زمن طويل أن نقلع متيورانا ونرمي بها في انغارا .

كان أفاناسي أول من تصدى لها ، وقد قلّص صوته قليلاً في استغراق وكأنه لم يكن يرد على كلافكا ، بل على نفسه ، على شكوكه :

— سواء كانت الحياة على النمط القديم أو الجديد ، لكن لا حياة دون خبز .

— وهل ترانا نجلس بلا خبز ، انظروا حتّى الخنازير صاروا يعلفونها بالخبز الخالص .

— ما دمنا ...

— انت حتماً مشاكسة يا كلافكا ، — تدخلت داريا في الحديث وقد أفاقت من ذهولها . — تباً لك من مشاكسة ، من أين خرجت لنا ، ففي متيورا لم يكن عندنا مثيلات لك من قبل .

— لم يكن عندكم ، والآن صار عندكم .

— أرى أنه يوجد ، لست عمياء . كيف لم تلتفا انت وبتروخا ابن كاترينا على بعضكما ؟ أنت يا كاترينا لا تنصبي اذنك ، فأنا لا أقول هذا لك . كيف لا زلتما تعيشان حتّى الآن منفصلين ؟ إنه مثلك ، قدر ولقي غطاءه .

— ما أحوجني إليه ! — ردت كلافكا بعصبية .

— وكأنما هو بحاجة إليك ، — قالت كاترينا بدورها مستاءة .

— علام يمكن أن تأسفوا هنا وعلام يمكن أن تبكوا ؟ — انتقلت داريا إلى الهجوم . كانت تجلس وحدها وراء الطاولة وكأنها على منصة الرئاسة في اجتماع . وكانت وهي تسأل تهز رأسها إلى الأمام من استيائها واضطرابها فبدت كأنها تنقر شيئاً ما ، وكان منديلها الأزرق الباهت ينزلق على جبينها . — منــذ زمن طويل وأقدامكم تنط : لا تعرفون أين تنطلقون . متيورا بالنسبة إليكم تساوي الكوليرا ... فأنتم لم تكبروا هنا ولم تلتصقوا بها ، كما لن تلتصقوا بأي مكان آخر ، ولهذا لن تأسفوا على شيء ... انتم هكذا ، قطعةُ أرض لم تزرع ...

صارت كلافكا ، وقد أثارت العجائز ، تناقش بيسر وابتسامة :

— يا خالة داريا ، هذه حالكم انتم . تكادون لا تتنفسون ، وتريدون أن تختاروا نوع الحياة على هواكم . لكن الحياة تجري ، فلماذا لا ترون ؟ أنا مثلاً أشعر بالغثيان في متيوراكم العفنة ، إني أرى أن البلدة هناك ، على الضفة المقابلة تلائمني ، أما أندريه ابنكــم فهو أصغر مني ، لا تكفيه البلدة ، لا ترضيه إلا المدينة أليس كذلك يا أندريكا . قل : هل تأسف على هذه القرية ؟

ارتبك اندريه .

— تكلم ، تكلم لا تتردد ، — كررت كلافكا بالحاح .

— آسف ، — قال اندريه .

— علام تأسف ؟

— من طورها ؟

— لقد عشت هنا ثمانية عشر عاماً . ولدت فيها ، لو يتركونها وشأنها .

— يا لك من طفل؟ ما شأنك بالطفولة إن كنت خرجت من طورها؟ لقد كبرت عليها . لقد خرجت من متيورا لكنك كبرت عليها أيضاً . إنك تقول هذا لأنك تخاف جدتك ، لأنك تشفق على جدتك وليس على متيورا .

— لماذا ...

— لأنه . لا يمكنك أن تخدعني . وجدتك تشفق على نفسها وتتحسر عليها . هي لا تستطيع أن تعود شابة ، لهذا تراها مغتاظة تخشى الذهاب إلى حيث تفوح رائحة الحياة،لا تزعلي مني يا خالة داريا ، أنا أقول لك كامل الحقيقة ... وانت أيضاً لا تحبين إخفاءها .

لكن داريا لم تكن تفكر في أن تزعل .

— أنا ، يا شابة ، فكرت في هذا أيضاً ، — أقرت داريا وهي تومىء برأسها مؤكدة أنها فكرت ، بلى فكرت وسكبت شاياً لنفسها . — أحياناً تأخذني الأفكار فأحاول أن أفهم كل شيء . حسناً ، أقول في نفسي ، على فرض أني هكذا ... فمن تكونون أنتم ؟ لماذا تفعلون هكذا ؟ هل هذه الأرض لكم وحدكم ؟ هذه الأرض للجميع . لمن عاش قبلنا ومن سيأتي بعدنا . نحن هنا لفترة قليلة جداً فوقها . إنها ليست لنا وحدنا . لقد اعطينا متيورا للاحتفاظ بها فقط ... لكي نستعملها فيما ينفع ونعيش منها . فماذا فعلتم أنتم بها ؟ لقد سلمكم إياها الأكبر منكم لتعيشوا حياتكم فوقها وتسلموها إلى الأصغر منكم ، وهم الذين

سيسألونكم . إنكم لا تخافون الأكبر منكم ، لكن الأصغر منكم هم الذين سيطلبون جوابا . لماذا تنجبون أطفالاً ؟ من نحن في هذا كله ؟

— الانسان ملك الطبيعة ، — قال اندريه .

— هاكم ، هاكم ، ملك . يملك ، يملك ثم يحترق .

وصمتوا . كان المطر قد هدأ وتحول إلى رذاذ خفيف ممزوج بآخر القطرات الكبيرة . والعتمة التي هبطت كعتمة المساء وكأنما أسدل فوق متيورا غطاء كثيف انفرجت الآن . بات الجو رمادياً مغسولاً ، وكانت السماء ، التي لم تكن العين تتبين فيها إلا العمق المائي ، رمادية ومغسولة أيضاً . وكان البيت حيث تجمدوا جميعهم لدقيقة في صمت كالحجارة رمادياً عاتماً .

— ماذا في اليد ، ماذا في اليد ، — قطع أفاناسي الصمت ، وقد ثاب إلى نفسه ، ونهض . — صبي لنا شايا يا داريا . عملنا اليوم فات أوانه . سنشرب الشاي .

وجاءت تونغوسكا . حيث كان الناس يجتمعون ، فلابد أن تجر نفسها إليهم أيضاً . كانت تأخذ مجلسها بصمت ، وبصمت تخرج غليونها من جرابه وتأخذ في مصه وهي تنشق دون أن تنطق بكلمة واحدة طول النهار إن لم يتحرش بها أحد ، بل لعلها لم تكن حتى تسمع ما يتحدثون به لوجودها في حالة من الاستغراق المتواصل العميق الناعس .

لم تكن من أهل متيورا ، لكنها لم تعد غريبة بعد أن عاشت هنا للصيف الثاني على التوالي . وبالمناسبة كانت تونغوسكا تتحرك أحياناً وتشرح بالحركة أكثر مما بالكلمات أن هذه الأرض أرضها هي أيضاً ، وأن قومها ، التونغوسين ، حلوا في الماضي البعيد هنا — وهذا على

الأرجح ما كان . أما الآن فقد ارتحلت العجوز إلى هنا لتسبب آخر.
كان السوفخوز يعد العدة لإقامة مزرعة حيوانات لكنه لم يقم حتى الآن إلا مديراً لها . وكانت المديرة هي ابنة تونغوسكا وهي امرأة عازبة جاوزت طور الشباب . كانت البيوت في البلدة الجديدة قيد الإنجاز حين وصلنا في الربيع الماضي . ولم يكن فيها من الشقق ما يكفي ، فجاءت الابنة بإيحاء من أحدهم إلى متيورا حيث تبين وجود بيوت شاغرة فيها . وهكذا علقت تونغوسكا هنا . كانت تجلس عند الضفة ، تجلس أياماً كاملةً شاخصة ببصرها إلى مجرى النهر الأسفل ، إلى الشمال . كانت تكاد لا تهتم بالجاكورة أبداً ولا تعمل فيها ، فتكتفي منها بمسكبة أو مسكبتين لكنها ما تلبث أن تهملهما أشد الإهمال — إما لأنها لا تعرف أو لأنها لا تريد هذا العمل ولم تعتد عليه . ولم يكن أحد يعرف بما تقتات ، فابنتها لا تتردد عليها كثيراً . كانت تجلس مع الناس تشرب الشاي حين يُجلسونها ، لكنهم لا يذكرون أنها أخذت مرة كسرة خبز . لكنها ظلت تعيش مع هذا ، لم تهلك ، وحيثما كانت تحس ان الناس يجتمعون كانت تتوجه إلى هناك فوراً . لكنها تأخرت اليوم ، فقد كان من عادتها أن تظهر في وقت أبكر . . .

عبرت إلى الركن الأمامي واقتعدت الأرض عند قدمي كاترينا . اقتعادها الأرض هذا ألفه منها الناس أيضا ، ولو حاولت بالقوة إجلاسها في مقعد آخر لما نهضت . الشيوخ في متيورا كانوا يجلسون أحيانا على الأرض ويدخنون — هاكم إذاً من أين أتت هذه العادة : إنه الدم التونغوسي القديم .

— جئتِ ؟ — سأل أفاناسي وقد رفع رأسه عن الشاي .

أومأت تونغوسكا .

— هاكم في سبيل أي شيء أيضا يعيش الإنسان ، — لاحظ أفاناسي ملاحظة فلسفية ، — ومع هذا يعيش .

— إنها طيبة فلتعش ، — قالت فيرانوساريفا مبتسمة .

— إي ، فلتعش . وانت أيضاً هل ستذهبين إلى السوفخوز ؟ — صاح أفاناسي يسأل تونغوسكا بصوت عالٍ كأنما يخاطب أطرش.

أومأت من جديد قبل أن تتمكن من أن تسهو ، وكان غليونها بين أسنانها هذه المرة .

— ويحها إنها تجهز نفسها . إلا ان الوضع هناك لن يروق لها كثيراً.

— هان عليكم هــذا السوفخوز ، — أخذت كلافكا تتحرش من جديد ، — كأنه قذى في عيونكم . إذا ما أخذوا غداً يطردونكم من السوفخوز تستفيقون وسنرى وقتها بما سترفعون عقيرتكم . ما أكثر نزوات هؤلاء البشر : يأخذون منهم شيئاً فيأسفون عليه ويتحسرون مع أنه لا يلزمهم ، يعطونهم ما هو أفضل منه مائة مرة فيأخذون في التذمر والتبرم : هذا ليس كما يجب وهذا لا ينفع ، لا يعجبهم العجب ولا الصيام في رجب . ما يعطونكم خذوه ، فنهم لن يعطوكم شيئاً سيئاً . انظروا ، الآخرون يسرون فمم تشكو الحياة هناك ؟ الحالة داريا ، حسناً ، — ولوحت بيدها باتجاه داريا ، — لا يُطلب منها أكثر مما يطلب من ثلج الصيف . أما أنتم فماذا يلزمكم أيضاً ؟

أرسلت فيرا نوساريفا المستكينة على غير عادتها والمتعبة والحائرة دون عمل التي ضيعها هذا الحديث تنهيدة ثقيلة :

— لو يسمحون لنا فقط بتربية بقرة ... لو يسمحون لنا بالحش ...

أما هكذا فكيف نعيش ؟ حياة جديدة غير مألوفة ، ستعود عليها . ستكون هناك كما يقال لنا مدرسة حتّى الصف العاشر . وهنا مع وجود الصف الرابع عذاب لا ينتهي مع الأطفال . أين كنت سأذهب بايركا ؟ أما هناك فستكون في نفس المكان ، معي ، لا داعي لإبعادها عن البيت ، — وهنا اختلست فيرا نظرة مذنب إلى داريا وأردفت وكأنها تود أن تختزل حلماً راود مخيلتها أكثر من مرة : — لو ينقلون هذه البلدة إلى متيورا ...

— هاكم ماذا تريد ! لا ، أنا غير موافقة ، — صاحت كلافكا ، سنبقى هكذا وسط انغارا ، على كف عفريت! لا يمكننا التحرك إلى أي مكان ... كأننا في سجن .

— سنعتاد ، — أخرج أفاناسي من مكان بعيد ، من الأعماق كلمته المحسومة في فكره : طبعاً سنعتاد . بعد سنة ، سنتين ... هنا قالت كلافكا الحقيقة لأول مرة في حياتها ... بعد سنة ، سنتين إذا ما انتقلنا إلى هناك سنأسف على البلدة أيضاً . سنبذل هناك الجهد والوقت ولن نبخل بعملنا ... فالذي يربطنا بالأرض أول ما يربط هو العمل . انت يا كلافكا إذا كنت لا تأسفين على الرحيل من هنا فلا تتمسكي كثيراً به . لا تهيي ، لا تهيي ، — أردف يوقفها ، — إننا نعرف . حين كانت أمك على قيد الحياة هي التي كانت تربي أطفالك ، بينما كنت انت تهرولين إلى المحلات وإلى قاعات المطالعة .

— أنا متعلمة ...

— أنا لا أقول شيئاً عن علمك . أنا أتكلم عن الأرض . وهناك أيضا عمل ، أوه وعمل ضخم يجب عماله كي نخصب الأرض ... لو

تجد تلك اللجنة التي اختارت المكان ونفزك أنفها بالتراب . آه أمكم يا ...

— لعلهم سيأخذونك إلى هناك عمداً لتقوم بالمزيد من العمل ولتتعود أكثر فأكثر .

— هذا ممكن . لنلزق الطينة على الحائط . ندرج ، نصبر ، نتحايل ، نندفع حينا ونتراجع إلى قديمنا حينا . المهم ان تتوفر للفلاح القوة وألا يعيقوه ، وهو سيخرج منتصراً من أي ضيق . أليس صحيحاً يا بافل ؟ مالك ساكت ؟

كان بافل يدخن ويستمع فما يزداد ، وقد بات عاجزاً عن الفهم وكارها نفسه ، إلا ضياعا : تكلمت أمه فوافقها ، وتكلم فاسيلي الآن فوافقه إذ لم يجد ما يعترض به عليه . وكان بافل يتساءل : « ما هذا ؟ أين هو رأسك ؟ هل عندك رأس ؟ أم فيه رمل يمتص كل ما يقال دون تمحيص ؟ وأين الحقيقة ، لماذا مطوها بالطول والعرض حتى لم يعد يمكنك أن تجد لها بداية ولا نهاية ؟ ولماذا لا استطيع أن أجدها ؟؟ . كان يشعر ، وفي سره وافق منذ زمن طويل — وإذا لم يكن قد صاغ ما وافق عليه في قناعة راسخة لنفسه بوسعها أن تبدد أي أفكار أخرى فما ذلك إلا لأن ألم وداع متيورا ومرارته وشواغل الانتقال كانت تحول دون ذلك — كان يشعر أن في كلمات كلافكا ، مع أنه ليس لها بل لشخص أرزن منها أن يقولها ، وفي محاكمات اندريه ذلك اليوم حين التقيا وجلسا معاً إلى الطاولة ، حقيقة اليوم التي لا مهرب منها ، وان الشبان يفهمون هذه الحقيقة أفضل منه على ما يبدو . وماذا ؟ لهذا هم شباب لأن عليهم أن يعيشوا أطول . ولا مندوحة له ، شاء أم أبى ، من موافقة أندريه على أنه لا يمكن للواحد منا وهو على رجليه الاثنتين وفي متيورا القديمة اللحاق بالحياة الراهنة .

— سنعتاد ، — قال بافل موافقاً .

— ما رأيك ، هل بامكاننا أن نحصل على خبزنا من تلك الأرض ؟
— سأل أفاناسي .

— يجب أن نحصل عليه . العلم يساعدنا . وإذا لم نحصل عليه فسوف نطعم الخنازير أو نفقس دجاجا . الآن هذا الاختصاص في كل مكان .

— هكذا إذاً على الآلة الزراعية سننتف الفراخ ؟

دبت الحيوية في النساء .

— يركبون فيها جهازاً وتنتفها . ما السيء في الأمر ؟

— يكفيك ابتلاع الغبار ، لقد صرت أسود بسببه .

— إذا تطاير الريش نفضناه عنا .

كانت داريا ترشف الشاي بتركيز من القصعة المرفوعة بين يديها وتومىء برأسها كعادتها لشيء ما باشارات صغيرة منتظمة وقد تخلفت عن الحديث لا تسمع أحداً ولا ترى أحداً لا تشغلها إلا عملية الشرب وجدها .

— ماذا أيها النسوة ، — كان أفاناسي هو الذي يدير الجلسة ، — سنفض الآن هذا الاجتماع الذي طال . داريا على وشك الانتهاء من السماور . ما القرار الذي سنتخذه ؟ هل ننتقل أم لا ؟

— لقد اتخذوا القرار بدوننا .

— لنذهب . هناك في الأرض الكبيرة سيكون الاهتمام بنا كبيراً .

— انما انفضوا عنكم البق والصراصير بشكل أفضل .

— ما قولك يا تونغوسكا ، هل نرحل ؟

أخرجت تونغوسكا غليونها من فمها ولحست شفتيها ورفعت على الصوت عينين غائمتين لا تدري أين هما شاردتان وأومأت .

— وانت يا داريا ، جهزي نفسك ، لن نرحل بدونك .

— انظروا ، — فطنت فيرانو ساريفا بغتة ، — كأنما خف المطر ... طالت جلستنا ، طالت ... ومع هذا خض الماء يبقى ماء . أنا ذاهبة . نادني يا يافل إذا جد شيء ، لكن ليس اليوم . أنا ذاهبة الآن .

... مطر ، مطر ... لكن أخذت تلوح له نهاية ، فالفاصل بين الهطول والهطول صار أطول . وهبت نسمة وزحزحت بجهد الرطوبة العالقة بالسماء وسحبتها إلى الشمال . الغيمات العابرة السابحة ظلت وحدها ترش الماء المتبقي لديها . يهدأ الطقس ثم يعود ثانية ، ونور الشمس يسقط دون شمس ، ضعيفاً منحرفاً ، فتعتم الدنيا من جديد ومن جديد ترش رذاذاً وكأنها تفعل هذا عن قصد ،عن حب بالضرر كي لا تعطي الناس الأمل بأن الطقس سينقشع ويصحو نهائياً . وكان الناس الذين لا يعرفون الإذعان والتسليم يستشيطون غيظا ويلعنون السماء وأنفسهم على أنهم يعيشون تحت هذه السماء .

في أحد تلك الأيام المقلقلة غير المستقرة — لا مطر ولا صحو ، لا عمل ولا راحة — جاء فورونتسوف ومعه ممثل المنطقة المسؤول عن تطهير الأراضي المرشحة للإغراق . جمعوا الناس في بناء رطب وقذر نوافذه نصف مخلعة — هو إدارة الكولخوز السابقة . لم يكن في البناء مقاعد فوقف الناس على أقدامهم ، ولم يكن هناك طاولة يجلس وراءها القادمون فتركوا بينهم وبين الناس مسافة يسيرة — نحو ثلاث خطوات ووقفوا إلى جانب الحائط الأبعد . كان فورونتسوف أول المتكلمين : تكلم عن ضرورة الانتهاء من الحش على طريقة العمال الطليعيين وكان الناس ينظرون إليه دون أن يقاطعوه وكأنه هابط عليهم من القمر :

– ماذا يقول ، ألا يرى المطر في الخارج ؛ وبالفعل كان المطر قد أفلت من جديد ، وأخذ ينقر على السطح لكن فورونتسوف الملفوف في مشمع لم يكن يرى شيئاً ولا يسمع شيئاً بل كان يسوق إليهم ما في رأسه وما من أجله جاء . ممثل المنطقة ذو كنيته بيسيني وهو رجل ذو مظهر مائل إلى السذاجة ووجه أسفع ذي عظمات ناتئة كسائر أهل المنطقة وعينين طفليتين زرقاوين – ومن الوارد تماماً أنه يغني جيدا مادام يحمل مثل هذه الكنية (*) – ممثل المنطقة هذا ، حين ذكر فورونتسوف اسمه ، بدأ يمهد من بعيد ، لكنه حين رأى كيف أخذ الناس يرفعون رجلاً وينزلون أخرى ويلتصق الواحد منهم بالآخر من الرطوبة والتيارات الهوائية قطع كلامه ، وصمت قليلا وتكلم مباشرة عن الغاية من قدومه إلى هنا : يجب أن تطهر متيورا تطهيراً كاملاً حتى منتصف أيلول من كل ما يقوم وينبت فوقها . وفي العشرين من الشهر نفسه ستحضر اللجنة الحكومية لاستلام سرير الخزان المائي .

اعترض أحدهم دونما جرأة كافية :

– لا نلحق هكذا أن نقلع البطاطا . والقمح لن نتمكن من تخزينه . خصوصاً إذا ساء الطقس هكذا ...

أشاح بيسيني بيده في عجز ، وكان فورونتسوف الذي أجاب :

– بخصوص البطاطا الشخصية فهذا شأنكم ، حتى وإن لم تقلعوها أبداً . أما محصول السوفخوز فيجب حتماً أن نجمعه وسنجمعه . وفي أسوأ الحالات سيأتينا مدد من القوى العاملة من المدينة .

لكن الناس الذين أضناهم سوء الطقس تقبلوا حتى المهلة القصوى

* بيسيني مشتقة من كلمة بيسنيا التي تعني الاغنية (المترجم) .

المعلنة لهلاك قريتهم بهدوء وبساطة عجيبين : كان يصعب عليهم أن يصدقوا ، والأرض من حولهم مشبعة بالماء إلى عمق عشر طبقات ، أنه يمكن أن يحترق في يوم ما شيء من هذا كله . وبدا منتصف أيلول لهم الآن بعيداً بعد منتصف كانون الأول ، إلا أنهم احتفظوا في ذاكرتهم أنه يجب المبادرة إلى تسوية أمر البطاطا في وقت أبكر . وتوزعت أفكارهم : نقلع البطاطا ، طيب يمكن أن نقلعها ، لكن إلى أين ننقلها وأين نخزنها ؟ من أين نأتي بهذا العدد الكبير من الأكياس ؟ كانوا يجمعون عادة حوالي ٧٠–٨٠ شوالاً ، وفي هذا الصيف زرعوا لا أقل مما كانوا يزرعون دائماً . هنا الأمر يسير : يمكنك عند الحاجة نقل المحصول بكيس واحد ، فالحاكورة في متناول يدك ، أما نقله إلى هناك فيستلزم تأمين الأكياس كلها دفعة واحدة . وهذا يجعلك تفكر : ما العمل وكيف ؟

وتذكر الناس من بين ما جرى في الاجتماع أن فورونتسوف حين أمرهم ألا ينتظروا حتى آخر يوم وأن يحرقوا بالتدريج كل ما ليس لهم فيه ضرورة قصوى ضرب لهم بتروخا الذي كان أول من نظف أرضه مثلا ونموذجاً : ولهذا كان بتروخا يتطلع حوله كبطل ، ومضى بعد الاجتماع إلى فورونتسوف وبيسيني للتحدث إليهما . لا يعرف أحد الحديث الذي دار بينهم ، لكنهم رأوا فورنتسوف كيف تكلم طويلا إلى بيسيني وهو يشير إلى بتروخا وكيف أخرج بيسيني من جيبه مفكرة وسجل فيها بقلم الرصاص شيئاً ما .

ضج الناس فقط بعد أن عادوا إلى بيوتهم وسرى الدفء في أجسادهم : منتصف إيلول . بقي شهر ونصف الشهر . شهر ونصف

لا تشعر به كيف يطير . وكان شيئاً غير مألوف ونظيفاً أن يتصوروا أن الأيام ستتوالى بعد هذا دون متيورا القرية . سوف تطلع الأيام كعهدها دائماً وتمتد فوق الجزيرة التي تكون أصبحت خاوية نظيفة ، حيث لا عيون انسانية ترتفع بعد الآن تسأل: أين الشمس ؟ وستمضي أيام الخريف ، سوف تمضي فوق متيورا الجزيرة وهي تتطلع لترى ما حدث ، لماذا لا يتصاعد من الجزيرة دخان ولا تتردد أصوات ، إلى أن يتمكن أحد الأيام في ساعة مقدرة له أن يجد الجزيرة في مكانها الأبدي .

وبعد ذلك ستمضي الأيام ، تعبر بمتيورا دون توقف أو تلكوء .

* * *

— ١٤ —

لم يكن لأندريه مايفعله فمضى أيضاً إلى الاجتماع ووقف أيضاً كغيره مستنداً في تهالك إلى عضادة الباب وحيداً ، بعيداً عن الآخرين كأنه غريب واستمع إلى ماحملته اليهم القيادة . ونقل اندريه بعد عودته تفصيل مادار حوله الحديث إلى داريا . جلست داريا على الدكة قرب الجدار وأسبلت يديها لائذة بالصمت فترة . وكأنما انتهت إلى فكرة وقررت في نفسها شيئاً ، فلم تزد على القول :

— إي ، إي .

أدهش صوتها اندريه : على هذا الصوت وحده تمكن من الارتفاع إلى مهابة البررة الصالحين ، كأنما لاأحد سواها كان يصدق ويعرف ، بل هي وحدها التي كانت تعرف وتصدق ، وان الحقيقة كانت إلى جانبها . إنما كان في هذا الصوت علاوة على ذلك شيء ما آخر ، شيء أشبه بالتحذير : سنرى ما سيكون . ما سيكون لابد صائر ، لامهرب منه ، لكن كيف ؟ ! ألن تنحرق الأرض الأخرى ، الباقية وهي تنظر إلى متيورا ؟ لكنها أردفت بصوت أخفض وأكثر استسلاماً :

— لو يحدث للانسان هكذا دائماً ، لو يقال له متى سيموت ، لكان أعدّ نفسه لو عرف ، ولما كان شغل نفسه دون طائل .

— ماذا تقولين ياحدة ؟ علام يعرف ذلك ؟

ولم تجبه : لعلّها كانت توافقه على أن لامعنى لمعرفة ذلك . كانت تلوم نفسها لكنها لم تشأ أن تعترف بخطئها . لكن اندريه كان قد تحمّس للفكرة وراح يتصور مايمكن أن يكون :

— شيء مسلّ مع هـذا . أنت إذاً حيٌّ معافى ، في هويتك سنة ميلادك وإلى جانبها سـنة وفاتك . وهنا اطلق ضحكة عالية ممطوطة غريبة عليه . — تقدم هويتك فلا ينظرون إلى اسمك وكنيتك بل إلى ما بقي لك من العمر . وسيكون هذا موضع اهتمامهم الأكبر . من بقي له القليل إليك عنّا لست بعامل ، ومن بقي له الكثير تعال إلينا . إذا أردت مثلاً أن تتزوج : أريني ، أريني ياعزيزتي كم ستعيشين . وهي بدورها أول ماتقول له . . . لاياجدة ، — وهنا عبس وجهه وقال في شرود رافضاً الفكرة : — لاداعي ياجدة ، فليبق ياجدة كل شيء على ماهو عليه .

جاء بافل فنهضت داريا تريد أن تمد الطاولة . لكن بافل قال لها إنه سيذهب أولا إلى المرج ليتفقد أكوام الحشيش. كانت السماء قد انفرجت عند المساء انفراجات أكبر وأعرض من الانفراجات السابقة الواعدة وارتفعت قبة السماء إلى أعلى وتعلقت فيها السحب جبالاً وأخذت حواشيها تبيض . كان الهواء يهب بارداً وهذه أول إشارة إلى تحسن أكيد في حالة الطقس . وأحيانا كانت الشمس أيضاً تتراءى من وراء السحب فتبسقط شريطاً وراء النهر تارة ، وتارة تغوص ثم تعوم قرب القرية وفي المرعى وفي الحقول وفي المرج وتهبط إلى مكان ما . صاحت الديوك التي صمتت في الأيام الأخيرة — فهي أيضاً تفهم كيف تجري الأمور ، ولاتفعل هذا عن بساطة ، صارت الأصوات أعلى

وأصغي : يرنّ صوت ما على بعد فرسخ فيتردّد صداه كما لو أنه فوق أذنك . وصدق بافل أيضاً : حانت نهاية الطقس الرديء ، وقرر ، بعد أن صدّق ، تفقد ما استطاع المطر أن يلحقه من أذى — ألم تسودّ الأكوام ، ألم تصب بسفعة — لكي يعرف من أين سيستأنف عمله .

بعد أن استبدل بافل مشمعه الدافيء من المطر بالمعطف المبطّن وخرج ، تذكر أندريه ، الذي كانت تؤرقه بعض أفكاره وتبلبله ، الحديث الذي دار يوم وصوله :

— قلت آنذاك ياجدة إنك تشفقين على الانسان ، تشفقين على الناس جميعاً . تذكرين أنك قلت هذا ؟

— اذكر ، كيف لااذكر .

— لماذا تشفقين عليه ؟

كانت داريا ترتب البيت . كانت قد أضاعت المغرفة فأخذت تحوص وتلوص في البيت تبحث عنها ، فلم تحمل الكلمات التالية مخمل الجواب الرصين :

— أشفق عليه لأني أشفق عليه . وكيف لا أشفق عليه ، المسكين ! ليس غريباً .

— لكني أسألك : لماذا الإشفاق عليـــه ؟ قلت الانسان صغير ، ضعيف ، يعني إنه عاجز أو إنك قلت شيئاً غيره ؟

— هكذا عنّ على بالي ! مالك تلاحقني : قلتِ وقلتِ . لعلّي قلت هذا عن بساطة .

— لا ، لم تقولي ماقلت عن بساطة .

وجدت داريا المغرفة في نهاية الأمر وغوفت من البرميل في المدخل

بعض الماء وعادت إلى ركنها. وبعدها لم تعد قادرة على إمساك نفسها عن الحديث ، وصارت تتكلم من هناك واجدة ، مع هذا ، الوقت أتدب في البيت وتقوم ببعض الاعمال "عاجاة .

— وماذا ، أليس صغيراً ؟ — تساءلت داريا وهي تزجّ بنفسها شيئاً فشيئاً في غمرة الحديث وتهيىء نفسها لما يمكن أن تقول :
— لم يكبر ، ظلّ كما هو . كان بيدين ورجلين ولم ينم له غيرها . . . .
ومع هذا جعل الحياة تغلي وتفور . . . شيء مخيف إلى أي درجة جعلها تغلي وتفور . وهو وحده الذي فعل هذا ، لم يدفعه أحد . يظن أنه سيدها ، وهو لم يعد سيدنا منذ زمن طويل طويل . منذ زمن طويل هي التي تطارده وتستحثه . لايكاد يجد الوقت ليلتفت ، يود لو يوقفها قليلاً ، لو يتريث ، يتمهل ، يتلفت حوله ليرى ما بقي ، لكن كأنما هناك ريح عاصفة تحمله عنوة ! لا ، لا بل أسوأ من ذلك : لقد أرهق نفسه ، لن يطول به الأمر ، لقد أرهقها وأزهقها هـذا واضح !

— كيف تقولين أرهق نفسه مادامت توجد آلات . كل شيء الآن بالآلات . لو تعرفين ياجدة أي آلات صنعوا الآن . لا يمكن أن يخطر ببالك ما يمكن لهـذه الآلات أن تفعله . الآن لم يبق فرع انتاج يتولاه الانسان فقط . فأين يرهق نفسه ؟ لا ياجدة ماحزرت . أنت تحدثينني عن الانسان القديم الذي عاش قبل مائة سنة .

تحوّلت داريا باستياء عن أوانيها وانتصبت :

— أنا أعرف عما أتكلم . منذ مائة سنة . منذ مائة سنة كانوا يعيشون في هدوء واطمئنان . أنا أشرح لك عن حالك ، عن حالكم كيف هي الآن . إنكم لا تفقهون سركم ، هذا صحيح ، إنكم

تصونونها وتحافظون عليها ، أما أنكم أضعتم نفوسكم فهذا أمر لا يعنيكم . انت مثلاً : هل سمعت على الأقل أن للانسان نفسا ؟

ابتسم اندريه :

– يقال إنه يوجد شيء من هذا القبيل .

– لاتسخر ، يوجد . هذا أنتم عوّدتم انفسكم على أنه إذا لم تروا شيئاً أو تلمسوه فمعناه أنه غير موجود . من فيه نفس ففيه الله ياشاب ! وصدّق أو لاتصدق : حتى ولو كفرتَ فهو في داخلك ، في داخلك لا في السماء. وفوق هذا فهو الذي يحفظ الانسان فيك ، كي تولد إنسانا وتبقى انسانا . أما الذي أمات النفس في داخله فهو ليس إنسانا ، لا ليس انسانا . انسان مثل هذا لايتورّع عن فعل أي شيء . هكذا أيسر وأخفّ بدونها ! واندفعتم خفافاً بدون النفس ، أفعل ماأريد ، لاأحد في داخلك يشكو ويتألم ، ولا أحد يسألك . تقول : آلات ، الآلات تعمل لحسابنا . إي : إي من زمن طويل ليست هي التي تعمل لحسابكم بل أنتم لحسابها . أو تظنّ أني لاأرى ، وما أكثرما يلزمها ! إنها ليست حصاناً تلقي له بعض الشوفان وترسله إلى المرعى . إنها ستمتص عروقكم وعافيتكم ، وتفسد الأرض ، فهي ماهرة في هذا . انظروا ما أسرع ماتركض وماأكثر ماتعزق ويأخذكم العجب وتطلبون المزيد. أنتم تمدّون لها أيديكم وهي تتولى عنكم وتأخذون في مطاردتها وما إن تلحقوا بها حتى يخترعوا آلات غيرها. وهذه الجديدة ألعن من سابقتها ، ويلزمكم أن ينتجوا ألعن منها كي لا تتخلفوا . ليس عندكم وقت للتفكير في انفسكم أو في الانسان – وهكذا ماتلبثون أن تضيعوا في الطريق . في الماضي كانوا يعملون : لم يكونوا يجلسون مكتوفي الأيدي . لكنهم كانوا يعملون في هدوء واطمئنان وليس كما يعملون الآن .

الآن تراهم دائما راكضين . إلى العمل ركضاً، ووراء الطاولة ركضاً، لاوقت لديهم . ماهذا الذي يجري على ظهر هذه الأرض ! حتى الطفل يبدونه ركضاً ، وهو ، الطفل المسكين، ما ان يولد ، وقبل أن يقف على قدميه وأن يقول كلمة ، حتى يكون أخذ يلهث . أين ولأي شيء ينفع واحد مثل هذا ؟ — هنا قطعت داريا كلامها قليلاً فوضعت إلى جانب انسطل على الأرض البطاطا التي سلقتها منذ الصباح للبقرة ثم تابعت : — انظر إلى أبيك ، هل سيبلغ مابلغتُ من العمر ؟ وهذا علماً أنه عاش في ميتورا ، وهنا الحياة أهدأ . لقد كنتُ في المدينة ورأيت - أوي ماأكثر البشر وماأكثر مايركضون ! كالنمل ، كالبعوض إلى الوراء إلى الأمام، إلى الوراء إلى الأمام ، يدفع بعضهم بعضاً، يتجاوزه ! أعوذ بالله ! تنظر وتقول في نفسك : من أين ستجدُ مايكفي من الأرض تقبرهم جميعاً فيما بعد ، لن تكفيهم أي أرض . وانت تندفع مهرولاً في اتجاه وتلتفت ، تلتفت فترى نفسك في اتجاه آخر . حتى لا تقف في مكان واحد لاسمح الله ! والضجيج والزعيق ! !

— ماهذا الذي تقولينه ياجدة ؟ ركض ، هرولة . . . إننا نعيش وهذا كل مافي الأمر . كلٌ يعيش كيفما يستطيع — كان أندريه يقف في الباب وينظر إليها مشدوها بكلماتها نظرة فاحصة ساخرة . .

— تعيشون . . . عيشوا كما تريدون مادام هذا يحلو لكم . لست أنا بوصية عليكم . لقد عشنا ما علينا ، لكن أنت أنت ياأندروشكا سوف تذكرني فيما بعد حين تخور قواك وتنفد . ستقول في نفسك أين كنتُ مستعجلا ، وماالذي تمكنتَ من فعله ؟ لم أفعل سوى أن زدت حولي البلبلة والضوضاء . عيشوا . . . حياتكم هذه انظروا أي أتاوة

تأخذ منكم : لقد جاءت حياتكم ولهذا تطلب متيورا ! ولو أنها تكتفي بمتيورا وحدها . سوف تلتهمها وهي تشخر وتنخر وتطالبكم بالمزيد . قدّموا لها أيضا . وستقدمون لها المزيد والمزيد وإلاّ اسقطتكم عن ظهرها . لقد أرخيتم لها العنان فما عدتم قادرين على لجمها . لاتلوموا إلاّ انفسكم .

— لست عن هذا أسألك ياجدة . أنا أسألك لماذا تشفقين على الانسان ؟

— وأنا عمّ أكلمك ؟ — تلجلجت في استياء وتنهدت وقد أدركت أنّ صحيح — إنها لاتتكلم عما يجب أن تتكلم فيه . الأفضل ألاّ تتكلم عن أي شيء فما جدوى الكلام . ها قد أخبروهم متى سيزيلون متيورا ويحيلونها إلى رماد ، وهي بدلاً من أن تحفز نفسها وتسمو بها إلى مستوى المهلة والحدث الكبير القادم راحت تثرثر كلاما لامعنى له . آه كم من الوقت يضيع في هذا العمل ! يعتبرون البكم بائسين لأنهم لايستطيعون الكلام ، لكن هل هم بؤساء إلى هذا الحدّ إن كانوا يشغلون رؤوسهم بأفكاروتأملات طويلة لاتنقطع ؟ لكن أندريه كان ينتظر ، وكان جوابها لسبب لايدريه ضرورياً له ، أما هي فتنهدت ثانية وهي تبحث عما تبدأ به وقالت بصوت غير واثق ، خافت ، خفيض حتى درجة الاستسلام الكامل :

— يستحق الشفقة ، حسبك أن تنظر إليه . . .

كانت داريا تخلط بالمخوض شراب المواشي في السطل ، ومع هذا أردفت خافضة صوتها حينا رافعةً له ومطلقةً كمن يلوّح به حينا آخر تشرح الأمر لأندريه منتقلة في ذلك من موضوع إلى آخر :

— ضال ومضلل بشكل غير معقول انسانك هذا. يُضل الآخرين— حسنٌ سيُسأل عن ذلك . لكنه يضل نفسه أيضا حتى لايعود يرى

شماله من يمينه ، كأنما عن قصد يعمل كل شيء بالمقلوب . مالايريده فإياه يفعل ، ولست وحدي لاأرى هذا لأن لي عيونا خاصة ، بل أنت أيضا سترى لو نظرت : انظر ، انظر جيداً : إنه لايشعر بأي رغبة في الضحك ، بل لعله بحاجة إلى البكاء ، ومع هذا يضحك ، يضحك . . . وإذا تكلم تراه يمكر في كل كلمة، يدعي أن ليس هذا ما كان يود قوله . ويُطلب إليه أن يقول فلا يتكلم ، يصمت : يجب المضي في اتجاه ، فتراه ينعطف في اتجاه آخر . ثم يعود إلى رشده فيخجل ويسخط على نفسه ، وإذ يسخط على نفسه فهو بالتالي سيسخط على الدنيا كلها . إنك لاتعيش إلا قليلاً فلماذا لاتعيش بسلام ولاتفكر في الذكرى التي ستتركها بعدك . الذاكرة تذكر كل شيء ، تحتفظ بكل شيء ، لاتريق منه قطرة : وإلاّ لن ينبت على قبرك إلاّ الشوك حتى لو زرعت كل يوم عليه زهرة : إيه ، تنهدت داريا من جديد فظهر عند أندريه فجأة عدم ثقة بهذه التنهيدة — الأمر الذي لم يرد في خاطره أبداً في السابق : ترى هل خرجت هذه التنهيدة تلقائيا لتخفف من وطأة الضيق المختزن ام ان جدته اصطنعتها بمهارة لتنسجم مع كلماتها ؟ لكنه لم يقاطعها . وتابعت : ستظن أن بتروخا ابن كاترينا لم يمل من اصطناع البلاهة . إنه ليس شابا غبيا . لا ، إنه يعرف في قرارة نفسه أنه يتصنع وليس يعيش لكنه لايرعوي ، لايريد العودة عن هذا الميل فيه إلى الأذى . لقد اتخذ طريقه وسيمضي فيه حتى النهاية . ومالي أقول بتروخا ؟ بتروخا لاعتب عليه . انظر حتى إلى الانسان الجاد الذي يفترض أنه يعيش بعقله تراه يصطنع أكثر من غيره . إنه يخرج إلى الناس بلباس غير لباسه ويصطنع من نفسه إنسانا آخر . فيم الآخر أفضل منك ؟ لماذا لاتعيش كما انت حياتك ، بل ترغب في الادعاء والتظاهر ؟

كانت عند الخالة تاتيانا كنة اسمها غوتكا هي زوجة ابنها ايفان :
كانت فتاة متبجّحة ، بل كانت تحب الظهور بمظهر الحولاء فكانت
تفتل عينيها عبثاً . وهكذا خبأت غوتكا شاكوشاً خلف المرحاض:
وكانت إذا رآها أحد ذاهبة إلى هناك تخرج الشاكوش وتأخذ تطرق به
كأنما ذهبت إلى هناك لتدقّ لوحاً إلى جدار : لو أن أحداً يسألها :
ومن لايذهب إلى هناك ؟ ماالداعي إلى الخجل ؟ هكذا نحن جميعاً ،
نطرق المطروق. خُلق الانسان وتُرك ليعيش ، فإذا به يصطنع من نفسه
انسانا آخر . لقد ضلّ ، ضلّ ، تمادى في التمثيل حتى نسي نفسه :

وأنت أيضاً ياجدة ؟

— وماذا أنا ؟ أنا أيضا انتبهُ إلى أني أفعل مالا ينبغي أن أفعل .
ومع أنه لايكلفك شيئا أن تفعل كما يجب أن تفعل إلاّ أن قدميك
لا تأخذانك حيث يجب ويديك لاتأخذان مايجب أن يؤخذ — كأنما
هذا بوسوسة من الشيطان : وإذا كان هو فعلا ، فإنه يكون استطاع
أن يفسد الكثير بينما كان الناس يتماحكون إن كان يوجد إله أم لا :
عفوك يارب ، يارحيم ، اغفر لي أنا الخاطئة ، قالت وهي ترسم إشارة
الصليب باتجاه الباب بمحاذاة أندريه — أنا ماأقول ؟ليس لي أن أدين
الناس . لكن عيني لازالتا تبصران وأذنيّ تسمعان وسأقول لك ياأندريه
أكثر من ذلك وتذكر قولي . هل تظن أن الناس لايدركون أنه يجب
ألاّ يغرقوا متيورا ؟ يدركون ومع هذا يغرقونها :

— هذا معناه أن لاطريق آخر . هناك ضرورة ما .

انتصبت داريا وراء الموقد التي كانت تتهيأ لوضع الحطب فيه
للصباح واستدارت نحو اندريه :

— إذا لم يكن هناك طريق آخر ، فهيّا اقتطعوا منيورا مادمتم تستطيعون كل شيء ، مادمتم صنعتم كل تلك الآلات . . . : اقتطعوها وأزيحوها إلى حيث توجد أرض ثابتة وضعوها إلى جانبها . الله حين أنزل الأرض على الناس لم يعط أياً منهم ساجنا واحداً زائدا . أما أنتم فصرتم ترونها زائدة . أزيحوها جانبا ودعوها تعيش . إنها ستنفعكم وتخدم أحفادكم ولسوف يشكرونكم على هذا .

— لايوجد ياجدة مثل هذه الآلات . لم يصنعوا بعد مثل هذه الآلات .

— لو شغّلوا دماغهم لصنعوها .

ولا تدري ألأنها خافت من كلماتها أو خجلت منها ، إلا أنها أردفت بصوت متعب ومهادن وهي تدخل قرم الحطب في الموقد الروسي بجاروفها الخشبي :

— تقول لماذا الشفقة عليه ؟ وكيف لا نشفق عليه . إذا وضعنا العجرفة جانبا فالانسان ولد طفلا غراً وبقي طول العمر غراً . يحتدّ ويغضب ويطيش ، ومع هذا يبقى طفلا ، ويبكي ويظل طفلا . من زمان وأنا أرى من يبكي خلسة ، من لاسيطرة له على نفسه . وكم من الهموم تستهدفه — التفكير فيها مخيف ... لهذا تراه يحوص ويلوص، ويحوص ويلوص على الفارغ . حيث يمكنه أن يقطع الطريق خطواً تراه يقطعه ركضاً . وهناك أيضا الموت . . . كم يخشاه المسكين ! لهذا ، لهذا وحده يجب الإشفاق عليه . لايوجد كائن يخشى الموت كما يخشاه . أسوأ من أي أرنب . وأي شيء لايجعلك الخوف تقدم عليه . . .

تركت الجاروف مغروزاً بين الفحمات واستدارت . في المدخل

وراء ظهر أندريه حيث كانت النافذة تطل على نهر انغارا كانت الشمس تنتصب في السماء . تهلل وجه داريا وهمست كالمذنبة :

— ياإلهي ، وأنا التي كنت أتكلم عن الموت . . لابد أني جننت أنا العجوز ، لابد أني جننت .

كانت هذه شمساً حقيقية على الرغم من كونها شاحبة متعبة تسللت بجهد عظيم عبر الغيوم . انزلقت قبل المغيب مباشرة على شريط ضيق ورنت وأشرقت بعلنة انعتاقها وواعدة أنها ستغيب الليل فقط ، وستعود غداً لتبدأ عملها .

كانت الديكة تصيح في صخب، والدواب تصيح وتخور ، وفي مكان ما دوت طرقات الحديد بمهابة وقوة .

* * *

ـ ١٥ ـ

ولم تخدعهم الشمس ، طلعت في اليوم التالي مع الشروق . كانت لاتزال هناك في السماء سحب ناشفة ، مدعوكة كأنها قارفة نفسها ، لكن السماء من جهة الشرق كانت صافية فانزلقت عليها الشمس دون عائق . وفيما كانت الشمس تعلو في السماء كانت السحب تمعن في التراجع عنها وهي ترقّ وتشف . وأخيراً ذابت تماما كقطع الجليد . ومع انتصاف النهار انحتّت السماء تماماً من ربقة الغيوم وأشرقت ، وفي نقاء صبر بهيج دارت فوق الأرض كأنها تتهادى ساكبة موجةً إثر موجة ألوانا صافية سخية . وراحت الطيور تلعب فيها ، تنطلق باسطة جناحيها وتغطس عميقاً في لججها سعيدةً بأنْ أُعطي لها أن تطير . تصاعدت من الأرض البليلة غلالة رقيقة من البخار الحليبيّ الأبيض ما تلبث أن تحترق تحت أشعة الشمس . كانت برك الماء تستعدّ لأن تحمضّ وكانت الدجاجات تحدق فيها باهتمام كأنها قرّرت أخيراً أن تتعلم السباحة ، وكانت الخنازير الصغيرة تسرح فيها دون أن تبرك مع هذا لعدم وجود حرارة ، بل كانت تعاين في أي مكان سيكون عليها أن تبرك لاحقا . ازدادت الخضرة في الأعشاب وفي الغابات إشباعاً وكثافة حتى درجة الاكمداد ، لكن بعد هذا الاسبوع من الطقس الرديء لم يضب الورق أيُ اصفرار — الصيف إذاً سيطول . والروائح الحادة والواضحة ، المتباينة في المطر ، اندمجت في تيار واحد عظيم من البخار مثلُه مثَلُ النهر لايمكنك أن تتبين فيه من أي ساقية هذه القطرة أو تلك .

بعد الغداء أخذ بافل الناس ليفردوا الأكوام ويجففوا الحشائش المبللة . لقد فعل المطر فعله خلال اسبوع . وكان أسوأ مافعله أنه حمل معه الحماسة والاندفاع اللذين بدأ بهما الحصاد : لنسلّم بأنْ ليس مما يمتع كثيراً أن تعيد عملاً قمت به ، لكن الناس كانوا يشعرون أنهم حتى حين سيعوّضون ما فاتهم فيما بعد، ويتابعون العمل — فإنهم سيعملون، حتى آنذاك ، من أجل العمل فقط وليس من أجل المتعة : بينما المتعةُ باللذات هي التي كانت في أول الأمر . أما الآن فجلّ مناهم الانتهاء بسرعة : أن يتدبروا أمر الأكوام ويقفلوا عائدين إلى بيوتهم : كفاهم عدم استقرار : رجلٌ هنا ورجل هناك ، آن لهم أن يركنوا إلى ضفة صلبة . بدا لهم منتصف أيلول الآن ، مع ضوء الشمس قريباً تماماً ، في متناول اليد . ومع هذا كم هناك من المشاكل والمشاغل المتعلقة بالرحيل فمن أين يأتون بالقوة والوقت؟ هاكم البقرة تسرح هناك في المرعى وهي لاتستشعر المصيبة : فماذا نفعل بها ؟ والذي كان عازما على الحصاد فكرّ الآن : متى ؟ أليس من الأفضل وضع رقبة البقرة تحت الفأس والانتهاء من كل هذا الهمّ والغمّ دفعة واحدة ؟

— كان يمكنكما مع هذا أن تذهبا حتى أثناء المطر وتعملا قليلا،— لامت داريا نفسها ورجليهْا وهي تتنهد برنة عاتبةً على أنهم لايفطنون إلا بعد فوات الأوان .

— كان هذا ممكنا،— أجاب بافل وهو يواري عينيه ويبدي بعض العصبيّة ، — لكنه لم يبدُ في الجو متى سينتهي المطر : كان يمكن أيضاً أن نغرق .

وحده اندريه لم ينقبض ولم يكتئب :

— سنحش ياجدة ، لماذا تقلقين ؟ يستقر الطقس ونحصد . يمكنني أن أبدأ حتى من الغد : سنجهّز ثلاثين حزمة في اسبوع . هل تكفيك (٣٠) حزمة للبقرة ؟

— إذا أغلت البطاطا ، لماذا لاتكفي :

— ستغلّ ، أين ستخفي ؟

انفرجت لهذه الثقة أسارير بافل أيضا :

— لعلّي أتفق مع شخص آخر أيضا : العمل بثلاثة أزواج من الأيدي أسرع . في الكولخوز لن يكون هناك عمل حتى وقت متأخر (كان مازال يقول « الكولخوز » بحكم العادة) .

— وحين تنتهون، القبور ياباڤل القبور ،— لم تنس داريا أن تذكره— ما لم تنقلوا القبور لن أدعكم تخرجون من متيورا . سأبقى أنا نفسي هنا !

نقل أندريه عينيه في دهشة وريبة من والده إلى جدته ومن جدته إلى والده : أحقا ما يقال من أنه سيكون عليهم أن يخلعوا القبور ويجرفوا من بقي فيها من الراقدين المدفونين هنا منذ زمن بعيد ، حتى قبل أن يوجد هو نفسه على هذه الأرض ؟ هذا العمل المقبل أفزعه ، بدا له فظيعا وشريرا ، لكنه كان في الوقت نفسه يغريه ويثيره : شيء طريف فعلا . طريف بالفعل أن تعرف إلى ما يتحول انسان رقد هنا في باطن الأرض ثلاثين ، أربعين ، خمسين سنة ، وليس أي انسان كان ، بل واحد من أهلك وعشيرتك : عمك أو جدّك . هل سيثير هذا فيه مشاعر خاصة لم يعهدها من قبل ؟ قد لايتهيأ له أن يرى فيما بعد ، فيما تبقى من حياته كلها، شيئاً ما شبيها بهذا . إنها حادثة خاصة لن تتكرر أبدا بالتأكيد.

لكن من المعروف أيضا أن الانسان يفترض ويتوقع وحسب . . .

ففي اليوم التالي استدعى بافل على جناح السرعة ودون أي مقدمات إلى البلدة بواسطة رسول : فقد دسّ أحد عماله في ورشة التصليح يده عن سُكرٍ أو سهوٍ في الآلة ، وأصيب بكساح دائم .

عرّج بافل على البيت قادماً من المرج حيث أرسلوا إليه سيارة ، وغيرّ ملابسه واندفع إلى الشاطىء دون أن يشرب كأس شاي ودون أن يجمع أغراضه . وصاحت داريا في إثره :

ــ متى ننتظرك ؟

ــ لاأعرف ، ــ أشاح بيده وهو يعدو مبتعداً .

كان أندريه يحش ذلك اليوم. منذ خمسة عشرعاماً ومرج آل بينيغين قائم في مكان واحد : على الضفة اليمنى البعيدة فيما وراء الحقول والمُدَر ، ولم يكن اندريه قد نسي الطريق إليه . خرج إليه وحده صباحاً حاملامعه زوّادة فيما لو تكاسل ولم يعد إلى البيت للغداء ، ومسنّا ليشحذ المنجل . كان قد أخذ معه منجلين ، فمساءً قبل حلول الظلام كان يجب أن يعرّج عليه أبوه ، لكنه لم يأت . ولم يعرف أندريه بما حدث إلا وهو عائد مع حلول الظلام إلى البيت . وبعد أن استمع إلى جدته قال لها بلهجة واثقة جعلتها هي نفسها تصدق ما قاله :

ــ سيعود صباحاً عن طريق النهر .

إلا أن بافل لم يعد صباحاً . انتظرت داريا وطال انتظارها ، ولمّا بدأت الشمس انحدارها ، كان صبر داريا قد نفد ، فهرعت إلى أندريه في المرج . كان الماء قد تجمعّ في الأرض الطينية بعد الأمطار : إذا ماأرادت أن تتجنبها فعليها أن تلفّ بعيداً وطويلا . واندفعت مباشرة دون روية وغاصت إلى مافوق ركبتيها في المستنقع البارد اللزج.خرجت

منه بشق النفس زحفاً وهي قذرة مبللّة كالجنية . ومع هذا اضطرت للانعطاف . كانت قد استنفدت قواها تماماً حين وصلت إلى المكان المقصود ، لكن أندريه لم يكن هناك . المنجل المغروز في الأرض كان ينتصب قرب الكوخ القديم ، المهلهل ، المغطّى بالعطان منذ أول عام استلموا فيه قطعة الأرض هذه ، والذي ظلّ حتى الفترة الأخيرة ينفعهم في دقائق الراحة أو المطر المفاجىء . أمّا المنجل الآخر المعلق على الغصن فكان يتدلّى على شجرة بتولا هي واحدة من ثلاث شجرات بتولا كان الكوخ يقبع تحتها . كان الكوخ يترَوي في الظّل فتنحت داريا عنه وجلست في الشمس على العشب المكوّم ، إذ لم يعرف الدفء طريقه إلى قدميها بأي شكل من الأشكال . خلعت حذاءها وأخذت تفركهما بيديها وتتلفت حولها .

لم يحصد أندريه قدر ما خبّص — واضح أنه فقد عادة العمل الفلاحي ، نسي وأضاع ما كان يعرفه . أغمار الحشيش كانت تنتفش عالياً ، ومن خلالها كانت تتمايل سوق العشب السالمة ، وكانت مقاطع الحش على شكل تموّجات . وأمعنت داريا النظر فرأت أن الأغمار ذوت وجفّت قليلا ، وهذا يعني أن أندريه لم يحصد اليوم إطلاقا أو أنه مرّ سريعاً بثلمين أو ثلاثة . إعتصر داريا شعور مرّ ، كريه : لا ، لن يكون شيء مما عزمت عليه ، لن يكون هناك شيء يستحق أن يؤمَل فيه . كل شيء « على الفاضي » .

صاحت داريا تنادي أندريه المرة تلو المرة حتى أتاها الجواب . إنسل أندريه من بين شجيرات الحور على الضفة العليا من النهر على بعد نصف فرسخ منها وفي يده قدرٌ يلوح فيه شيء ما أحمر زاه .

وحزرت داريا : كان يجمع الحمّيض . ياالهي ! مازال طفلا ، إن تغفلْ عنه تراه صار بين الشجيرات حيث الثمر البرّي . . .

وكيف يعيش بعد هذا وحيداً !

لكنها إنما جاءت إلى هنا لتنتزعه من عمله . فقد ضنيت في هذا اليوم ، وحين سمعت أنهم يعدون زورقاً للإبحار إلى البلدة لإحضار منتجات مختلفة فطنتْ فورا : فليذهب أندريه ويتقصّ ما حدث لأبيه هناك . له الله ، الحصاد هذا ، يأتي بافل فيحصدون ما يلزمهم، وإن لم يأت فأندريه وحده ليس بوسعه على أي حال القيام بهذه المهمة . لكنه لم يكن يساورها إلا قليل من الشك في أن الحصاد الحالي سينتهي عند هذا . ماقولها الحالي ! لن يكون بالنسبة إليها أي حصاد آخر بعد الآن . هذا عمل آخر في الحياة أُغْلق إلى الأبد . وهل هو وحده ؟ ودون أن تستمع إلى أندريه الذي أراد أن يخبىء المنجلين بين الشجيرات على أمل العودة ومتابعة الحصاد تناولت بحزم منجلاً ووضعته على كتفها وناولته الآخر وقفلت عائدة وهي تقول في سرّها انه يجب عليهم أن يتحينوا فرصة ويعودوا إلى هنا لوداعها . الأرض في متيورا كلها أرضهم، لكن هذه أقربها جميعاً إلى القلب والوجدان : كم بُذل فيها من جهد وكم سُكب فيها من عرق ، لكن كم من الفرح انتزعوه منها وعاشوه !

غادر اندريه بالنهر واختفى . ولكي تشغل داريا وقتها في انتظاره أخذت تنكش في الحاكورة : ارتفع العشب كثيفاً بعد المطر واغتسلت البطاطا وشبّت أوراق المزروعات في غير انتظام فتوجب عزقها ثانية : فبعد أسبوع من الريّ الغزير ثم الدفء نمت الكمثري بشكل جيد وبوفرة : اقطف ولو مرتين في اليوم . وكانت داريا تقطفها آسفة في

الوقت نفسه أن ليس هناك من يأكلها ومتذكرة ذلك الوقت الذي كان فيه أبناؤها ثم احفادها يكادون يحرسون كل واحدة منها ويتوزعونها وهي بعد على غصنها فيما بينهم : هذه لك ، وهذه لي . . . هل كان هذا من زمن بعيد ياترى ؟ لا ، البارحة . لقد قالت لأندريه أثناء حديثهما حين حاصرها بأسئلته ان الانسان يعيش في هذه الدنيا قليلا . وبالفعل ماتكاد تلتفت حتى تكون الحياة قد مضت . لايمكنك أن تعتمد إلا على ثلاثة أيام : البارحة واليوم وربمّا الغد إلى حدّ ما .

بعد أن ظهر في الحاكورة ما يُنْقَر انسلت الدجاجات إليها وحطت طيور السماء . قررت داريا أن تنصب فزّاعة . صالبت عصاوين وشدت عليهما تنورتها العتيقة الرثة ، وإذ لم تجد قبعة ربطت من فوق خرقة وسخة . ودهشت بغتة بعد أن ابتعدت قليلا ولم تعد ترى وراء الأوراق الجذع المغروز : إنها هي بالذات ، هي نفسها . . . لو تقف هكذا وسط مسكبة وتبسط يديها ، فلن تجسر أي دجاجة أو أي طائر على الاقتراب ، وظلّت مع هذا تبحث وتسأل نفسها مَنْ تشبه أيضا . . . ياربّ يارحيم ! أم هذا ما يجب أن يكون ؟

لم يعد أندريه إلاّ في اليوم الرابع . أخبرها أنهم يجرون أباه من لجنة إلى لجنة وان هذه القصة لن تنتهي قريبا . . . وأنهما قررا التوقف عن الحصاد . لكن داريا لم تكن تفكر الآن في الحشائش المجففة فقد تملكها الذعر .

ـ وهو ما دخله ؟ إنه لم يكن هناك ، بل كان هنا . لماذا يجرجرونه ؟

ـ إنه مسؤول عن تقنيات السلامة .

ـ وما الذي سيحدث له الآن . . . بسبب هذه السلامة؟. كانت

داريا قد اقتنعت في وقت مبكر من حياتها أن المساءلة الانسانية كثيراً ما تكون غير متبصّرة : مَنْ يشار إليه بالإصبع فذاك الذي يُدْمغ ويُحاكم ، وان الذنب كثيراً ما يلصق بالإنسان على العمياء .

ـ لن يحدث شيء ، ـ أجاب اندريه بثقة كعادته . يجرونه قليلا ، يوترون أعصابه ثم يوجهون إليه تنبيهاً تحسّبا لأي طارىء ، وهذا كل ما في الأمر .

ـ هو الذي قال لك هذا :

ـ هو . وأنا أيضا أعرف . إنها شغلة معروفة .

كان قد عزم على الرحيل ، لكنه لسبب ما أخذ يبرّر عزمه لداريا ، مبينا لها أنه يستحيل التأجيل وأنه قد يخرج من الخدمة مجنّد فيأخذ مكانه ولن يكون سهلا عليه فيما بعد أن يجد عملا . لكن داريا لم تكن تفكر في ثنيه عن عزمه ، فلم تذكره بالحشائش ولا بالقبور : كان كل شيء يجري كما خمّنت : في مساء هذا اليوم دبّ إليها بوغودول وجلس طويلا صارفاً أسنانه على اندريه الذي كان يرمق بدوره العجوز بنظرات مغيظة لاتبشّر بالخير : جلس ثلاثتهم يشربون الشاي ، لكن اندريه مالبث أن هبّ من وراء الطاولة واقفا وأخذ يرتب حقيبته وهو يصفر ويدندن غير مخفٍ فرحته بالرحيل :

في السابق ما كانت داريا لتطيق الصغير : « لمن تصفر ، لمن تصفر ياكذا وكذا ؟ لا . الآن بات الأمر سيّان . فليصفروا ولايتركوا أحداً من صفيرهم : تنحنح بوغودول مستاء من صمتها ، من صبرها على ما يجري لكنها تظاهرت بأنها لا تسمع ولا تفهم هذه الإشارات .

سألها اندريه باستنكار بعد أن غادر بوغودول مغتاظاً منها وساخطاً عليها :

— لماذا تستقبلينه ياجدة ؟ لماذا لاتطردينه عنك ، وحش كهذا ؟ إنه ليس انساناً بل وحش .

— لماذا ليس انسانا ؟ — أجابته على مضض وكان صوتها يحمل رنّة تعب وأسى لاطاقة لها بهما — إنه انسان .

— أي انسان هذا ! انظري ولو مرّة بانتباه إليه ، إلى سحنته ، إنه يخور ويهمهم كالحيوانات .

— وأنا أفهمه دون كلام ، وهو أيضا يفهمني . أنا ياأندريه أبحث الآن عن ندّ لي وليس عن أي كان : وهل أنا أفضل ؟ لن يبقى قريباً من هو قادر على فهمي .

صباحَ المغادرة ساءَ داريا أن أندريه أخذ يودّعها في البيت ولم يرغب في أن ترافقه حتى الزورق ، لكن داريا رافقته مع هذا حتى النهر . إنما كانت هناك إساءة أخرى أشد وآلم ، إساءة لايمكن ذكرها لأنه ليس لها كلمة مناسبة : هذه الإساءة يمكن أن تعذّبك فقط كما تعذبك الكآبة : أو أي مرض لاتدري مكانه وماهيته . إنها تذكر جيداً : من البارحة حين وصل وحتى هذه الساعة وهو يغادر لم يخرج أندريه إلى أبعد من الحوش . لم يطف بمتيورا ، لم يأس سرّا لأنه لن يراها بعد اليوم أبدا ، لم تتحرّك نفسه . . . مع أنه يوجد على هذه الأرض التي ولد فيها وترعرع ما يمكن أن يحرّكها ويشدها إليه للمرة الأخيرة ، بل أمسك بيده حقيبة وهبط من أقرب طريق إلى الضفة وأدار المحرّك .

الوداع أنت أيضا ياأندريه ، الوداع . لاقدّر الله أن تبدو لك حياتك سهلة .

ومالبث أن اختفى بتروخا من جديد دون أي تفسير ،وانتقلت كاترينا إلى بيت داريا ثانية .

أقبل الآن شهر آب ، شهر النضوج . نضج ما في الحواكير وفي الحقول والغابات ونضج ، كما المرأة ، نهر انغارا ولم يعد أحد يسبح فيه بعد عيد النبيّ إيليا، لأنه لايجوز ، لأنّ «الوعل بوّل فيه» كما تقول الحكايات الشعبية .بهتت السماء وصارت تبدو حتى في الأيام المشمسة ثقيلة موهنة . لم يعد الطقس يتحامق ، بل بات دائم الريح ، جافا ، لكنه كان يشعر فيه بالدفء: في الليل كان الجوّ باردا والنجوم تضيء بسطوع ولمعان ، وكثيراً ما كانت تسقط وتحترق في طيرانها مخططة السماء بأشرطة نارٍ وداعية ، وكان شيء ما يتقطع في النفس ، ييتّمها ، يقبضها . وفي الصباح ، بعد الليالي المرنانة بشكل خاص كان يندفع ضباب رمادي عكر يقف بمحاذاة الضفتين دون أن يبسط جناحه على نهر أنغارا . وبدت الأيّام ، التي قصرت بشكل ملحوظ لكنها لم تفقد بعد قوتها وعزمها ، مليئة ومرصوصة بحيث تستوعب أكثر مما تستطيع حمله .

وبالفعل كان يحدث ماهو أشبه بالانسداد ، فمرتين أو ثلاثاء عند المساء توّعد الرعد في مكان ما بعيد وراء السماء لكنه هدد وتوعد وحسب ، ولم يصل الأمر حدّ المطر والهيجان .

كف الحصادون عن الحصاد : كانت ثماني أكوام كبيرة تنتصب في المرج . لم يقدم على الحصاد إلا بيتان من كل بيوت القرية : آل كوشكين أو كوتكين الذين تحرّكوا بأسرتهم الواحدة الكبيرة المتحابة كلها وأمنّوا بيسر وسرعة مايكفي بقرتهم وجاره داريا فيرا

نوساريفا . أما هذه فامرأة متهورة بالفعل : في المطر وفي الليل ودون كلل أو ملل ودون مساعدة أحد كانت تحش وتحش وحدها إلى أن أمنت لبقرتها مايكفي ويزيد . وحدها تقريبا لأنه لا يرتجى كبير نفع من ابنة في الثانية عشرة من عمرها ، وحدها تقريبا حصدت وكوّمت أما الناس فمن احترامهم ودهشتهم لعناد فيرا ومثابرتها ساعدوها فيما بعد العمل العام في التشليل . ومع ان فيرا قامت بواجب الضيافة بعد التشليل ، إلا أنه كان واضحاً ان الكولخوز لم يتقاطر بناسه على حشائش فيرا من أجل الضيافة بل من أجلها هي التي قرّرت رغم كل شيء وكأنما تأنيباً لهم الا تتخلى عن البقرة ، وأن تدافع عن حقها في أن يكون للأطفال حليبهم الخاص ، الذي لايُشرى . كانت داريا وهي تنظر إليها تفكرّ وتلوم نفسها على أنه كان عليها هي أيضا أن تحاول الامساك بالمنجل . إذّاك كان سيتضح . . . إذّاك ربما كان أندريه تريث قليلا وما كانت تلك القصة نزلت على رأس بافل . ولعل هذه القصة حدثت لأنهم تفكروا وترووا كثيرا ، أكثر مما ينبغي . ولماذا لايحصدون في المطر ! لن يصيب العشب الأخضر منه مكروه ، وأفاقت إلى نفسها – ليس لها هي أن تقول هذا . آه ، مانفعها إن عاشت ثمانين سنة وأكثر ولم تفهم بعد هذا ؟ ؟

كانوا يقلعون البطاطا الفتية ويقلونها بالزيت يصبونه بغزارة كأنما تعويضاً عن كل السنوات المتبقية إنما المتوقفة بغتة . حيثما تنتصب صنوبرة أو سروة فهناك حتماً زيت مترسّب بكثافة . وانتفخت فطور الصنوبر والسرو لكن هذه كانت تنمو بتؤدة وتأنق دونما عجلة أو ضجيج . وعلى العموم كان هذا الصيف الأخير غنياً بالثمار البرية والفطور كأنما كان يعرف أنه الأخير . فبعد الحّميض نضج على الضفتين عنب الثعلب

الأسود . وذات يوم خرجت داريا إلى البرية وفي لحظة جمعت سطلا كبيرا . جرّت السطل إلى المقبرة بصعوبة وودعته هناك عند قبور أهلها بين الشجيرات . وفي المساء عادت مع كاترينا وحملته إلى البيت . وأكثرت النساء والأطفال من التردد على بودموغا ، فهناك كانت تنمو العنبيّة وكانت تنمو بوفرة . وفي السنوات الأخيرة صاروا يقطفون « الكبّوش الغرابي » وهو نوع من الياسمين البري يساعد جيدا ، حسب الروايات ، في معالجة ارتفاع الضغط ، لكن بما أن الشيوخ لايعرفون ماهو الضغط ومع أي شيء يؤكل فظلّوا كسابق عهدهم لايضعون في فمهم هذه الكبوش البرية المرّة التي تحب المحتطبات والزبالة والتي لاتنبت حقاً إلا من أجل الغربان . وحقيقةُ أنها تحاكي العنبية وليس لها نوعها الخاص الخالص لم يكن في صالحها . حتى اسمها غريب ، مائع ومريب إلى حدّ ما ، لم يعرفوا به في متيورا من قبل . أما عنب الثعلب أوبطمة الشمال أو عنب البقر فشيء آخر ، لايمكن بأي شكل من الأشكال الارتياب في أصلها . صحيح أن عنب البقر في الجزيرتين ، هذه وتلك ، كان قليلا وكانوا يقطعون النهر إلى الأراضي القديمة المحروقة ليأتوا به . لكن وقت عنب البقر لم يحن بعد . هذه هي ثمرة الثمار التي لاتقارن بها ثمرة أخرى ، والتي لم يجرؤ أحد أبداً أن يسميها الغرابية أو الدببية .

كانت داريا تنتظر كنتها سونيا . كانت تقول في نفسها إنها ، سونيا ، قد تأتي وتسعى وترتب وهي ، داريا ، تطبخ . لكن لا ، سونيا لم تأت . الظاهر أن الحياة في مكانها الجديد طابت لها . لكنها لاتعمل طوال الوقت . . . تبأ لهم ، فليفعلوا كما يشاؤون ، الحياة حياتهم . إنما جاء بافل في الاسبوع التالي وقد تخلّص من قصته ومن رئاسته

للفريق وجلب معه شايا وسكرا للعجائز . قال إنه سيعمل من الآن فصاعداً على الجرّار ومضى إلى الحاكورة فحمّل منها أشياء كثيرة مختلفة وأبحر عائداً في زورقه دون أن يكمل نهاره . خرجت داريا إلى أعلى النهر خارج القرية ونظرت طويلاً إلى قامته المحدودبة في الزورق ، الجامدة المرتدة كأنما اتقاءً لضربة وراودتها فكرة قاتمة مضنية : لا ، أمر بافل ليس في يده . وليست سونيا هي التي تديره ، فهذا أمر لايسمح به ، بكل بساطة الحياةُ أخذتهم جميعا في دوامتها وجرفتهم إلى مكان مجهول ولاتترك لهم مجالاً حتى ليلتفتوا . . . قليلٌ من بات يمشي بخطوته الطبيعية . هل أذهب إلى ابني الثاني ايفان في مؤسسة الأخشاب . وماذا هناك ؟ صحيح أن ديرتهم ليست بعيدة لكنها غريبة . والناس فيها غرباء والأشياء غريبة ، ولست تدري إن لم يكن صار هو أيضا غريبا . لعلّي أذهب أوّل الأمر في زيارة وأرى ماهناك؟ لا، عليها قبل أي شيء أن تودّع متيورا وتشيعها. تشيعها، وبعدها فأفضل ماتفعله أن تمضي إلى هناك ، حيث أهلها وأقرباؤها أكثر عشر مرّات من هنا. وبذاكرة علوية منزلقة أخذت داريا تتذكر رغم إدارتها وتعد اولئك الذين هناك . وفجأة تذكرت عجوزها ميرون . تذكرت وجمدت من الخجل : لقد صارت تنساه ، إنه لايرد على بالها إلا نادراً ، نادراً جدا . ياإلهي ! ماأسهل مايفترق الواحد منا عن أهله الأقربين ، وماأسرع ماننسى مَنْ ليس من ابنائنا : الزوجة تنسى زوجها ، والزوج زوجته ، الاخت تنسى أخاها والأخ اخته . عند دفنه ينتفون شعورهم ويمزقون ثيابهم حزنا ، ولايستطيعون الوقوف على أقدامهم . لكن تمر نصف سنة ، سنة فإذا بذلك الذي عاشوا معه عشرين ، ثلاثين سنة والذي انجبوا معه

الأولاد ولم يتصوروا أن يفترقوا عنه يوماً واحداً يصبح نسيا منسياً ، وكأنه لم يكن . ماهذا ؟ هل هذا ما قُدّر على الانسان ، أم ان الانسان تحجر تماما ؟ حتى أولاده الذين يرقدون قبله تراه لايتألم عليهم إلا لأنه يشعر بذنبه : كان من واجبه أن يحافظ عليهم ولم يفعل . أما مع الآخرين حتى ولو كانوا من أب واحد وأم واحدة فقد التقى بهم عن طريق المصادفة أو غير المصادفة ، مكث معهم قليلا ، تحدث إليهم ، لعب معهم لعبة القربى وافترقوا – لكلّ طريقه . لا ، متوحش ، متوحش الانسان . الحيوان لايستطيع أن يفعل مثله . الذئب الذي يفقد حليلته يأبى الحياة بعدها . . .

كان لدى داريا تبرير واحد فقط ، هذا إن بحثت عنه – لم يكن لميرون قبره الذي يمكنها أن تجلس عنده وتخفف عما في نفسها، تبكي متذكرة ما كان ومتصوّرة ما كان يمكن أن يكون . خرج في الخريف إلى التيغا فيما وراء نهرهم اغنارا واختفى . خرج ولم يعد كأنما انشقت عنه الأرض وابتلعته . ولم تقل لها نسْمةٌ ماحدث له . عندما حان للمرة الثانية الوقت الذي كان يحضر فيه لأخذ طعامه ارتعبت داريا رعبا عظيما وهرعت تطوف بالقرية تدعو رجالها إلى تجهيز انفسهم للبحث عنه حيث كانوا يعرفون أنه يعمل ، وكان لها ماأرادت . لكنهم لم يعثروا له على أثر . ونفق معه كلبان ، ثم احزر بعد ذلك أي ميتة تلك التي ماتوها جميعا ! لم يكن عجوزا ، فهي الآن إذ تقيسه بأعوامها تقول عنه « عجوز » أما وقتها فكان لايناهز الخمسين إلا قليلا أي كان في عزّ رجولته – في عمر بافل الآن تقريبا ، لكن لايمكنك مقارنته ببافل : فالأب كان أقوى ، وأكثر حيوية وأصلب عودا ، أم ان هذا مايبدو لها الآن فقط ؟ أشياء كثيرة مما حمله الزمان والذاكرة المتعبة غير الموثوقة

كانت بالفعل غير ماتبدو الآن . ها هي ذي تذكرت ميرون ، لكنها تذكرته بهدوء وسكينة ، لم يتحرّك قلبها ،بل ظل جامدا . تجمد ولم يعد يتألم إلا لما هو قريب ، لما هو بجوار يومها هذا — أي لمتيورا إياها . . . أو حقاً سيذكر الناس الذين سيبقون ، سيذكرون متيورا ليس أكثر مما يذكرون ثلج العام المنصرم ؟ إذا كانوا ينسون أهلهم بهذه السرعة . . .

« اغفر لنا يارب ، إننا ضعفاء وغير ذكورين ، ونفوسنا خربة ،

— فكرت في دخيلتها . الحجر لايسأل لأنه حجر أما ابن آدم فيُسأل . أم إنك تعبت من السؤال ؟ لماذا لاتصل اسئلتك إلينا ؟ اغفر لي ، اغفر لي يارب أني أسأل . أنا في وضع سيء ، وأنت لاتدعني أرحل . أنا لاأسير على الأرض ولا في السماء ، بل أقف كالمعلّق بين الأرض والسماء : أرى كل شيء لكني لااستطيع أن أفهم مايجري . أدين الناس لكن من أعطاني هذا الحق ؟ هذا يعني أني اجتنبتهم وابتعدت عنهم، وأنه آن لك أن تأخذني . آن الأوان . آن . . . أرسل في طلبي يالهي ، أتوسل إليك أنا هنا غريبة عن الجميع . خذني إلى أهلي . . . اولئك الذين أنا أقرب إليهم » .

كان نهر انغارا يجري في لألاء من أشـــعة الشمس . وكان الوقت يجري في هسهسة خفيفة تبعثها نسمة علوية . وكانت متيورا ترقد وراءها مغسولة بالماء من المجريين ، وكانت السماء ترتفع عالياً فوق الرؤوس . رائعة إذاً الأرض تحت السماء مادامت السماء ذاتها بمثل هذه الروعة والجمال . إن أوقفوا انغارا فالزمن لن يتوقف ، وما بدا أنه حركة واحدة سيتناثر أجزاء . ستغوص متيورا تحت الماء ، ومع هذا ستظل السماء تشرق وتحتفي بالنهار الصافي والليل الصافي . « وماشأن السماء

بمتيوزرا ، — كانت داريا تصوّب أفكارها ، — هذا شأن الإنسان . إنها بين أيدي الناس وهم بها يتصرفون » . ومع هذا كان شيء ما في أفكار داريا السريعة والعفوية كأنما المتدفقة عليها من جانب والغامرة لها يتقطع ، كانت تنقصه علاقة ما ، رابطة ما ليصير شيئا مكتملاً ومفهوما . وكانت ما تني تلح عليها مع هذا فكرة مقطوعة ، قصيرة وعنيدة :

انغارا يجري والوقت يجري . . .

وأحست برغبة في أن تناقش شخصاً ،أن تبرهن له فكرتها مع علمها أن الحقيقة ليست إلى جانبها .

سألت داريا مساء ذلك اليوم كاترينا وهي تخلد إلى النوم :

— ألم يحدث لك أن لا أحد حولك ، ومع هذا فكأنما هناك شخص ما يكلّمك ؟

— من الذي يكلّم ؟ — ردّت كاترينا مذعورة .

— لا أدري . اليوم صحوت إلى نفسي فإذا أنا أتكلم بصوت مسموع . كأنما كان شخص قربي . كان يسألني وكنت أتكلم معه .

— ياسيدة السماء ! عمّ كان يسأل ؟

— عن أشياء كلها غامضة وثقيلة . لكني لا أستطيع أن أقول ما هي بالتحديد . الظاهر أني أجنّ . لو يعجّل ، لو يعجّل إليّ . . .

* * *

– ١٦ –

كانت هذه الأيام الأخيرة التي وإن كان لايمكن القول إنها هادئة ، إلا أنها كانت مع ذلك مسالمة كأنها أيام بيتية . ثم دهم القرية لجني الموسم جمهرةٌ من المدينـــة من نحو ثلاثين شـــخصا كلهم ، ماعدا ثلاث نساء شابات إنما متآكلات قليلا ، رجالٌ شبّانٌ كلهم أيضاً ومتهوّرون . في اليوم الأول بعد استيلائهم على متيورا وتنشقهم نسيم الحرية شربوا حتى سكروا وتعاركوا فيما بينهم واضطروا إلى إرسال اثنين منهم في اليوم التالي إلى الطبيب . وفي اليوم التالي أيضا علا صياحهم وضجيجهم وهم يتناقشون فيمن منهم المحق ومن منهم المخطىء ، ثم جهزوا زورقاً ليذهب إلى المخزن لجلب كمية إضافية من المشروب ، وعند المساء شربوا الكمية الإضافية لكن على نحو أهون ، دون عراك . كان حسب متيورا يومٌ واحد حتى تصاب بالذعر حتى الموت : قليلٌ من بات يمدّ أنفه إلى ماوراء سياج بيته إلا لحاجة ماسة ، أما الدائرة التي نزل فيها هذا القطيع فكانوا يحاولون تجنبها عن بعد فرسخ . وحين طرق شابان منهم باب داريا كادت هذه ترتمي على ركبتيها : ارحماني ، لا تهلكا نفساً مسيحية . لكن الشابين سألاها بعض البصل . بل إنهما دسّا في يدها بعض المال لقاءه وذهبا . وصارت داريا تميّزهما حين تذكرهما عن باقي الفرقة . وحده بوغودول الذي لايخاف الشيطان ولاغير الشيطان كان يتسلل كأنما قصدا إلى الدائرة ، ويتفحص الوافدين بتمعن وباستنكار .

وكانوا هم ، وهذا كان يحسّ به كل ذي عينين ، يشعرون ببعض الخوف منه على الرغم من أنهم كانوا يتحرشون به ويتندرون عليه : ليس إنساناً هذا بل عفريت . أقليل مايمكن أن يجول في رأس شخص كهذا . حافي القدمين ، أشعث الشعر ، أحمر العينين ، ذو يدين هائلتين كيدي القرد ونظرة قوية مخيفة ، كان يوحي بالاحترام من حيث لايدري ، وحين قال أحد أهالي القرية إن في رقبته خطيئة وربمّا أكثر من خطيئة قتل واحدة صاروا يشاكسونه أقلّ . لكنهم أضافوا إلى لقبه السابق لقبا آخر « رجل الثلج » مما كان يجعله يخور ويلعن ويشتم كما هو المفروض في « رجل ثلج » نازل من الجبال .

سواء لحسن الحظ أولسوئه إلا أن الوافدين تحرّكوا مع هذا . عملوا شيئا وصار القمح يتجمع شيئا فشيئا . لم يكن بوسعهم أن يشتغلوا كما ينبغي : فالرزق ليس رزقهم وبالتالي ليس لهم أن يتعبوا أنفسهم بسببه . لا أحد على أي حال يبقى دون قمح اليوم . وفي كل الأحوال هذه الأرض تلد الآن لآخر مرّة وكان ممكنا ألا تلد هذه المرة أيضا ، الأمر سيان . . . كان أحدهم يغادر ، فيأتي آخر مكانه ، وكان القارب يروح ويجيء إلى البلدة والمخزن كل يوم تقريبا . كان المزروع في هذا العام أقل كثيرا مما في سنوات الكولخوز السابقة ، وكان يمكن لأهل القرية أن ينهضوا بهذا العمل بقواهم الخاصة ، إنما لسبب ما أعطي هذا الالتزام لهؤلاء . . . أما أهل القرية فقد انتقلوا من جديد ، بعد أن انتهى الحصاد ، إلى البلدة بانتظار موسم البطاطا والانتقال النهائي . ومن جديد لم يبق في القرية يحرسها إلا النساء العجائز . كنّ قبل أن يخرجن من البيت يبصبصن من شق السياج إن كان كل شيء هادئاً هناك ، وفي الطريق

كن يسرن متسللات ، وفي البيت يجلسن بهدوء وشبه صمت ، وفي الليل يقفلن على أنفسهن بكل المغاليق .

وكان الوقت يجري . نهارٌ يعقبه ليل فإذا بيوم يمضي ، وبمضيه يزداد الخريف قرباً لا راد له . كانت الصباحات باردة وكسولة ، وكانت الشمس ترتفع عاليا . وكانت تنطلق من الدائرة حيث لاتدري إن كانوا يتشاتمون أو يتضاحكون أصوات عالية وفاحشة . وكانت تظل تهدر هناك طويلاً سيّارة مشغّلة إلى أن يركبوها ويغادروا . بعد هذا تأخذ تلوح في المطعم الميداني وراء الدائرة النساء اللواتي كان يصعب تمييزهن من نظرة جانبية : فثلاثتهن حركات ضاجّات صاخبات يلبسن سراويل رجالية ، وثلاثتهن كالأخوات التوائم قصيرات ولحيمات . إنما كان يقال إن إحداهن زوجة واحد من الموجودين هنا ، أما الاثنتان الأخريان العازبتان فكانتا تؤديان عملاً ليس باليسير هنا . قبيل الغداء كان ينسل من الباب شاب من الشباب متخلّف عن أقرانه العمال لاتدري إن كان ثملاً أو مريضاً ويزر عينيه في وجه الشمس وهو يهرش رأسه ويتثاءب ويمضي لقضاء حاجة ثم يفكر فيما يفعل — هل يعود إلى النوم ثانية أم إلى الحياة ؟ وهنا تحيط به النسوة اللواتي كنّ ينطرنه ويجبرنه على الاحتطاب وجلب الماء من البرميل والخدمة في المطعم . ومن هناك من المطبخ ما تلبث أن تسمع جلبة وخبطات وضحك .

كانت تأتي أيام تلفح فيها الشمس وينسكب الهواء المسخّن أمام العينين مشبعاً ببعض المرارة المنبعثة من النفس الجاف والناضج للأعشاب والحبوب ولكل ماحمل الموسم . ومن الحقول كانت تتناهى طقطقة الحاصدات لطيفة وكأنها ليست طقطقة آلات . على إحدى هذه الحاصدات كان يعمل شاب من أهل متيورا من عائلة كوشكين وعلى الثانية أحد

الوافدين . كانوا قد جاؤوا إلى الضفة اليمنى ، الأسهل للشحن والأقرب من مرج آل بينيغن ، بعبّارة حملت معها إلى الجزيرة آلية أخرى وجرّارا ، وكانوا يهيلون فيها الحبوب من الحاصدتين . واقتنى السوفخوز مع آخر الصيف زورقاً آلياً ، كما كان هو الذي اقتنى العبارة من قبل . وكان الزورق هو الذي قطر العبارة إلى الشط ، كما باتوا ينقلون الآن فيه المواد التموينية للوافدين ويجرون بواسطته أي اتصال بين منيورا والبلدة . ولخوف النسوة من الأغراب استغللن وجود الزورق فأخذن يخلين القرية من الحيوانات الصغيرة — الدجاج ، صغار الخنازير ، الخراف . هذا هو المألوف : يكفي أن تبدأ واحدةٌ حتى تتبعها الأخريات . صارت القأقأة والازيز والثغاء تعلو كل يوم . أما البقرات فما زالت تسرح إلى حين . فلها كما لأكوام الحشائش كان الفلاحون يبنون منصة خشبية عائمة من طبقتين للشحن .

واضح ، واضح ، إنها النهاية . . . المهلة المقررة ان تتأخر والناس لن يتوانوا . انظر كيف انهمكوا في العمل وكم من السواعد جاؤوا بها إلى هنا .

وهبطت على بودموغا حيث لاتوجد حقول بل مراع وأحراش فرقة أخرى — من هيئة تصنيع الأخشاب . صدر أمرٌ بأن تساق القطعان كلها إلى متيورا في يوم واحد . ومن حسن الحظ أن الماء كان ضحلاً في الرافد . واستعرت بودموغا — اندلعت النار في كل الأبنية الخشبية القديمة المعدّة للقطعان ، ثم شبت النار في الأحراش . كانت ريح واطئة تحمل معها كل ما كان من دخان إلى متيورا — كانت السماء تحجب أحيانا ، وكانت الشمس تغوص ثم تطل هنيهة على شكل قرص شاحب . وكانت الحيوانات تقبع عند المعالف مطلقةً أصواتا متنافرة ،

وكانت الأبقار السوفخوزية ، المتبقية من الكولخوز ، تتراكض في أنحاء الجزيرة مطلقة خواراً مزعجاً يتألب بعضها فوق بعض وتضرب الأرض بأقدامها وتُسقط الرغوة من شفاهها . أما الجياد ، وقد بقي منها القليل ، فكانت تتصرف بهدوء أكبر ، لكنها كانت هي أيضاً تخاف الأرض وتلتصق بالماء . وكان أهل متيورا يرفعون صوتهم بالاستنكار :

— ماهذا الذي يفعلانه ؟ ماهذا الذي يفعلونه ؟ مالهم لاينتظرون قليلا ! هكذا ، لن يطول الأمر بمتيورا حتى تشتعل . جفاف فظيع . . . والأكوام ما زالت هنا ، القمح أيضا هنا . تكفي شرارة واحدة !

أما الغرباء — ومَنْ غيرهم ؟ — فأجابوا بإضرام النار في المطحنة . إمّا بأمر هادىء من أحدهم ليطهروا الأرض دون ضجة وإمّا ليس بأمره بل تهوّراً وطيشا : لابدّ لها أن تحترق ، فلتحترق ، سنرى . مالنا نبلع دخانا غريبا ، نحن سنبعث دخاننا وبجلبة ومع نار مشبوبة ! وبعثوا دخانهم ! خرجت داريا إلى الطريق مساء وفغرت فاها إذ رأت هالة عالية ، ولم تكن هذه الهالة من الجهة التحتانية ، من جهة بودموغا بل من الجهة الفوقانية التي إلى يسار القرية . لم يكن هناك مايمكن أن يحترق إلا المطحنة. قفلت داريا عائدة إلى بيتها على عجل وأخذت تهزّ كاترينا المخلدة إلى النوم :

— هيّا بنا نودعها . هناك كلُّهم أغراب . أي حال هناك حالها بينهم . لن يذكرها أي منهم بكلمة طيبة ! هيا بنا يا كاترينا .

— إلى أين ؟ عم تتكلمين ؟ — أجابت هذه مذعورة : فقد صارتا في المدة الأخيرة تخافان من كل شيء ، تتجمدان من كل طرقة ، ترتعدان من كل كلمة مباغتة — ألن تحمل معها هذه الكلمة مصيبة ؛ أليست نذير سوء ؟

ــ أشعلوا النار في المطحنة ، كانت المسكينة تضايقهم ! كم طحنت لنا من الحبوب ! جهزي نفسك ، على الأقل نظهر لها . دعيها على الأقل ترانا قبل أن تموت !

وبالفعل لم يتجمهر في المدخل قرب المطحنة إلا الوافدون . ماالذي تفعله النار الملتهمة بالناس ولماذا تؤثر فيهم هذا التأثير الفظيع ؟ كان الوافدون كمن أصيب بمس : ينطون، يصرخون. يلقون بأنفسهم تحت اللهب متبارين من يقفز أطول ويحتمل أطول ، ويتمرجل ، أكثر ثم يتراجعون إلى الوراء في زعيق بعد أن يعييهم الحرّ ويسقطون على الأرض الملفوحة الداكنة . وكانت النساء أو على الأصح كانت هنا اثنتان فقط من النساء الثلاث ، وكانتا تزعقان حين يدفعونهما نحو النار على سبيل التخويف وتلوحان للرجال بقبضاتهن وتخبطانهم على ظهورهم راضيتين ، مغتبطتين سعيدتين . تسلّق أحد الشبان ، وكان مازال فتياً تماماً ، أرعن ، شجرة بتولا وراح يزعق من هناك بمواويل وهو يحرّك رجليه مشدوها بالنار. نبحت عليه من الأسفل كما على حيوان كلبة هي أيضاً خرقاء أصابها مس من كل مايحدث هنا . كانوا يشيرون إلى الشاب وإليها بأصابعهم ويتلوّون من الضحك . راحت الكلبة ، وقد أدركتْ أنها تعجبهم ، تجتهد أكثر فأكثر . شيء مسلّ ، مسلّ . . . على شجرة البتولا كانت الأوراق تلتوي وتتكرمش، والفروع الثقيلة التي من الناحية الحارة تسقط، وكانت البتولا تبدو في الهالة الساطعة شفّافة ، بلا لون. ورقيقة شفّافة أيضا بدت وجوه الناس .

كانت النار تشتعل مرسلة فحيحاً فظيعا صادراً من الداخل . وكانت الريح تلوي رأس اللهب العالي من فوق وتقطعه ، وكانت رقع السخام تندفع بعيدا ! وكانت داريا وكاترينا تقفان جانبا مقابل الحائط الجانبي

تخفيهما الأغصان عن الناس الغرباء ، كي لايراهما أحد بل لتراهما المطحنة فقط . كانت المطحنة قد ضاعت كلها في النار . وكان يخيّل للمرء أن النار وهي تلعب ترفعها فوق الأرض حينا وتهبط بها حينا ، بل كان يمكن أن يعتقد أن هذا اللهب الضخم المحموم يمكن أن ينخلع من مكانه عمودا ويعلو ويحلق ، يحلق فوق انغارا مخيفا الناس ومحتفيا بفرحته الشيطانية الصاخبة .

لم تسمع العجوزان الغريب الذي دنا منهما ، وكان هو أيضا من الوافدين لكنه كان تجاوز سنّ الشباب يرتدي قميصا مفتوحاً ذا مربعات ، ومن أين كان لهما أن يسمعاه في هذه الجلبة وهذا اللغط .

سألهما الرجل بعد أن وقف إلى جانبهما قليلا ، وكان في صوته رنة تعاطف :

— كانت مطحنة جيدة ؟

— جيدة ، — أجابته داريا دون ذعر .

— مفهوم — أومأ برأسه — الظاهر أنها أدّت خدمتها . . . وأردف ماطا صوته : « راحت عليها » !

عبارة « راحت عليها » هذه لم تعد تخرج من دماغ داريا . وصارت العبارة الرئيسية التي تفسّر كل شيء ويمكن تطبيقها على كل مايجري حولها . إن صاء خنزير صغير في كيس وهم يسحبونه على ظهره إلى القارب الآلي كانت داريا تنظر إثره وتقول « راحت عليه » . إن ساقوا إلى انغارا قطعان السوفخوز لينقلوها إلى الضفة الأخرى ، الأبعد حيث البلدة ، لكن ليس إلى البلدة بالذات بل إلى المراعي قرب النهر ، كانت داريا تروح تشيعها وترنو إلى الأبقار والعجول المعاندة كيف

يسحبونها ويشدونها إلى داخل شيء كبير مسيّج بأعواد لاهو بالطوف ولاهو بالمعدية ، وكيف يربطونها بالجوانب ويرفعونها عن الأرض — راحت عليها ! يندفع دخان أسود مرّ من بودموغا فينسل إلى البيوت ويثير السعال فتقول داريا في سرّها «راحت عليها» على بودموغا » ! سلّمت كلافكا ستريغونوفا السوفخوز عجلاً معدّاً لأهل المدينة من أجل اللحم : « راحت على » المسكين! سحبوا إلى الضفة أكوام الحشائش : « راحت عليها » ! كان ما يعود للقرية وأهلها وما ألفوه يتضاءل ويقل أكثر فأكثر ، كان كل شيء يسرع في الإنزياح ، في الإقلاع من الجزيرة الخطرة أبعد ما يمكنه . وكانت القرية تقف وحيدة ، عارية ، صماء ، مستعدة هي أيضا للسفر . كانت أصوات الغرباء تتردّد فيها كما في برميل ، أما أصوات أهليها فكانت تضيع في مكان ما لاتدريه وتتلاشى . صارت العين ترى بنفاذ إلى بعيد : كانت متيورا تقفز ، وكان المدى ينبسط أمام النظر دون عائق .

أوحت كلافكا ستريغونوفا التي وجدت لغة مشتركة مع الوافدين بمساعدة العجل المذبوح أن يحرقوا بيتها أيضا : لقد نفد صبرها ولمّا تحصل على المال . ووافقوا على حرقه برضى كبير ، شكراً لهم ،على الأقل لم ينقلوا نارهـــم إلى البنايـــات المجاورة . وهاهي ذي الآن حفرة سوداء داخنة تفغر فاها حتى في وسط القرية ، وهاهي ذي العين لاتجد لها سنداً فتروح تنقطع وتهوي في المدى الأنغاري البعيد كما في بئر . لقد تفككت متيورا ، أنقسمت قسمين . . . .

في مساء ذلك اليوم الذي « راحت » فيه على المطحنة عثرت داريا وكاترينا عند مدخل البيت وهما عائدتان من الحريق في الظلام على سيما مع الصغير . كانا يجلسان أمام الباب المغلق : كان كولكاينشق وسيما

تقول له شيئاً ما لتهدّىء روعه . نهضت سيما على عجل للقاء العجوزين وسألتهما في توتّر وهي تمسح على خدّها براحتها كعهدها دائما :

ــ دعونا ننضم إليكما اليوم . . . إننا خائفان . هو لايستطيع أن يغفو ، بل يبكي وأنا . . . أنا لاأستطيع . شيء مخيف . . . مخيف جدا .

ارقدتاهما في السرير ولم يعد هذا السرير يخلو بعد هذا : كانت سيما تخرج إلى بيتها نهاراً تسعى هناك في شؤون بيتها وحاكورتها وتعود ليلاً إلى داريا للمبيت . تملّكها الخوف مرّة فلم تعد تستطيع منه فكاكا . لكن الخوف لم يتملك سيما وحدها . حتى بوغودول ، رأى ذات مرّة البارودة القديمة المعلقة في مدخل بيت داريا تحت الفروة فتهلل وجهه :

ــ اعطنيها . عكروت ! سأقتل بها !

ــ من ستقتل ؟ ــ اضطربت داريا . كيف اعطيكها ؟ قد تقتل بها حقّا ! من أين اتتك هذه الفكرة ؟ من تنوي قتله ؟

ــ يهدّدون . عكروت ! ينوون حرق الكوخ . سأفعل بهم . . .
ــ حرّك شفتيه مطلقا صوتا حادا كأزيز الطلقة .

ــ لايمكن إطلاق الرصاص منها . لا أذكر أن أحدا أخذها يوما . كان ما زال حياً ، ومع هذا . . .

لكن بوغودول نزع البارودة وأخذها ــ ربمّا للتخويف لأنه لم يفطن لا إلى الطلقات ولا إلى الذخيرة . وما كانت داريا لتسمح له بالبارودة مع طلقاتها : لن يمنعه عقاه من إلهابها إذا ما احتدّ ولهذا هو بوغودول . هذا ماكان ينقصها الآن . لن تكون مسؤوليته كبيرة ، وهي

أيضاً لن تكون مسؤوليتها أكبر ، وبالتالي سيأخذون في جرجرة بافل من جديد .

صاروا الان ، بعد أن انضمت إليهما سيما مع صغيرها ، أربعة ، ولم تعودا اثنتين كما في السابق . كان عندهم وفرة من البطاطا وغيرها من الخضراوات ، كما بقي لديهم طحين من المخزون القديم ، الكولخوزي . أما الشـــاي والملح فإن لم يكن بافل نفســـه يأتي ، كان يرسلهما مع أحد القادمين. كان يعمل الآن على الجرار ، يقتلع الأشجار ويعدّ أرضها لتصير حقولا . ولم يكن باستطاعته أن « يخطف رجله » ساعة يشاء . والحليب حليبها ، وكانت داريا مسرورة لأنه وُجد أخيراً من يشربه . كانت تصب الحليب لكولكا صبحاً ومساء وتطلب إليه الحضور ظهرا . كانت هي نفسها تنام فوق الموقد ، وكاترينا افترشت المقعد الخشبي ، أما سيما وكولكا فقد أعطيا السرير . وصار بوغودول بعد مغادرة أندريه يختلف إلى البيت داريا أكثر . هذا ، على عكس سيما وصغيرها ، كان لا يغيب في النهار عن بيت داريا إلا قليلا أما في الليل فكان يعود للمبيت في كوخه خشية حرقه . ولكي يري الناس بارودته تجوّل بها مرّات ذهابا وإيابا قرب الدائرة وهو يتنحنح ويسعل بصوت عال للفت الانتباه إليه . وكان الوافدون يخرجون ويقفون أمام الدائرة ويصيحون :

ــ إيه ، انت أيها النصير !

ــ يارجل الثلج !

ــ أيها التركي !

– ضدّ من جهزت نفسك للحرب ؟ من أي نموذج مدفعك هذا ؟

– بل سل من أي نموذج هو نفسه . ألم يخدم عند بطرس الأول ؟

– ربّما تريد الخدمة عند ايفان الرهيب ؟

– لكنها لاتطلق .

كان بوغودول ينتظر فقط هذه الكلمات .

– هل تجرّب ؟ – كان يشير إلى جانب وينزع البارودة عن كتفه .

– هل تجرب ؟ عكروت !

لكنه لم يوجد من يرغب في التأكد مما إذا كانت البارودة تطلق أو لا تطلق . وكان بوغودول يزمجر ظافراً ويلقيها على كتفه ثانية ويتابع طريقه مصحوباً بالضحك والصفير دون أن يلتفت .

* * *

- ١٧ -

وفي المساء كنّ يبقين طويلا عند داريا يتبادلن الأحاديث دون أن يغمض لهن جفن . كن يستلقين للنوم عنـــد الغسق دون أن يوقدن النار ويرحن يتحدثن في بادىء الأمر عما أخلدن به إلى النوم — بعد شرب الشاي الجديد والشواغل الأخيرة غير العاجلة . وكما هو المألوف والمفروض شكون من عظامهن الهرمة ،تململن، تنهّدن، حاولن الاستلقاء على نحو ألين ليرحن عظامهن . كن يستذكرن يومهن الفائت باختصار كأنهن يشهدن ويؤكدن أنهن كنّ فيه : لكن الضوء خلف النوافذ كان يزداد خبوّا وتناقصاً ، والأصوات تخفت والشواغل التافهة تتراجع ، ويستقر الحديث وينطلق هيّنا رخواً دون عائق ، ويمسي أشد ترويّا وحزناً وصراحة : لم تكن العجائز ترى الواحدة منهن الأخرى الآن ، بل تسمعها فقط . كان الصبي الصغير يشخر الآن في نومه شخيراً لطيفا إلى جانب سيما ، وكانت النوافذ تلمع ببريق جليدي ، وكان البيت ، حيث مازالت الرائحة الضعيفة المثيرة الممزوجة بالحموضة للجمرات الداعرة في السماور تخيّم فيه ، يبدو ضخماً ، ملء الدنيا . كانت الكلمات تحضر دون جهد . كأنما تلقائيا وكانت الذاكرة لينة مطواعة . عمّ كن يتحدثن ؟ لكن عمّ يمكن الحديث فيه ؟ حيثما كان الحديث يميل كنّ يجرّبنه ، لكنهن نادراً ما كنّ يبتعدن عن متيورا وعن ذواتهن ، وهكذا كنّ يقلبن المواضيع ذاتها على مختلف وجوهها :

في هذه المرة كان دور بتروخا ، فقد بدأت منه . كانت كلافا ستريغونوفا التي ذهبت إلى المركز لاستلام تعويض بيتها من النقود قد التقته على رصيف المرفأ في بودفولوتشنايا . بتروخا هناك ، كما أخبرتهم ، لديه مايعمله : إنه يعمل في حرق البيوت التي أخلاها أصحابها. أيدي أصحاب هذه البيوت لاترتفع لعمل كهذا ، وهذا شيء يمكن تصديقه ، أما بالنسبة لبتروخا فهذا عمل مألوف ، وهو يقوم به كيفما كان . كانت كلافكا تؤكد لهن أنهم يدفعون لبتروخا لقاء كل بيت يحرقه وأنهم يدفعون كمية لابأس بها كما يبدو ، فبتروخا لايشكو ولايتبرم . « شبعان سكران وأنفي في الدخان » . يبدو أن هذا ماقاله لكافكا متباهيا . وبالفعل لاتدري إن كان شبعاناً ، لكنه كان سكرانا وكان يهرع إلى المركب لشراء قنينة جديدة . ولقد دعا كلافكا أيضا لتنزل عنده لكنها رفضت ، على حدّ قولها ، لأن الرجل الذي كان يقف مع بتروخا ، بدا لها شخصاً غير مضمون ، وهي كانت تحمل معها نقودا .

لم تستطع كاترينا التي سلّمت أخيرا بضياع بيتها أن تغفر لبتروخا حرقه لبيوت الآخرين . وظلت طوال اليوم التالي لحديث كلافكا تتنهد بخوف وخجل :

— ياللعار ! ياللعار ! ماذا ، هل فقد آخر ذرّة في دماغه ؟ كيف يريد بعد هذا أن ينظر في عيون الناس ؟ كيف يريد أن يمشي على الأرض ؟ أو يْ يو — يو !

في النهار كانت داريا تبدي استنكارها مؤيدة كاترينا فيما تقول :

— لقد وجد عملاً يلائمه ، ولولا ذلك ما كان ليجد عملاً قط .

الحرق غير البناء . يأتيك ببعض القش ،يشعل عود كبريت بل حتى إنه يشعل من هذا العود سيجارته ثم رُحْ تدفأ ، ما لك وللرزق الذي يهلك ! بودفولوشنا قرية كبيرة ، على امتداد ثلاثة فراسخ . . . هناك يجد من العمل ما يكفيه .

لكن كاترينا لم تكن لتعرف الهدوء . وفي المساء حين أوين إلى الفراش قالت داريا تردّ على نواحها وندبها :

— لماذا كل هذا الأنين والشكوى ؟ لماذا تعذبين نفسك هكذا ؟ ألم تكوني تعرفين أن بتروخاك هذا خُلِقَ هكذا ؟ أم أنه وحده هكذا ؟ لقد كنت معك في المطحنة ، ألم تري كم من أمثاله هناك ؟ قولي لهم : إمّا جمع الحبوب أو حرق البيوت : من تراه يبقى في الحقل ؟ وأنت لاتنفكين ترددين : عار ، عار . . . إن لم يحرق هو فغيره يفعلها ، أولاد الحرام كثر . . . سامحني يارب !

— ليفعلها غيره ، ليفعلها غيره ، لماذا هو بالذات ؟ لقد لبسته حتى الموت سمعة سيئة ولن يكون بوسعه غسلها .

— ولماذا يغسلها ؟ سيعيش بها ليس أسوأ مما يعيش الآخرون . وفوق هذا سيتباهى بها : أنت ياكاترينا لاتحزني عليه أكثر مما ينبغي ، بل احزني على نفسك. أما هو فينتهي من هذا العمل ليعثر بعده على عمل آخر مثله .

— وأنا ، أمّه أم لا ؟ إنه يلوثني بالعار ، وسيشيرون إلي بإصبعهم . .

— لاتهوّلي الأمر . من الذي سيشير إليك بإصبعه ، من تراه بحاجة إليك ؟ إنهم لايعرفونك ، كم سنة تنوين أن تعيشي ، ألا يكون مائة سنة ؟

لم ترد كاترينا ، بل قالت بحذر طالبة النصح :

— هل أذهب إليه ، أوبخه وأسأله : ماذا تفعل ؟

تلقفت داريا الفكرة بسرور :

— اذهبي . اذهبي وانظري أي البيوت تحترق أفضل : بيوت بودفولوشنا أم بيوت متيورا ؟ وهو سيحرق دفعة واحدة بيتين إن لم يكن ثلاثة احتفاء بقدومك . آه ،ما أحلى هذا المنظر ! وبعد ستخبريننا أي قرية صلتها الشمس أكثر انهضي من صباح الغد وجهّزي نفسك ، لاتتريثي وتتباطئي . من أجل هذا الأمر هم مستعدون لنقلك بالزورق السريع . وبخّيه ، ماله يحرق بيوت الأغراب وبيوتنا لم تحترق كلها بعد ؟ آه كاترينا ،مالنا مغفلتان إلى هذا الحد ؟ عشنا ، عشنا ولم نكتسب أي قدر من الذكاء . مثلُنا مثل الأطفال . . . ما قولك ؟

وصمتتا متخليتين عن هذا الحديث الذي لاطائل منه . كانت كاترينا تعرف أنها لن تذهب إلى أي مكان ولن تُفهم بتروخاشيئا ولن تعقّله : بتروخا سيظل بتروخا ، ولن يكف ، كما هو ظاهر ، عن تصرفاته البتروخية حتى الموت . هذا هو قدره ، وقدرها هي أن تكون أم بتروخا . يجب أن تتحمل قدرها بصمت ، أن تسلم به ولا تتذمر : أما الناس . . . وأخذت كاترينا تفكر فيما إذا كان ينبغي لها أن تخجل أمام الناس مَنْ تعرف منهم ومن لاتعرف ، ومن نفسها ومن بتروخا إذا كــان هو نفســه لايعرف معنى الخجــل ؟ وإذا لم يعد أحدٌ الآن ، لا ابنُها ولا ، من باب أولى ، الغرباء بحاجة إليها وكأن لم يعد لها وجود على هذه الأرض ؟ أو لعلّها تتظاهر بالفعل أن لاوجود لها ، وأن ما يسري في جلدها لايصلح لشيء ، لاالضمير ولا لخجل ؟

مامعنى أن تتعذبي وتخجلي مادام لاأحد يحتاج إلى خجلك ولاينتظره، ومادامت لن تتجاوب مع خجلك أيّ من تلك النفوس التي تودين أن تعترفي لها بإثمك ؟ ماالفائدة ؟ داريا . . . إنها تفهم كل شيء . داريا لن تدينها . لوتستكين وتهدأ وتعيش بذاتها ولذاتها . . . فالحياة لم يبق منها شيء . . .

أما داريا ففكرت فيما كانت ستشعر به لو كانت مكان كاترينا ، وبأي كلمات كانت ستدافع عن نفسها . لابدّ أنها كانت ستشعر بالمشاعر عينها وستقول الكلمات عينها : وكاترينا نفسها كانت ، على الأرجح ، ستجيبها نفس الإجابة لو كانت في محلّها هي داريا . فما معنى هذا ؟ ولأول مرة في حياتها فكرت داريا بمثل هذا القرب في معنى الوضع ، المكان الذي يجد فيه الإنسان نفسه في هذه الدنيا : هي مثلا ، لاداعي لأن تخجل من أبنائها ، ولهذا أعطت نفسها الحق أن تسائل كاترينا عن بتروخا ، أن تعظها ، بل كادت تتهمها . وعلى هذا النحو إذاً كان يمكن لكاترينا أن تكلمها لو كانت هي والدة بتروخا . أين إذاً خُلُق الانسان ، طبيعته الخاصة التي لاتشبه أي طبيعة أخرى غيرها ، إن كان الأمر يتعلق بالحظّ حالفك أو خذلك ؟ ولو أنها ، داريا ، وجدت نفسها في مكان سيما التي تعيش في قرية غريبة بلا أهل ولاحماية ، ومع حفيد قاصر بين يديها ، أتراها كانت هي أيضا أوضع وأهدأ من عشب الأرض ؟ وماذا في اليد ؟ كانت مثلها على الأرجح : ما أقل إذاً مايحمل الانسان في ذاته من خصوصية تأتيه من الولادة وما أكثر مايحمله من قدره ، من المكان الذي بلغه اليوم وماجلبه معه . أوحقـًا كان يمكن أن تكون كسيما ؟ لكنهما انسانتان مختلفتان تماما .

كانت سيما تهمس بصوت خافت شيئاً ما لكولكا الغافي . كان ضوء المساء قد انطفأ ، وبعد عتمة لم تدم طويلا أخذ ضوء الليل يظهر : بدت النوافذ بوضوح أكبر ، تكسرّ الهواء القاتم بلمعان ميت ، طفت الأشياء من الظلام واهتزّت وارتمت على الأرض أطياف مرتعشة ، وفي مكان ما من الجانب الآخر من القرية راح كلب يعوي ، عوى طويلاً ودون انقطاع ، في تعب ودون حقد ، فقط كي لايدع الناس ينسونه . ومن همس سيما كانت تتناهى كلمات متقطعة مفككة كأنما هي الأخرى ظلال كلمات حقيقية لشدّة ما كانت خافتة ووحيدة . وعادت كاترينا إلى حديثها مرّة أخرى بصوت خفيض وحزين :

— وهل مايلزمني كثير . . . : اسمعيني ياربّة السماء . مايلزمنا هو فقط أن يستقر ، هو الطائش ، في مكان ما ، أن يشتغل « شغلة » انسانية : فيلون متيورا يمكن العيش أيضا : لو يعطونه زاوية صغيرة استطيع أنا أيضا أن أجد لي مكاناً فيها . كنت سأوقظه في الصباح : هيّا انهض . أنهض يا بتروخا ، حان وقت العمل . وكنت أعددت له زوّادة للغداء . وليسبّني ويشتمني وليفعل مايشاء . فأنا سأتحمله وأنا على استعداد لأتحمل أكثر من ذلك على أن أكون مطمئنة إلى أنه في الطريق القويم.

وإذ رأت داريا أن كاترينا عادت إلى سيرة بتروخا قالت لها في برم :

— يجب ترويجه . إذا كنت لاتستطيعين أن تتفقي معه ، فتلزمه امرأة تمسكه بحزم وإلا فلا فائدة .

— من تتزوج طائشاً مثله ؟

— لو يعقل قليلا ، لماذا لايتزوجونه ؟

— إنه طيب رغم هذا كله ، — قالت كاترينا وقد سرّها أنه حتى

داريا لاتعتبره. انسانا ميئوساً منه تماما، وأنه حتى هي ترى لها خلاصاً وإن كان خلاصاً صغيراً غير مأمون . — قلبه رقيق. . . .

ضحكت داريا ضحكة خافتة ساخرة من فوق ، من على الموقد : رقيق ولا أرق منه :

— لا، حقاً . أنا لاأدافع عنه حين لايكون هناك مبرّر . وما أقوله لك حقيقة : كانت عندنا عجْلة . . : وإذا غفلت كان يمكن أن يطعمها كل الخبز الموجود : كان يقطع الخبز كسراً ويخلطه بالملح ويقدمه لها . وصارت البقرة تعرفه : كانت تدنو من البوابة مســاء وتأخذ تخور وتخور: كانت تناديه . كنت أردّها فتعود من الحوش ثانية وتخور بصوت أوجع . إذا ألقمتها لقمة من يدك أكلتها ، لكنها لن تهدأ حتى يظهر لها : وحين يعطيها تنصرف بالفعل : وقبلها كانت عندنا بقرة . كان يرى أنها أتت على الحشيش الذي قدمته لها فيرمي لها خفية عني كمية أخرى كي لا أسب : كان يفرط في علفها.وكم من الجراء جرّ إلى البيت ! أين كان يجد كل هذه الجراء ! خصوصاً إذا كان غير صاح كان يعود حتما بجروٍ تحت قميصه : اجتمع لدينا في وقت من الأوقات أربعة كلاب. بحّ صوتي من الصراخ عليها ، يجب أن ترمي لكل واحد كسرة وأنت لايكفيك ماعندك من هذه الكسر . لا ، لم يكن يريد أن يفهم . . . .

ولم تحتمل داريا فقالت تناكفها : انظري ما أطيبه ! يقيت الكلاب الشاردة ويشفق عليها أما أمه فيتخلّى عنها : أنت عيشي كما تشائين ، هذا ليس شأنه . . . .

— طائش ، قلت لك إنه طائش ، — أجابت كاترينا على مألوف

عادتها — كان يلقي للبقرة بالعلف دون أن يفكر فيما إذا كان ماعندنا من علف يكفي حتى الربيع أم لا . أنا كنت أعطيها كي يكفيها لأطول مدّة ممكنة ، كنت أعطيها حسب المعيار ، أما هو فكان يعطيها كيفما أتفق . ثم قبل الربيع لم يكن يبقى لدينا مانلقيه لها .

— عدت تحدثينني عن البقرة؟ أنت يا مسكينة ماذا ستفعلين حين يطردوننا من هنا ؟ سيطردوننا حتما ، فإلى أين تذهبين ؟ هل فكرت في هذا ؟ تحدثني عن البقرة والبقرة ماتت من مائة سنة .

— كنت أقول . . . — لم يكن لدى كاترينا بالفعل ماتقوله فتردّد صوتها دون صلابة وأمل في فراغ — لو يستقر في مكان ما ويعطونه زاوية...

تنهدت داريا بصوت عال تردّد في البيت كله : ماذا تنفع « لو » هذه .

لكن الظاهر أن الحديث أخذ هذا الاتجاه بحيث لم يعد بالإمكان تحويله . فقط انخرطت سيما ، بعد أن أرقدت كولكا ، في الحديث وأبقته في نفس الاتجاه :

— كلّ ونصيبه ، — قالت سيما . انت ياكاترينا يجدر بك أن تعيشي إلى جانب ابنك وتهتمي به ، أن تنتظري حفيدا تعتني به وتربيه . . .

— لا ، لا تقولي هذا الكلام ياسيما ، — أنتْ كاترينا وهي لاتجرؤ حتى على التعلّل بسعادة كهذه ، — لاتقولي .

— أنا أيضاً لاأمل لي في مساعدة ابنتي لي . أنا أيضا لاأعرف أين أسند رأسي . على الأقل عندي كوليا ، من أجله يجب أن تعيش بآخر ما لديك من قوة . لكن كيف تعيش ؟ ليل نهـــار أفكر ، ليل نهار أفكر : كيف اعيش ؟ إلى أين أمضي؟ ألو ان هناك عجوزاً ما . . .

— يالهي ! — قالت داريا تضرع وتستغفر : — هذا هو المطلوب : عندنا الأخرى... ومع هذا لاحديث لها إلا عن عجوز ما ! يا... أي عجوز يلزمك انت ياعروسة ! عفــوك يارب ، ياأم سبعة وسبعين ثقباً ومن كل ثقب ينهال الرمل . ما الذي ستفعلينه عند عجوزك ذاك ؟

لزمت سيما الصمت مستاءة .

— إيه ، ماحاجتك به؟ لماذا لزمك؟ — حاولت داريا أن تنتزع منها اعترافا :— مالك لا تقولين لنا ؟

—ليس لدي ياداريا فاسيلفنا ما أخفيه — إذا كانت سيما خاطبتها بـ « داريا فاسيلفنا »فمعناه أن سيما مستاءة أشد الاستياء .— ليس محرّما على أحد أن يحلم ، نعم . كاتريتا تحلم بالعيش قرب ابنها ، وأنا أيضا أحلم : أنا أيضا بودي أن تكون لي زاويتي . لست هرمة إلى هذا الحد ومازلت أنفعُ لعمل البيت . لن يأسف أحد إن دخلت بيته : لست في حاجة إلى الكثير ياداريا فاسيلفنا : في مثل سني الناس لا يلتقون لينجبوا أطفالا ، بل ليسهل عليهم تقبّلُ الشيخوخة معاً . وكولكا سيكبر إلى جانبي ، إنه شغلي الشاغل . أنا لا أحلم كيفما اتفق ، بل أعرف ماأصلح له . بإمكاني أن أغسل واحضّر :

— اصلحي ، اصلحي ماشئت . . .

— وإذا لم يكن لديك ماتحلمين به فماذا في اليد . . . هذا ليس شأننا . الأطفال صاروا رجالاً ، لن يمانعوا . لن نظلّ نبكي ونندب دائما .

— وستغنين أغاني لعجوزك ؟

— لو وقعت على عجوز جيد لغنيت له ولاستمع إليّ .

الآن صمتت داريا متراجعة وقد أربكتها كلمة « حلم » المنسيّة

هذه : هل لسيما أن تقولها؟ وهل لداريا أن تسمعها ؟ الحلم يكون في سنوات العزوبة وأنت تستعدين للحياة دون أن تكوني عارفة بها شيئاً ، لكن ما ان يباشرك رجل وتصبحين ربة عائلة لايبقى لك إلا الأمل. حتى الأمل يتناقص مع كل عام ، يذوب كالثلج شيئاً فشيئاً حتى لايبقى منه بعد أن تتشرب الأرضُ أثر — فما يعود أمامك ليس الأمل بل ذكريات تتصاعد كالبخار من باطن الأرض . لكنْ هكذا سيما ، هل يمكنك أن تتوقع منها غير ذلك ؟ إنها غارقة في أحلامها ! إنها رأس شائب : لكن لايصح حتى تسمية هذا الذي فوق كتفيها رأسا . إنها طائر طليق لكن ما من مكان تحط عليه. كل الأمكنة مشغولة.وان شاءت أن تطير فحتىّ الجناحان لم يعودا كما كانا . « مع أنها سيما لكن ليس لها نصيب » — تذكرت داريا كلمات أهل القرية الساخرة فيها . لكن داريا قالت في نفسها ، وهي تفكر في هذا ، إن سيما تقول الحقيقة على الأرجح ، وإنها ، داريا ، ليس لها ماتحتاجه من غدها . . . لا أقول أن تحلم فأين هي من الأحلام ، ولا أن تأمل فأين هي من الأمل ، لكن يبدو أنه حتى أبسط الرغبات لم يبق منها شيء، كل شيء اجتمع في جهة واحدة . وماالذي يمكن أن تأمل فيه بالفعل ؟ في الموت ؟ هذا أمر لامهرب منه : يمكنك ألا تفقد الأمل في هذا . وفيم أيضا ؟ لاشيء . الموت العاجل إذاً مادام لم يبق هناك ماتعيش به . أما سيما وكاتيرينا فستصمدان، ستعيشان لا لأنهما أصغر منها سنّاً فقواها هي لم تنفد كلّها بعد أيضاً ، بل لأن لديهما ما تعملان من أجله : سيما لتوقف الفتى على قدميه ، وكاتيرينا لتشغل بالها بيتروخا ولتأمل في إصلاحه . هناك من يحتاجهما ، وهذه الحاجة إليهما هي التي ستحركهما ، أما هي فلا أحد يطلب منها شيئا .

إنها الآن تنوم بالحراسة . وما ان يرحلوا حتى لاتعود إلى هذا أي حاجة .. الانسان دونما عمل ، دونما حاجة إليه لايستطيع أن يعيش. هنا تكون نهايته . هناك أناس دونها قوة وعمراً باتوا بغير ضرورة عاجزين عن القيام بأي خدمة نافعة فصالبوا أيديهم على صدورهم واسلموا الروح .

أطل القمر من النافذة فازداد الجو من حولهن ضياء وقلقا . كان صوت الكلب المسعور يطرطق كالصفيح ، وكان هذا النباح يخرق الآذان مباشرة . ولكي تكبح داريا في نفسها قلقا خانقا ضاغطا لا تدري من أين أتاها ، أرادت أن تنهض — أرادتْ بعنف لشدّة مابدا هذا ضروريا بحيث أنها ، مع إدراكها أن لافائدة في هذا ، أنزلت قدميها في جوربيهما على بسطة الدرجة بتؤدة ونزلت الدرجات إلى أرض الغرفة ودنت من النافذة . كان نصف السياج مغمورا بضوء القمر الساطع ، وكانت السقائل الخشبية في مدخل البيت تسبح فيه كما في الماء ، وكان نصف السياج الآخر يرقد في ظلّ ثقيل ممتد من العنابر: « كأن ضوء القمر مسلوق» قالت داريا في سرّها وهي ترتعش وأدارت ظهرها للنافذة : رفعت سيما ، التي كانت تتابع داريا بنظرها ، رأسها عن المخدّة قليلا ، وسألتها داريا هكذا — لأنه كان يجب أن تقول شيئا :

— غفا الصبي ، أ ؟

— غفا ، أجابتها سيما بتلطّف . — غفا من فترة طويلة . وأنت مابك؟

— هكذا ، انكسر ظهري على الموقد . تعبت فقلتُ في نفسي أرى إن كنتم كلمتوني أم لا : سأزحف إلى فوق من جديد :

— ومن الذي تكلّم معك، — سألتها داريا . — نحن لم نكلمك .

— ماأدراني بكم ؟ الصوت كأنما صوتكم ، أما الكلمات فكأنها

لصبايا . أوه ، ماذا تفعل نستاسيا الآن ، نائمة ، صاحية ؟ لعلّها الآن ترقد مثلنا هكذا وتتذكرنا لكنها لاتعرف أننا الآن في بيت واحد . آه ، نستاسيا نستاسيا ! لو تعود قريبا فننظر إليها ونبكي معها قليلا . لو كانت نستاسيا تتمدد الآن إلى جانبنا لشكلنا كومونة ولما كنّا بحاجة إلى أي شخص آخر . لديها ، ولابدّ ، ماتحدثنا عنه ، فكم شاهدت وكم رأت في حياتها . شاهدت عن نفسها وعنا ما يكفي أن نستمع إليه حتى الصباح .

أخذت تتسلق عائدة إلى مكانها فوق الموقد وهي تئن وتتأوه ، ولما صارت فوقه والتقطت أنفاسها تردّد صوتها من هناك تتحدث عن نفسها :

ــ آه ، لو نظر إلي انسان غريب لرأى بابابيغا(*) فعلا. لاجلد ولاوجه. والأسوأ أني صرت أحتدّ وأغضب . وهذا سيء فعلا . في السابق كأني لم أكن شريرة . أما الآن فليس هذا في يدي ، ليس في يدي. لا ، آن أن أموت . لامجال بعد هذا . لماذا الغيظ والاستياء ؟ ؟ إنهم يفعلون كما يحلو لهم ، فليفعلوا . إنهم سادة حياتهم، هذا زمنهم. بشأن الدفن سيدفنونني ، لن يرموني فوق وجه الأرض ، وأنا لا احتاج إلى أكثر من هذا : أليس صحيحاً ما أقول يابنات ؟

لزمت « البنات » الصمت ، إذ لم يعرفن إن كان يحسن أن يوافقن .

ــ هل غفوتن ؟ نعم مادمتن قد غفوتن . قريبا مع هذا يطلع الفجر ، يطلع الفجر ومعه يوم جديد، ونعود ندبّ ، هذا هو ما يجب أن يكون.

(*) ساحرة خبيثة في الحكايات الشعبية الروسية .

وأنت يادارو شكا(*) نامي أيضا. ليس هناك مايوجع قلبك كما يقول الناس. لكن لماذا هو موجع؟ إذا كان يوجعك على شيء واحد فهذا يمكن تدبّره، أما إذا كان يوجعك على كل شيء دفعة واحدة؟ إنه - المسكين - يحترق يحترق كما لو أنه فوق نار، وليس هناك من منفذ: يبدو أني مخطئة كثيراً. اني مخطئة — هذا شيء أعرفه، لكن لو يقول لي أحد ما خطئي، علام عليّ أنا الكثيرة الذنوب والآثام أن أندم؟ أويصح دونما توبة؟ آه، نامي، نامي . . . في الصباح ستأتي الشمس، وستقول لك أشياء كثيرة. من أجل الشمس وحدها، حين لايعود هناك شيء سواها، يمكن أن نعيش.

* * *

(*) تصغير داريا.

— ١٨ —

جمعوا الحبوب وهطل المطر من جديد ثلاثة أيام متواصلة . لكنه كان مطرا هادئا وخدوما : يمسح الغبار ويليّن الأرض المتعبة المتصلبة ويغسل الأشجار التي ذوت تحت وطأة الشمس وكمدت ويبعث إلى وجه الأرض الفطور التي تأخر ظهورها ويطفىء الأدخنة الخانقة والروائح المرّة المنبعثة من الخرائق : سقط هذا المطر بإشراق وهدوء لايسد الهواء ولايغلق الآمال ولايغطي ماء زائدا ، فعبر الغيوم الرقيقة الذائبة تمكنت الشمس من أن ترشح ضوءا ضعيفاً فاتحا. كان الطقس طوال الأيام الثلاثة دافئا ناعما لايحدث المطر فيه صوتا وهو يلتصق بالأرض ولايجتمع ليترك بعده بركا . وجفت الأرض بسرعة ، وعندما جفّتْ تبين أنه آن أوان قلع البطاطا .

ارتحل الوافدون بعد أن انتهوا من القمح والحمد لله . بعدهم جاء هذا المطر الخيّر المطهرّ . صار الجو أخفّ ، أهدأ وصار بالإمكان الخروج من البيت دون خوف والتمشي في الجزيرة : لكنهم أقاموا قبل رحيلهم وداعا صاخباً ، تعاركوا من جديد تلاحقوا في أرجاء القرية وهم يزعقون ، زعقت النساء تهدئن أحدهم ، وحين تهدّىء النساء فهذا معناه تهويش أكبر ودعوة لمنازلة الشر بالشر ، ظلّوا يتدافعون كأنصاف مجانين طوال الليل ، وطوال الليل أبقوا القرية في حالة ذعر : وفي الصباح قبل الإقلاع عن طريق النهر أضرموا النار إثرهم في الدائرة

التي نزلوا فيها كذكرى حارة . وما ان أبحروا حتى خرج من بين الشجيرات عند المجرى الأعلى واحدٌ من المجموعة إياها محدودبٌ ، قذرٌ ،مخيف في رقعه الجديدة فوق لباسه القديم ، كانت له على مايبدو أسبابه للاختفاء عن جماعته : حين لمح النار اندفع إلى القرية وانقض فوراً على باب الدائرة حيث بقي له شيء ما خلفه على ما يبدو ، وتمكن بأعجوبة من الوصول إلى داخل الدائرة لكنه مالبث أن وثب منها فارغ اليدين : رقص، رقص كالملسوع وسكن ثم أخذ ينظر إلى الحريق وهو يبتعد .

ولدهشة الجميع امتد الحريق طويلا . وعند المساء همدت النار ، لكن ظلّت تتأجج في الظلام كومة عاليةٌ من الجمر هي كل مابقي من الدائرة . لم يفطن أحد إلى مراقبة هذه الكومة ، وما أن استيقظوا في الصباح حتى كان الاصطبل القريب منها يحترق ، ولم يكن اتهام الشاب المتخلّف عن« قطيعه » بالأمر الوارد فهو قد أبحر نهاراً: كانت تنبعث من الاصطبل رائحة مرة وكان الزبل المبسوط المعصور تحت الأرجل في فناء الخيل يدخّن نتناً . وهنا سقط المطر ، لكنه لم يتمكن من ايقاف الدخان نهائيا ، وهكذا لم ينقشع الدخان عن متيورا بعد هذا أبدا .

وأخذوا يجلبون طلّاب المدارس لجمع بطاطا السوفخوز . هؤلاء القوم الصاخبون الحركون جعلوا همهم الأول منذ أن تدافقوا على الضفة البحث في القنن والمعالف عن ريش الطيور . لاقدر الله أن تقع تحت بصرهم دجاجة حية — سيلحقون بها وينتفونها . فيرا نوساريفا انقذت بصعوبه بالغة ديكها ، فقد أمسكته بالاثنتين بين رجليها وإلا كانوا قضوا عليه . بعد هذا كفّ الديك ذو الصوت العذب عذوبة مدهشة

عن الصياح ، بل صار يزعق على طريقة الإوزة زعيقا شاكيا ، فالخوف القاتل لم يتولّه عبثا : كان هؤلاء العمال الصغار يغرزون ريش الطير في خبات البطاطا ويقذفونها بقوة إلى أعلى ، وكانت اللعبة تعود طائرة إلى أسفل وهي تدرج بصفير جميل . والأطرف — حين تجد اللعبة هدفا وتحزر أن تحطّ على الظهر المحنيّ لأحدهم . مجرد قذف البطاطا شقاوة ، أما قذفها مع ريشة فلعبٌ . وكانوا يلعبون — ومايمكنك أن تقول : من طبعهم أن يلعبوا ! علام يمكنك أن تحاسبهم. لكنهم كانوا ، وهم متناثرون في الحقول ، ينحنون أحياناً لأمر ما ويلتقطون شيئا ما ، وكانت السيارة تنقل شيئا ما إلى الضفة: الأرجح أن الكبار الذين يرافقونهم كانوا يراقبونهم ويستحثونهم . وقد راقبتهم داريا ذات مرّة عن بعد : يلغطون، يشعلون الشعل ويحيطون بهم يحرسونهم كي لايهربوا دون قصد، لكن من كان يشتغل فقد كان يشتغل بسرعة ، يقتلع رأس البطاطا كالقنب . أما ما يبقى في الأرض ، فالأرض وحدها تعرف به . في السابق كانت الأرض ، وهي تحتاط لنفسها وتطهّر نفسها استعداداً لموسم جديد ، تُظهر هي نفسها العمل الرديء وتضعه أمام العين مباشرة ، أما الآن قبل الموت فكان الأمر سيّان حتى بالنسبة إليها .

ولمساعدة الأطفال انتزعوا النساء من مختلف المؤسسات في البلدة — من الدائرة ، من المستشفى ، من روضة الأطفال ، من المطعم — من حيث أمكنهم ذلك : كانت إدارة السوفخوز ترى ، وليس دون حثّ بطبيعة الحال من قيادات جانبية أخرى ، أن من الضروري في الدرجة الأولى الوصول إلى متيورا النائية والمتعبة، وإلى هنا ساقوا الناس فعلا. ووصلوا إليها بسرعة فعلا : في السنوات السابقة كان هذا الوقت وقت العمل ،

عزّ للموسم أما الآن فالنهاية ، إنها الخاتمة ،يمكنك أن تقيم عيداً إن شئت : لم يعودوا يلهثون وراء التسينتيرات ، مهما يأتك منها فمقبول ، المهم أن تُنظف الأرض. لم يعد أحد يسأل عن السينتينرات(*).السوفخوز الجديد سُمح له في السنوات الأولى أن يدير اقتصاده على احتمال الخسارة لا الربح ، فما بالك بالحقول المحكومة بالموت ، المقبلة على الغرق ، مامعنى أن تجمع بعض السنابل أو تقلع آخر عرق من البطاطا فيها ؟ لقد جاء وقت الاستغناء عمّا كانت هذه الأرض تعطيه .

لم يخرج من نساء متيورا لجمع بطاطا السوفخوز إلا قلّة ، اذ كنّ عاكفات على محصولهن : وللمرة الأخيرة اجتمع في القرية أهلها . لكنهم بخلاف الحصاد لم يكونوا يلتقون معاً الآن ، ولم يكونوا يغنون الأغاني ولايديرون الأحاديث عن الحياة المقبلة ، بل كانوا على عجلة من أمرهم ، كان كل واحد منهم يعيش في بيته ، في حاكورته وحيدا مع مشاغله ، أما الغمر المقبل فصار يمسكهم من خناقهم دون أحاديث . كانوا ينتزعون الأطفال من مدارسهم ويستأجرون العاملات : السطل الرابع لك ، إنما بسرعة ، بسرعة ... الناس ينسلّون والقارب سيكف عن الإبحار وسحب العبّارة خلفه ، ووقتها ستنطّ وتصيح وتطلب النجدة : القارب ! القارب ! ها هي محاصيل السوفخوز شُحنت والحقول ماوراء المرعى خوت وصمتت ، ومتيورا تزداد عُرياً : أي أغان ونصف القرية احترق والبيوت المفككة ، المخلخلة التي ظلّت سالمة كأنما امحت وغارت في الارض من الخوف وبدت بائسة وعتيقة بحيث كان المرء يعجز عن تصور كيف عاش الناس فيها ذات يوم . أي أغان ! وغابات متيورا تحترق والجزيرة الملفوفة بالدخان لاتراها

---

* السينتنير وحدة وزن تساوي مئة كيلو غرام .

العين من الضفة الأخرى ــ فكانوا يبحرون إليها مسترشدين بالدخان المقيم :

مضرمو النار من جماعة مؤسسة الأخشاب انتقلوا على جناح السرعة إلى متيورا فور تنفيذهم مهمتهم في بودموغا . كان عددهم مابين خمسة وسبعة وكانوا ،على غير غرار القطيع السابق ، كهولاً رزينين هادئين. نزلوا في كوخ كولتشاكوف يفصلهم حاجز عن بوغودول بعد أن لم يعد في متيورا مكان آخر ينزلون فيه : كانوا يعبرون القرية نهاراً من الجهة الفوقانية إلى التحتانية ومنها إلى عملهم ، ويعودون مساء من التحتانية إلى الفوقانية . كانوا يبدون مخيفين بسبب عملهم بالذات ، هذا العمل النهائي الأخير المقدّر له أن يغلق متيورا إلى أبد الآبدين . كانوا يخطون بصمت لايكلمون أحدا ولا يلتفتون إلى شيء ، لكنهم كانوا يخطون بثبات وسط الطريق وبثقة السيد في نفسه . وكان منظرهم هذا وحده ، كان حضورهم هذا وحده يجعل الناس تستعجل : بسرعة ، بسرعة قبل أن يشوونا ، لن ينتظروا . والكلاب ، حتى الكلاب أحست أي أناس هؤلاء الأغراب فكانت تنسل حين تراهم إلى المنعطفات والزوايا لاوية أذنابها . وهنا سرت أيضا إشاعة أن مشعلي النار ، هكذا كانوا يلقبونهم ، ينوون حرق القرية مع الغابة . وبالفعل كان بوغودول قد لاحظ كيف جاء إليهم فورونتسوف وشخص آخر من قيادة المنطقة في الكوخ وتحدثا إليهم طويلا في أمر ما . وماذا ؟ هذا هو عملهم ، ليس هناك ما يدعو إلى الحنق عليهم إذا ما حكّم الانسان عقله (فإذا لم يقم هؤلاء بعمل ما يُفترض أن يُعْمل قام به آخرون) إلا أن أحدا من القرويين لم يشعر برغبة في الاختلاط بهم أو التحدث إليهم : فهؤلاء لا غيرهم

كانوا يفعلون ما يفعلون ، وكانت أعين القرويين تراهم هم لا سواهم أمامها .

نمت البطاطا لآخر مرة ، ولم تكن وفيرة وحسب بل رديئة أيضا . كل عرقين بسطل ، كل عرقين بسطل . والسطول ليست سطول السوق بل سطولهم هم . سطول أهل القرية . كانت هذه حال كلّ من اعتنى ولو قليلا بزراعتها وتعشيبها وسقايتها . لكنهم كانوا ، وهم يتأوهون على حبّات البطاطا البيض والنظيفة المطمورة في الرمل والضخمة كالخنوص ، يتأوهون في الوقت نفسه على الأكياس التي عليهم أن ينقلوها مرّات قبل أن يرحّلوها عن الجزيرة ناهيك عن كيفية إيصالها إلى المكان المطاوب : انقلْها من الحاكورة إلى العربة ، ومن العربة إلى تحت المنحدر ، ومن هناك إلى المعدية أو القارب . وعربة النقل يجب أن تحرسها وترعاها لأنه لم يبق للقرية كلها إلا حصان واحد ، أما الأحصنة الأخرى فقد رحلّوها ولم يبق في الجزيرة كلها آلية واحدة . والمعدية لاتنتظر عند الضفة ! تعذّبوا ، آه كم تعذبوا بهذه الثروة ! لكن التأويهة الأفظع كانت حين يفكرون أين يهيلون هذا الخير هناك في البلدة . حقّا ، السوفخوز عرض عليهم صومعة الخضار التي لم تمتلىء إلا إلى نصفها للخروج من هذا المأزق . لكن كان يتعذّر على ربّة البيت أن تستوعب الأمر : كيف تضع في حفرة ضخمة مشتركة بطاطاتها التي تبدو لها أفضل وأشهى واقرب إليها من أي بطاطا أخرى ، ثم تأخذ من هناك بعد هذا لاتدري أي نوع من البطاطا . حقّا ، ماليس عندك ليس مالكك . ثم ان أي قبو لايستطيع أن يكفي اثنتي عشرة قرية .

لكن هذا هناك ، هناك ، فيما بعد . . . أما الآن فيجب أن تقلع البطاطا وتنقل بأسرع مايمكن كي لايجرفها الماء .

انتهى آل بينيغين من جمع محصولهم في ثلاثة أيام ولم يبق أمامهم لليوم الرابع إلا قطعة صغيرة . طلب بافل إجازة ، ولأول مرة في هذا الصيف جاءت سونيا ، لكنها لم تأت وحدها بل مع عاملة تعمل معها في الدقّ على الآلة الحاسبة في إحدى المؤسسات . كانت الضيفة صبية صهباء اسمها ميلا . وكانت ميلا هذه حين تضحك تلقي رأسها الأجعد كأنما المغطّى بفروة إلى الخلف وتدير عينيها . وبما أنها كانت تضحك دون انقطاع تقريبا فقد كانت عيناها تبدوان مغطّاتين بالبياض وعمشاوين . كل ما يقال كانت تراه مضحكا ، أما إذا كان يحسن بها أن تقهقه أم لا في هذا الموقف أو ذاك فأمر لم تكن تفكر فيـه ، ولهذا لم تعجب داريا أول الأمر .

— كيف ، كيف قلتِ ، مااسمها ؟ — كانت داريا تعيد سؤال سونيا عمدا كي تسمع الضيفة .

— ميلا (*) .

— ميلا ؟ هل هناك اسم كهذا ؟

— يوجد ، — كانت الضيفة تجيب ضاحكة ، — يوجد ياجدة ، يوجد . وماذا في الأمر ؟

— يااللاسم الذي اختاروه لك ! هذا في السابق ، كان بوسع الشاب أن ينادي كل فتاة ميلكا . كلهن ميلكات . وكانوا ينظمون الزجل فيهن . ألم تسمعي شيئا عن هذا ؟ والان ينادون العُجلات هكذا . . .

— العُجلات ؟ — غرقت العاملة في الضحك أكثر ، تريدين ياجدة أن تقولي إني . . . أنا عجلة إذاً ؟ هل أشبه العجلة حقّا ؟

* تعني بالروسية لطيفة وميلكا هي تصغير ميلا .

— ومع هذا فانت تشبهينها ، — وافقت داريا بسرور وهكذا فأنت حقا ميالكا .

عملت ميالكا يومين في قلع البطاطا وعملت بجد ، ولهذا السبب تقبلت داريا فيما بعد ضحكها الذي لاسبب له واسمها غير الرصين الذي كان مثار سخريتها . وتقبلتها بنوع خاص حين عرفت بعد السؤال عنها أن ميلا متزوجة وأن لديها كما لدى كل امرأة عادية طفلا . معنى هذا أن رجلها يصبر منذ أعوام على هذه « المقرقعة » ، فليرتح المسكين قليلا منها . وفي نهاية اليوم التالي حين جهزت ميلا نفسها للرحيل قالت لها داريا :

— لو تتبادلين ، حقاً ، مع عجلة . . . العجلات لهن أيضا ألقاب جيدة . اذكرُ، كانت عندنا واحدة اسمها زويكا ، ويالها من عجلة ! ستقهقهين وقتها أقل ! ما بالك تجدين كل شيء مضحكا ؟

أغربت ميلا في الضحك وظلت تضحك دون انقطاع وسونيا تشيعها إلى الضفة وكأنما هناك شخص لاينى يهزّ الحبل والجرس يرنّ ويجلجل ، بينما كانت داريا تقول في نفسها : لعلّ هذا أمر حسن ، لعل هذا مايجب أن يكون كي لا يعرف الانسان الهموم ولا الأحزان . إن كانت موجودة ها ، ها ، ها وإن تكن غير موجودة ها ، ها ها ! امثال هؤلاء إن تنزل بهم مصيبة لا يدركون أنها مصيبة ، بل يتولّون عنها ضاحكين كما عن مغازل لم يعجبهم ، أي رزية لن تمس قلوبهم بشكل جاد ، كل شيء يؤخذ بخفّة ، الحياة كلها هزل في هزل . وبالفعل ، ما السيء في الأمر ؟ أين للمرء أن يتعلم هذا ؟

في اليوم الثالث نقل بافل البطاطا . عبّأ منها خمسة عشر كيساً هي كل المتوفر لديهم من عبوات ، أما الكومة المكوّمة في الحاكورة فلم

تُمس ّ إلا مساً رقيقا خفيفا من أحد أطرافها فقط . وكم أمامهم مايفعلونه أيضا ! هذا معناه أنك ان تستطيع أن تنقل كل شيء . ألمحت داريا إلى أنه يحسن مد يد العون إلى كاترينا ، وأن يأخذوا عنها نحو خمسة أكياس ، فبتروخا لايمكن الاعتماد عليه ، فهو قد يظهر أولا يظهر ، والعجوز لابدّ لها أن تعيش وتلوك شيئا ما .

– أين أروح بها ؟ ! – هزّ بافل كتفيه لا تمنعا بل لأنه لم يكن يعرف حقّا ما يفعل بها .

– ورزقك أين تروح به ؟

– ما لايتسع له المكان لا بد من نثره على الشرفة إلى حين .

« ما لايتسع له المكان » المقصود بها ما لا يسعه القبو . لقد عانى بسبب هذا القبو وتعذّب قرابة الشهر : جلب من انغارا رملا وصنع أرضية وتخلص من الماء (من حسن الحظ أن بيته كان على مرتفع ، فمن كان بيته في وهدة فلا مجال للتخلّص من الماء) ، لكن القبو بات الآن أصغر كثيرا لايمكنك أن تحشر فيه الكثير .إن حفرت جانباً جاءتك المشاكل : فالقبو من الباطون المسلّح،ثم ما أدراك أن يقبق الماء من جديد . الأفضل : ابعدْ عن الشر وغنّ له .

سونيا التي جمعت البطاطا يومين متتاليين وهي محنية ظهرها خرّت في اليوم الثالث على ركبتيها . وهبّت سيما مع كاترينا إليها وإلى داريا يساعدانهما كأنما لتعوّضا عن مبيتهما عند داريا . فقد أقامت سيما وكاترينا في بيت نستاسيا طوال إقامة سونيا عند داريا ، لكن ماإ ن غادرت سونيا حتى عادتا فورا . غادرت سونيا في المساء وهي تئن وتشكو فقد نسيت في الدائرة عادة العمل الشاق ، ويبدو أن العمل هدّها وأضناها أشدّ

ما أجهدت نفسها . لقد تغيرت سونيا هناك ، في البلدة الجديدة أثناء الصيف بحيث كانت تنظر إليها أحيانا وكأنها غريبة : امتلأ جسمها ، ارتخت ، قصّت شعرها على طريقة بنات المدن وعقصته حلقات مما جعل وجهها يبدو أكبر وأكثر استدارة ، وانتفخت عيناها وبدتا مزرورتين وصغيرتين . ثم إنها تعلّمت منهم الأمراض والتحدث عنها بدراية مسمية الأمراض بأسمائها وحافظة الداء ودواءه . في متيورا لم يكن هناك مجال الانشغال بالأمراض ، وحتى الممرضات لم يكن يمكثن هنا طويلا : يأتين ينظرن فيرين من حولهن ماءً وشعبا مشغولا غير مريض فيعدن من حيث أتين .

– كيف هناك الصحة ؟ – سألت داريا سونيا بحذر .

– المهم ليس هنا ، – أجابت هذه بشيء من الكره دون أن تفسّر ما تقصد ، وحاولْ بعد ذلك أن تفهم هل « ليس هنا » هذه هي للأحسن أم للأسوأ .

ومَثُل في ذهن داريا أن العلاقة بها ، هي العجوز ، ستكون هناك غيرها هنا . هنا كانت تعيش في بيتها ، كل شيء حولها حتى سابع حارة كان قريباً منها يكاد يكون لها ، كان صادرا عنها وكانت تعتبر سيدة هذا كله ، حتى لو لم تحاول أن تظهر نفسها لسونيا على أنها كذلك ، فهذا كان أمراً معروفاً ومعترفاً به تلقائيا . أما هناك فالسيدة ستكون سونيا . وهي ، سونيا ، أيضا ليست شابة ، تدرك أنه لم يبق أمامها طويل وقت تحتفظ فيه بقوتها ، وأنه آن لها أن تتقدم إلى الأمام كي لايكون عليها أن تطيع بل أن تُطاع . الانسان لايستطيع إلا أن يكون هناك أحد ما تحت إمرته . هذه هي أشهى خدمة إلى قلبه ، وبقدر ما تطول إقامته تحت إمرة الآخر يحاول فيما بعد التعويض عمّا فاته .

كان القارب الآلي يقطر المعدية مرة وأحيانا مرتين في اليوم . كانوا يرحّلون البطاطا ويرحّلون دواب من بقي عنده دواب ويرحلون البقية الباقية مما قد يصلح لشيء ما.فلم يعد هناك مجال للتريث وترك أي شيء للغد . لقد أطل منتصف أيلول الذي أعلن أنه آخر مهلة . كثيرون انقذتهم من ورطتهم عبّارة رست على غير توقع عند الشاطىء اشترى أصحابها بعض محصول البطاطا — الكيس بأربعة روبلات. باعهم بافل بعد تفكير أو بالأحرى بعد أن أدركه التعب وأعياه السعي بالبطاطا آخر عشرين كيس عنده . فهو قبل هذا كان قد قام بثلاث سفرات نقل فيها في كل مرة خمسة عشر كيساً مما يكفيه ويزيد . وأشار على كاترينا أن تصرّف كل ماعندها وعدها إذا ما احتاجت أن يعطيها مما عنده : فالبطاطا واحدة . لكن كاترينا احتفظت لنفسها مع هذا بثلاثة أكياس : فما أدراك ما يمكن أن يحدث وازدادت سيما غنى بمقدار عشرين روبلا ، إذ لم يكن عندها مكان تخبئها فيه ولاشيء تأمل فيه . هذا بينما الحاكورة على شحّها طرحت ما هو مطلوب منها وأكثر . لكن سيما صارت تتأوه ندماً فيما بعد على أنه كان يجب أن تبيع قدرا أكبر من محصولها . أما هي فقد أمسكت عن البيع ، احتفظت بنصف محصولها من البطاطا لأمر في نفسها ، وها هي البطاطا ملقية في المدخل تحت الشمس تخضّر يوما بعد يوم .

احتارت العجائز طويلا فيما يفعلن بحاكورة نستاسيا ، فهذه لم تكن تحضر أبدا . في الصيف أشرفت داريا عليها ، شاطتها ، عزقتها وطردت الدجاجات منها — فهـــل من المعقول أن يذهب هذا الجهد وهذا الخير هباء ؟ لقد كانت آخر حاكورة متبقية في القرية كلها : لقد غاب عنها عاثاوها . إنما كانت تلوح هنا أو هناك جزرة أو شوندرة

أو فجلة ، أما الملفوف فلم يغرسه أحد لعلمه أنه لن يتركه أحد كي يصلب عوده . ولم يعد السياج يرى ضرورة له فتداعى ، وانسلت الريح تخشخش في أوراق الكثاء الرقيقة المتيبسة وتكرمش أوراق البطاطا التي لانفع فيها . وحدها فيرا :وساريفا جمعت هذه الأوراق أكواماً كما في السابق . لكنها حتى هي رفضت أن تنقلها وتقدمها علفاً للحيوانات : يكفيها ما عندها من شاغل ! لاشأن لها الآن بالأوراق . حسن أنها نقلت الحشائش على الأقل ، وهذا وحده كانت لا تملّ من الابتهاج به .

لم تكن نستاسيا لتحضر ، ولم يبق أمام العجائز إلا أن يتولين أمر حاكورتها بأنفسهن ، فما يفعلن بها ؟ أغلقن درف النوافذ في بيت نستاسيا ونثرن حبات البطاطا على الأرض. أما لماذا جمعن البطاطا ولماذا نثرنها — الكيْ تحترق مع البيت أم لتكون ذات نفع مع هذا ، فلم يكنّ يعرفن . كانت تروى قصص عن الرجال مضرمي النار أنهم كانوا يتباهون بالفطور التي يجمعونها ويشوونها على جذع الشجرة حين يقومون بحرق الغابة . وهذا أيضا يمكن أن يحدث الآن — يشوون البطاطا أيضا . أما تركها في باطن الأرض فأمر مخجل ، كيف نسمح بألا نجمعها — هذا غريب فعلا . ويجب مع هذا أن تأتي نستاسيا، يجب أن تأتي بما أنها وعدت — فكيف يمكنهم أن يتدبروا أمرهم هناك دون بطاطا ؟ لعلّ شيئا ما أخرها ، لعلّها تخرج إلينا من نهر انغارا في آخر لحظة حين لا يعود هناك مجال للقلع . أما بالنسبة إلى جمع البطاطا ، فهذا لا يتطلب وقتا طويلا ، وسنساعدها في ذلك .

قلعن البطاطا ، ومع هذا لم تأت نستاسيا . . .

ورحّلوا الدواب . ولعلّ بافل كان آخر من جاء ليأخذ البقرة .

لم تخرج البقرة الذكية والمطيعة مايكا التي أفزعها الصراخ والزعيق والنار والوحدة والجلبة عدّة أيام من الفناء . حاولت داريا سوق مايكا مرارا لرعي العشب ، لكن مايكا كانت تخور وتنزوي في الزريبة القذرة والمظلمة ، ولاتتجاسر على الانسلال منها إلا ليلا . ولم تكن تخرج لتنطلق على هواها ، بل تخرج إلى الحاكورة قريبا منها لتقتات ببعض الأوراق ثم تعود . كانت تقف ساعات طويلة برأس مائل متطاول إلى الأمام باتجاه الباب تتوقع دائما شيئا ما في توتر وتعدّ نفسها لأمر ما . وعندما ألقى بافل حبلا على رقبتها واقتادها مضت مايكا طائعة — أنى كان ، لفعل أي شيء كان ، المهم الانطلاق بعيدا عن هذه الأرض المخيفة . وطائعةً مذعنةً صعدت على الألواح إلى المعدية ، ومكنتهم من ربطها معرضةً عن متيورا ورامشة عينيها باتجاه الضفة المقابلة البعيدة .

بكت داريا وهي تشيعها .

— ماذا ياأمي ، — قال لها بافل وهما ما زالا في البيت ، — لعلنا نأخذك أنت أيضا فوراً الآن ؟ يبدو أنه لم يعد هناك مانفعله هنا .

— لا ، — قالت داريا رافضة بحزم وصلابة . — لا تمسّني ، لست بقرة كي أخرج من متيورا هكذا ببساطة . أنت ليس لك ما تفعله هنا ، أما أنا فما زال لدي ماأفعله .

— سيشعلون النار قريبا يا أمي .

— فليشعلوها .

ولم تتمالك نفسها فسألته بعتاب واستياء وهي تعرف أنه فات أوان السؤال وأنه لافائدة منه :

— القبور ، إذاً ، نتركها ؟ قبورنا ، قبور أهلنا ؟ تحت الماء ؟!

أطرق بافل ، وكان النظر إليه يبعث على الشفقة .

— انت ترين كيف يحدث هذا كله الآن ، — قال بافل مبررا ، — كنا نجهز انفسنا لولا تلك . . . والآن متى ؟ لقد صرت مدينا لبديلي بثلاثة أيام . الأرجح أننا لن نستطيع ياأمي . ولسنا وحدنا في هذا . .

— إذا تخلينا عنهم لن يترددوا في التخلّي عنا ، — قالت منذرة .

— آه ، اسنا بشرا نحن . لم نعد بشرا . وكيف هذا بدون قبور أهلنا ؟

بعد أن غادر بافل مضت داريا إلى المقبرة ولمّا تهدأ ثائرتها بعد هذا الحديث . كان النهار يتراخى والشمس هبطت إلى أكثر من النصف وماززالت مع هذا تدفىء الأرض بحرارة جافة فاترة ، وكانت رائحة احتراق قوية وخانقة تنتشر في الجو : كانت غابة الصنوبر الصغيرة وراء المرعى تنخلع عن الأرض وترتفع في السماء : وكان اللهب الباهت كأنما الفارغ الأشبه ببقعة شمسية لعوب يثب إلى الأعلى حينا ثم يهوي إلى الأسفل تارة أخرى . ولولا الطقطقة والفحيح المتناهيان من هناك ، ما كان بالإمكان إدراك أن الغابة تحترق : فالدخان الصادر عنها يكاد يستحيل تمييزه من الدخان الغريب المجلوب الممتد فوق انغارا . كانت تهب من فوق نسمة ضعيفة من غاز الفحم ، وكان حلق داريا يتخرّش ورأسها يدور وقدماها تدبّان على العمياء . وإلى اليمين وراء أعلى النهر كانت طقطقة القارب الذي أبحرت فيه مايكا لاتزال مسموعة . هاهي ذي مايكا سافرت وقد استشعرت المصيبة هنا ولم تستشعرها هناك حيث جدّ هم — هو .كيف يعلقونها حتى الصقيع كي لا يفسد اللحم .

كان باب المقبرة مشرعا . ولاحت في أول مرتج خلف الباب مباشرة أرض سوداء محروقة أشبه بلوثة كبيرة . رفعت داريا رأسها فلم

تر على القبور ضابانا ولا مقاعد ولاشواهد — أي كل ما حالت العجائز دون وقوعه في أول الصيف حين وقفن في وجه الأغراب وقع الآن بهدوء تحت النار والدخان . لكن داريا لم تشعر الآن بالسخط ولا بالإساءة . شعرت أنها النهاية وحسب . لقد تحجّر منها القلب لكثرة مارأت وعانت مذ ّاك . لقد انتظرت إذاً حتى حدث هذا أيضا ، ولاعليها أنْ انتظرت — هذا هو المكتوب عليها إذاً . لايجوز أن تسخط وتغتاظ : كانت قادمة إلى ذويها ، والمجيء إليهم بنفس غير راضية ومشوّشة لايفيد ، كان عليها أن تقفل عائدة . واحدةٌ ، واحدة هي النهاية . . .

انعطفت يسارا وبحثت في عمق الغابة الصغيرة عن الربوة الصغيرة التي كان أبوها وأمها هذان اللذان وهباها الحياة يرقدان تحتها . كانت الربوة ملوثة بالتراب الذي خلّفه الصليب المقلوع والمرمي . إلى اليسار وقد سجّوها أولا كانت ترقد أمها ، وإلى اليمين أبوها . عند المنحدر من رأس الربوة ، لاعلى الربوة تماما ، نمت شجرة غبيراء كانت داريا نفسها غرستها وعلى العشب تحتها حبّات حمر متساقطة نقرها الطير . وعند أسفل الربوة كانت تنتصب صنوبرة . لم يكن لهذه الصنوبرة وجودٌ إطلاقاً إذ ّاك ، حين كانوا يحفرون القبور ، بل نمت وارتفعت فيما بعد من بزرة ملقية عن غير قصد . كانت الربوة تبدو لداريا منذ زمن بعيد قصيرة جداً ، وقد أمسكت نفسها أكثر من مرّة عن الاستلقاء والتمدّد لتقيس نفسها بها ولتفهم ، أخيراً ، إن كان التراب انزلق عنها خلال هذه السنين الطويلة أم إن الانسان غير عظيم إلى هذا الحدّ حقا . كانت أغصان الغبيراء والصنوبرة تتشابك في الأعلى ، وكان فظيعاً وآثما وعجيباً التفكير أنّ في حياة الشجرتين كما في حياتها مشاركةً

من ذينك الاثنين الراقدين في باطن الأرض حيث تتغذّى الجذور .
كل ما حولها ، كل ما حولها قريب وحبيب وأليف . . . .

انحنت داريا وخرّت على الأرض إلى جوار القبر . لم يكن الهواء ينفذ إلى هنا ، وكان الهدوء مخيّماً لايشوبه إلا حفيف الشجر الجاف الشائك . ولم يكن الدخان قد قتل بعد تلك الرائحة الخاصة ، المثيرة والحلوة التي لاتخيّم إلا في المقبرة وتبدو وكأنها روح الفناء الانساني .

أغمضت عينيها كي لاترى الدخان ولا القبور المبعثرة وراحت تعلن عن نفسها بصوت خافت وهي تهتز إلى الأمام وإلى الخلف بحركات منوّمة ، مخدّرة وكأنها تبتعد عن حالة متوجهة إلى حالة أخرى تملأ نفسها بالعدم المريح : . .

ـ هـذه أنا ياأبي ، هـذه أنا يا أمي ، ـ كان صوتها راعشاً ، خافتاً لكنها كرّرت ماقالته ، بعد أن صمتت قليلا متحينة قدوم الصوت اللازم ، بنبرة أخرى تصلح للنفاذ بعيداً ، ـ هاقد أتيت . نقد أصبحت حرّة تماما . حتى البقرة أخذوها اليوم . يمكنني أن أموت ، لكن عليّ أن أموت بعيدا عن متيورا ياأبي . لن أرقد إلى جواركما ، وليس لي في هذا يد . أردت أن آخذكما معي لنرقد معاً وهذا أيضا لم يصح . لاتزعلا مني فليس الذنب ذنبي . لكن لا ، فانا مذنبة ، مذنبة ، مذنبة لأن هذا كان من نصيبي ، وأنا الغبية لم أعرف ما أفعل . لقد قلت لي ياأبي أن أعيش طويلا . . . وها أنا ذا أطعتك ، عشتُ . ولماذا كان عليّ أن أعيش كل هذا العمر ، كان علي أن أنضم إليكما ونصير معا . والآن ماذا ؟ لن أموت مرتاحة البال لأني تخليت عنكما ، ولأنه على حياتي وليس على حياة أي شخص آخر ينقطع نسلنا ويضمحل . . يضمحل .

يضمحلّ . . . وأنا اللعينة أترككما وأبدأ حياة جديدة . من بمقدوره أن يغفر لي فعلة كهذه ! ! أبي ! أمي ! فيم ذنبي ؟ — دفنت داريا وجهها في عشب الربوة وكتفاها يهتزان وقالت تشكو بمرارة موجهة كلامها إلى هناك ، إلى العشب ، إلى الأرض : — الدخان هنا في كل مكان ، لا مجال للتنفس كما تريان . لكن هل ترياني أنا ؟ هل تريان كيف أصبحت ؟ أنا ابنتكما ، ابنتكما . أنا بحاجة إلى الذهاب إليكما . أوحقاً يمكن اعتباري من الأحياء ؟ أنا لاأنفع لهذه الارض ، أنا من جيلكما . يجب أن اذهب إليكما . . . بودّي أن اشيّع البيت وأمضي إليكما . وليكن بعدها النار والماء . . . — رفعت داريا رأسها وسوّت المنديل وتابعت : — بيتنا ياأبي إن لم يكن اليوم فغداً . . . هو أيضاً إلى هناك وأنا سأقف متفرجة ، سأقترب بحيث لاتلدغني النار بقوة وسأتفرج إن كان سيحترق جيدا ، ثم آتي وأخبرك . ماالذي أفعله ؟ ويحي ماذا أفعل ؟ . .

وفجأة خطرت لها فكرة كأنما حملتها إليها من البعيد البعيد وشوشة متنبئة : « وبيتنا هل نظفته ورتبته ؟ كنت تنوين تشييعه لكن كيف ؟ أم إنك ستغادرينه هكذا وتصفقين الباب وراءك ؟ يجب أن ترتبي البيت وتنظفيه فنحن جميعا عشنا فيه » . ووافقت داريا على عجل وقد تولتها رعدة : « سأرتبه ، سأرتبه . كيف سهوت عن هذا ؟ كان علي أن أعرف هذا بنفسي . سأرتبه » . . . .

« وماذا أيضا؟ — سألت آملة في جواب — ماذا علي أن أفعل أيضا ؟ كيف أتصرف ؟ » . وأرهفت حواسها ، حفزت قواها ، أصاخت السمع جامعةً في واحد الأصوات الضعيفة السابحة حذاءها . لكن لا ،

لم يُقَلْ لها شيء ، أهم شيء لم يُقَل لها . كانت السكينة مخيمة كما من قبل ، وحفيف الأوراق والعشب لم يأتلف في جواب . أعادت السؤال دون أمل هذه المرّة ، ظلت القبور صامتة . قررّت في نفسها أنها لم تنل المغفرة . وهذا ماتستحقه . فعن أي أعمال طيبة كانت تمنّي نفسها بنيلها ؟ هي ذاتها لاتستطيع أن تغفر لنفسها وتريد أن يغفر لها الآخرون ؟ أليس هذا مخجلاً ؟

رفعت داريا عينيها : كان الدخان معلقا في رؤوس الأشجار وسحب نادرة مرحة تسبح في القبة العالية . كانت الشمس قد هبطت وهي تبعث أشرطة نور في غابة المقبرة فتبدو الظلال الطويلة مدورة وصلبة . وعلى طول ظلّ من هذه الظلال كان عصفوران بذيلين مرفوعين ينطّان الواحد إثر الآخر كما لو كانا فوق جذع ملقي على الأرض . لكن داريا لم تكن ترغب في العودة إلى هذا العالم حيث تضيء الشمس بأشعة المغيب وتنط العصافير . لم يكن الأوان قد آن . تمثلت كيف سيجتمع فيما بعد ، بعد أن تغادر من هنا إلى ذويها ، كثير من الناس لمحاكمتها — سيجتمع كل من مشى طريقه قبلها ، وتهيأ لها أنها تراهم جيدا واقفين في صف ضخم متباعد على شكل اسفين لانهاية له وكلهم بوجوه عابسة صارمة متسائلة . وعلى حد هذا الاسفين الضارب في عمق قرون كثيرة كانت ، وقد تراجعت قليلا كيما تُرى بشكل أفضل ، تقف وحدها في مواجهتهم . إنها تسمع أصواتا وتفهم عما تتكلم ، مع أن الكلمات تتردد غامضة مبهمة ، وليس لديها ماتجيبهم به . وتنظر في ارتباك ، في قلق ، في خوف إلى والدها مع والدتها الواقفين أمامها مباشرة وفي روعها أنهما سيهبان لنجدتها ، للدفاع عنها أمام الآخرين ، لكنهما يلزمان صمت

المذنبين . أما الأصوات فتزداد علوا ونفاد صبر وغضبا .. ... إنها تسألها عن الأمل ، تقول لها إنها هي داريا تركتهم دون أمل ومستقبل . وتحاول داريا أن تتراجع لكنهم لايمكنونها : وراءها صوت طفل يطلب إليها أن تلزم مكانها وتجيب ، أما هي فتعرف أنه هنا ، خلفها لايمكن أن يكون إلا سينكا ، ابنها الذي اخترمت الشجرة حياته . . .

تملكهـا الرعب فقطعت الرؤيا بجهـد . وراودتها ، وهي تعود إلى نفسها ، فكرة متردّدة ، غير ثابتة : « الظاهر إذاً أنه حتى هناك يستحيل دون أمل ، لايمكن في أي مكان دون أمل . هذا هو الظاهر » .

نهضت قليلا ، ترنحت وهي تقف على قدميها ، انحنت للربوة ثم اتجهت إلى حيث تتساقط الظلال : كان رأسها يدور أقوى مما قبل قليل ، لكن قبر سينكا لم يكن بعيداً — على بعد ثلاثين خطوة ، فدبّت تعرج إليه وخرّت ثانية على الأرض . قالت في نفسها : « الأرض تشدني ، تشدني . تشدني كما لم تفعل من قبل» . كانت تخشى التحدث إلى ابنها . هاكم من خدعته فعلا ، من لم تأت إليه : إنه ، المسكين ، هناك وسيظل يتقلّب وحده في المثوى دون أي صلة بأهله وعشيرته . الآن لم يعد في اليد حيلة على أي حال . كانت تجلس مثبتة أمامها عينين لاتريان ومستغرقة رغماً عنها في أفكار ثقيلة لاتعرف لها جوابا . ومن حولها كانت ترقد القبور المعرّاة الشوهاء ، ترقد بين أشجار البتولا والصنوبر وشجيرات الغبيراء وبطم الشمال وقد غطّاها الحشب فبدت كالحرباء . في كل واحد

من اثنين من هذه القبور تقريبا كان واحد من أهلها: أخ ، أخت ، خال ، جد ، جد جد ... كم عددهم هؤلاء الذين رأتهم للتو في مخيلتها الضعيفة ! ومع هذا فهؤلاء ليسوا كل أهلها وأقاربها ! لا ، الأرض تشدّها ، تشدّها . ارتعشت فوقهم الأوراق في الأشجار واهتز العشب العالي الآخذ في الابيضاض . وحملت نسمة ريح علوية سحابةً خفيفة شفافة إلى وجه الشمس فلم تحجبها بل فلطحتها ـ خبا ضوء الشمس وتصاعدت الظلال من الأرض وسرت في الجو برودة .

كانت داريا لاتنفك تسأل نفسها وتجهد للإجابة دون أن تتمكن من إيجاد الجواب : ومن يستطيع ، أيّ عقلٍ يستطيع اعطاء الجواب ؟ الانسان يأتي إلى العالم ، وبعد أن يعيش ويتعب من العيش كما هي متعبة الآن أو حتى دون أن يتعب من الحياة يقفل عائداً بالضرورة ؟ هاكم ما أكثر الذين وُجدوا قبل أن يجيء دورها ، وما أكثر الذين سيأتون بعدها ! إنها الآن في الثنية تماما : أحد النصفين موجود وسيكون ، والنصف الثاني كان : يكفي أن تُشد السلسلة قليلا إلى أسفل حتى تأتي حلقة أخرى : أي الحلقات أكثر تلك التي في الأول أم تلك التي في الآخر ؟

ومن يعرف الحقيقة عن الانسان ولماذا يعيش ؟ أمن أجل الحياة ذاتها أم من أجل الأولاد ، كي يخلّف الأولاد بدورهم أولاداً وأولاد الأولاد أولاداً آخرين ، أم من أجل شيء آخر ؟ وإذا كان من أجل الأولاد ، من أجل الحركة ، من أجل هذا الشدّ المتواصل فما معنى التردّد على هذه القبور؟ هاهم أهل متيورا يرقدون صفوفاً كاملة هنا صامتين بعد أن وهبوا داريا وأمثالها كل ما عندهم ، وما الذي ينتج عن هذا ؟

ماالذي يجب أن يشعر به انسان عاشت أجيال عديدة من أجله ؟ إنه لايشعر بشيء ، لايفهم شيئا ، يتصرف وكأن الحياة منه بدأت وبه ستنتهي إلى الأبد . أنتم الأموات قولوا لي : هل عرفتم الحقيقة كلها هناك ، وراء هذا التخم أم لا ؟ لماذا وُجِدْتُم ؟ نحن هنا نخاف أن نعرف الحقيقة ، ثم لاوقت لدينا لهذا . ماكنه هذا الذي يسمي الحياة ، ومن يحتاجها ؟ هل هي ضرورية لشيء ما أم لا ؟ أولادنا الذين ولدوا من صلبنا يأخذون ، بعد أن يتعبوا ويعملوا الفكر ، يسألون أيضا لماذا ولدناهم : ضيّقٌ المكانُ هنا وداخن ورائحة الحرق تنتشر في أجوائه .

« تعبت ، — قالت داريا في سرّها، — آه تعبت . لو إني لا أتحرّك بعد الأن بل اسقط هنا . اسقط واختفي تحت التراب واحظى بالسكينة التي طالما نشدتها ، واعرف دفعةً واحدة الحقيقة كلّها . الأرض تشدّني ، تشدّني . ثم أقول لكم من هناك : اغبياء أنتم . لماذا أنتم بهذا الغباء ؟ مامعنى طرح السؤال ؟ أنتم فقط الذين لاتفهمون ، أما هنا فكل شيء حتى آخر ذرّة مفهوم ، إننا نرى كل واحد منكم ، ومن كل واحد منكم سنطلب الجواب . سنطلبه ، سنطلبه . أنتم أمامنا كما في معرض ونحن نحدّق بملء عيوننا لنرى كل واحد ومايفعل ، كل واحد ومايذكر . الحقيقة في الذاكرة » .

كانت داريا تصدق الآن بصعوبة أنها ما زالت على قيد الحياة ، إذ خيّل لها أنها تنطق بهذه الكلمات من هناك ، وأنها نطقت بها فور أن عرفتها وقبل أن يتمكنوا من الحيلولة دون كشفها للآخرين . الحقيقة في الذاكرة . ومن لاذاكرة له لاحياة له .

لكنها كانت تدرك أن هذه ليست الحقيقة كاملة . كان عليها أن تنهض وتمضي كي تشاهد وتسمع حتى النهاية مايجري ، وبعدها تحمل هذا الذي رأته وسمعته وعاشته كاملاً معها وتلقى الحقيقة الكاملة مقابله . نهضت بصعوبة ومضت .

إلى اليمين حيث كانت الغابة الصغيرة تحترق ، كان اللهب يعلو ويفيض بضوء ساطع في عتمة المغيب ، وترصعت السماء بنجمات صغيرة . كان « الأرز الملوكي » الوحيد يلوح في المرعى قاتماً رهيباً . وكانت متيورا الحزينة ترقد بهدوء دون أي صوت أو نار كأنما هجرها الجميع دون استثناء تكاد بيوتها الصغيرة الأخيرة لاتبين .

• • •

- ١٩ -

كان يستحيل تصور متيورا، الجزيرة والقرية كلتيهما، دون هذه الأرزية في المرعى . كانت تشمخ وتترأس كل ماعداها كما يفعل راعٍ وسط قطيع من الغنم يسرح في مرعى . وكانت بالفعل تذكر براعٍ يؤدي خدمته القديمة القائمة على الحراسة . لكن أن يذكر أحدٌ الشجرة هكذا بصيغة المؤنث فأمر ماكان أحد يجرؤ عليه حتى ولو كان متعلماخمس مرّات. لا، كانت الشجرة تحمل صيغة المذكر « الارز » وبالتالي فهي « الأرز الملوكي » . كيف لا وهو ينتصب كأنما منذ الأزل بجبروت وسطوة فوق الربوة على بعد نصف فرسخ من القرية تراه العين من أي جهةٍ نظرتْ تقريبا ويعرفه الجميع . والظاهر أنه تطاول واكتسب من القوّة ما جعلهم يقررون في السموات بغية إرساء النظام العام والتوازن تقصيره — إذّاك دهمته تلك العاصفة المشهورة التي انقضت أثناءها صاعقة على « الارز الملوكي » وقطعت أعلاه وألقت به على الأرض . همد الأرز بدون رأس وضاع . لكن لا ، لم يفقد منظره الجبار الجليل ، بل لعله بات أرهب وأعزّ منالاً . ولا يدري أحد من أي وقت عاش بين أهل القرية اعتقاد أنه به ، « بالارز الملوكي »، تستند الجزيرة إلى قاع النهر ، إلى تربة مشتركة واحدة ، وأنه مادام قائماً ستبقى متيورا قائمة . وإلى أزمنة غير بعيدة كان الناس يتقربون منه في الأعياد الكبرى الدافئة كعيدي الفصح والعنصرة بالتقدمات التي كانت تتكوم عند جذره والتي كانت

الكلاب تتناهبها بطبيعة الحال فيما بعد . لكن هذا كان يُعتبر أمراً ضروريا وإلا غضب الأرز . هذه التقدمات اختفت بالتدريج في العهد الجديد . لكن احترام الشجرة الرئيسية الجليلة هذه والخوف منها بقيا عند الشيوخ كما في السابق . ولهذا ، في الحقيقة ، أسبابه .

لم تكن أغصان « الارز الملوكي » الثخينة الضخمة تمتد كما هو المألوف من الجذع إلى الأعلى ، بل كانت تتطاول جانبا كأنما نمت على جانبيه أشجار مستقلة . وكان أوطأ غصن يتدلى وحيدا على ارتفاع نحو أربعة امتار عن الأرض وكان يُسمى منذ القديم غصن باشا : فعلى هذا الغصن شنقت صبية من متيورا اسمها باشا نفسها غناءً بسبب قصة حبّ تعسة . وعند استيلاء جماعة كولتشاكوف على الجزيرة لم يكونوا قد سمعوا شيئا على الإطلاق عن باشا ، لكنهم استطاعوا بعد هذا التعرّف على هذا الغصن ، وعليه لاعلى سواه شنقوا جنديين من جنودهم . لاأحد في متيورا يعرف يقينا ما كان ذنب الجنديين . لكن المشنوقين ظلاّ طوال النهار يتدليان على مرأى من القرية كلها ملقيين رعباً لامثيل له في قلوب الكبار والصغار ، إلى أن ذهب رجال متيورا وطلبوا إنزال الجنديين عن المشنقة إكراماً للصغار . فأخذوا الميتين وعرضوهما لميتة أخرى : ألقوا بهما من أعلى المنحدر في نهر انغارا .

وآخر ميتة تحت « الارز الملوكي » ، وكانت هذه المرة ميتة لايد لأحد فيها ، حدثت بعد الحرب : سقط من غصن باشا إيّاه صبي هو ابن فيرا نوساريفا بعد أن زلّت قدمه والتفت الاغصان حول عنقه . بعد هذا فقط ، وكان يجب أن يكون هذا قبل ذلك طويلاً ، فطن الرجال إلى ضرورة قطع الغصن . وقام الصبية بحرقه . . .

هاكم كم ارتبط « بالارز الملوكي » من قصص .

لقد طرح في عمره من الهدب والأكواز ما جعل الأرض تنهض تحته تلّة رخوة تتقوس تحت الأقدام ينطلق منها جذع هائل لاتحيط به الساعدان . كانت البقرات تحك جلدها به ، والرياح ترتطم به ، وفتيان القرية يأتون إليه « بنقّافاتهم » ويسدّدون مسقطين كتل الصمغ التي كانوا يهدونها للفتيات . انقشر اللحاء مع الوقت وتعرّى الارز ولم يعد بوسعه أن يفتّح في الربيع هدبا أخضر . كانت الأغصان الضعيفة ، الرقيقة المتباعدة في الكُعب الخامس أو السادس تتهدل وتسقط . لكن ماكان يبقى كان يصبح ، فيما يبدو ، أقوى وأضمن كأنما التحم به إلى الأبد . ابيض الجذع وتعظّم وكانت قاعدته الجبارة الواسعة الكاشفة عن أعالي الجذور ترن بقسوة دون ماينم عن نخر أو فراغ . ومن جهة المتطلع إلى الأسفل ، كأنما من الظهر ، كان الارز تجويف أعوج واسع كأنما محشورٌ إلى الداخل وحسب ، وكان كل ماعداه يبدو سالماً كاملا .

وعلى مسافة يسيرة منه باتجاه نهر انغارا تنتصب شجرة بتولا مازالت تخضرّ وتعطي ورقا لكنها شجرة بان عليها الهرم وقرب الفناء. شجرة البتولا هذه قررت ذات يوم أن ترتفع إلى جانب « الارز الملوكي » الرهيب ، فأشفق عليها ولم يخنقها . لعلّ جذورهما تحت الأرض التقت وتشابكت . لكن هنا أمام العين كان يبدو كأنه يصبر على البتولا العارضة ، الضالة فقط بسبب رحمته العظيمة ، القلبية .

وجاء اليوم الذي اقترب فيه منه ، الارز الملوكي ، أناس أغراب . لم يكن الوقت نهارا بل مساء ، كانت الشمس قد غاصت وهبط الشفق على الجزيرة . كان هؤلاء الناس يعودون من عملهم المعتاد الذي كانوا

يؤدونه في متيورا من اسبوعين كاملين . وعلى الرغم من المهارة والجدّ اللذين كانوا ينفذون بهما عملهم ، إلا أن الوقت كان يمضي أسرع مما يمضي به عملهم ، وكانت المُهل المعطاة لهم تحاصرهم . كان عليهم أن يستعجلوا . كان لعمل هؤلاء الناس هذه الميزة وهي أنه كان يمكن الإعداد له وبدؤه كما يجب ومن ثم كان يمكنه أن يستمر بمفرده . وهذا ما جعل رجلين ذويْ وجهين مغطيين بالسخام أكثر مما ينبغي ومدبوغين ينعطفان قبل الليل عن الطريق ويقتربان من الشجرة .

لوّح الذي كان يسير في المقدمة وضرب برأس فأسه على الجذع يختبر « الارز » فانتفض برأسه مذعورا وكادت الفأس تسقط من يده لعنف ما ارتدّ إلى الوراء .

ـــ أو ـــ و ! ـــ قال الرجل مدهوشا ، ـــ يالك من وحش . سنريك . عندنا اثنان في اثنين أربعة . رأينا كثيراً على شاكلتك وألعن !

كان الثاني ، الأكبرُ سنّا ، يمسك بيده صفيحة ويتثاءب وهو يتطلع إلى القرية . كان يلبس جزمة عالية خاصة بالمستنقعات تئز حين يمشي أزيزا مطاطياً مزعجاً . بدت الجزمة من حيث العمل الذي كان يقوم به صاحبُها غير معقولة ومستهلكة عبثاً ، أما كيف كانت القدمان تصبران عليها فكان أمراً غير مفهوم . للماء على الأقل لم تعد صالحة ، فعلى فردتي الجزمة كانت تلوح ثقوب سود .

دار الرجلان حول الجذع وتوقفا قبالة التجويف المنخور . لم يكن الارز ينهض إلى العلاء باستقامة بل كان يميل قليلا منحنيا فوق التجويف كأنما ليخفيه عن الأعين الغريبة . حاول صاحب الفأس أن يقشر الشظايا ، لكن الفأس لعجبه كانت تنزلق وترنّ دون أن تتمكن من أن تنغرز

وتمسك بالخشب الصلب ، بل كانت تخلّف عليه تجعّدات فقط .
دهن الرجل ، وهو مبهوت ، الشـــجرة بطبقة من الهباب وتأمل على الضوء حد الفأس وهزّ رأسه .

— كأنه من حديد ، — قال مؤكدا وقذف من جديد تهديداً حسابياً غير مفهوم : — لابأس ، لن تهرب منا . عندنا خمسة في خمسة خمسة وعشرون .

ألقى الفأس اللامجدية جانباً وأخذ يجمع ويكسّر برجليه الاغصان الملقاة حوله مصالباً إيّاها تحت المشكاك المنخور . رشّ رفيقه في صمت وتثاءب الجذع بالبنزين من صفيحته وصب الباقي من البنزين على الكومة المعدّة للحرق . رمى الصفيحة خلف ظهره وأشعل عود ثقاب . شبت النار على الفور وارتفعت عالياً وغمرت الجذع .

— تمام ، — قال الرجل المهذار راضيا وهو يلتقط الفأس من الأرض.
— نوّري ، فالظلام مخيمّ ونحن لانهوى الظلام .

واتجها إلى القرية . ذهبا لتناول العشاء والمبيت وهما واثقان أن النار ستفعل فعلها أثناء نومهما . كانت النار ، وهما يبتعدان ، تلف كل القسم السفلي من الارز الجبار بوميض ساطع وكانت تشب إلى العلاء بقوة وسرعة بحيث كان من المعيب مجرّد الشك فيها .

لكنهما رأيا صباح اليوم التالي وهما يمضيان إلى عملهما في الطريق التحتاني من القرية أن الارز ينتصب في مكانه وكأن شيئا لم يكن .

— حلوة ! — قال الرجل إيّاه مشدوها — إنها تقف ، إي قفي قفي . — وأردف يغني بصوت غليظ جاف: «قفي ، قفي ياحلوتي ، دعيني أملّي عينيّ من مرآك» .

إلا أنه لم يكن على استعداد ليملّي عينيه من مرآها . إذ ما عتم مشعلو النار ، وهم الفريق المكلّف إياه ، أن عادوا إلى الشجرة بعد الغداء مباشرة بكامل مجموعتهم ، وكانوا خمسة . طافوا حول الشجرة من جديد ، تلمسّوها بفؤوسهم ، حاولوا طويلاً قطعها وتخلوا عن محاولاتهم : كانت الفؤوس تكشط السطح الرقيق المحروق وترتدّ عن الجذع كما عن مطّاط .

— ويحه من وحش ! — قال الرجل المرح بانبهار وهو يزرّ عينيه باتجاه الأرز — إنه يشبه مضيفنا ويقصد بوغودول . — إنه غير طبيعي مثله . لايريد أن يحترق بسهولة وأن لايعذّب الناس . ومع هذا سيستسلم . عندنا ستة في ستة ستة وثلاثون .

— لندعه وشأنه ، — اقترح في تردّد الرجل الثاني ذو الجزمة المستنقعية الذي خبر الأرز بالأمس وهو ينظر إلى قائدالمجموعة . — ما النفع في أن نكشطه حتى النهاية .

رفع قائد المجموعة ،وهو أحقرهم منظراً لكنه ذو شاربين كي لا يشبه الأطفال ، رأسه .

— معافى وصلب اللعين ! لن يستلموه هكذا . يجب أن نفعل شيئا .

— يلزمنا منشار .

— بالمنشار لن تنال منه شيئا . يلزم هنا منشار للمعدن .

— أنا أقصد منشاراً يعمل بالبنزين .

— لن يفيد ... — وأعقبها بكلمة بذيئة . — لأي شيء منشارك البنزيني إنه للدغدغة وحسب .

أحد الذين لم يكونوا بالأمس عند الشجرة رفع عن الأرض نثارة خشبية محترقة وشمّها .

ـ مالكم تتجادلون دون جدوى ؟ ! ـ قال بابتسامة ساخرة .

ـ لقد وجدوا عائقا ! القطران . انظروا ، تضعون قطرانا وتضرمون ناراً أقوى فيحترق فورا .

ـ لقد أضرمنا نارا البارحة .

ـ هذا معناه أنكم لم تضرموها كما يجب . يجب صب كمية أكبر من المحروقات .

ـ هيا نحاول مرة أخرى . يجب أن تحترق الشجرة .

أرسلوا صاحب الجزمة المستقعية إلى برميل البنزين على الضفة وانهمك الباقون يسحبون الخشبات من السياج المتداعي ويقطعونها ويطوقون الأرز بشبكة عالية بطول الانسان . طوّقوه طوقين وليس طوقاً واحداً وحشو داخلهما قشوراً معرّين شجرة البتولا وأغصانا كثيرة . في هذا الوقت كان قد جيء بالبنزين فصبوا منه بسخاء على الجذع وحوله وأضرموا النار من تحت ، من الارض . فرقعت النار مكرمشة اللحاء والقشور وباعثة دخانا أسود كالقطران . وفجأة شبت دفعة واحدة منتشية للحظة بنفسها الطويل وتصاعدت شعلة عالية ملتهبة . غطّى الرجال وجوههم بملابسهم الخارجية وهم يتراجعون .

ـ مثل اثنين في اثنين اربعة ـ هتف ذاك المرح بظفر .

لكنه تعجل الفرح مرّة أخرى . تراقصت النار ، تراقصت وأخذت تلحس البنزين وتتزلق ، تبتعد عن الشجرة ، كأنما كان الهواء هو الذي يستعر حولهم ، أما الارز فظل سليما معافى كأنه تحت حماية درع أمين .

بعد عشر دقائق خبت النار نهائياً ، بينما ظلّت العيدان الجافة تطقطق لكنها كانت تحترق بذاتها ، فلم تكن النار الصادرة عنها تتحرّش « بالارز الملوكي » بل كانت تظليه بالسخام مجرّد طلاء .

وسرعان مااحترقت العيدان ، وكان الإتيان بعيدان جديدة أمراً

لامعنى له . أخذ الرجال يطلقون الشتائم . أما الشجرة فكانت تشمخ فوقهم بسكون وجلال لاتعترف بقوة إلا قوتها هي .

— لابدّ مع هذا من محاولة أخرى بالمنشار البنزيني ، — قال قائد الفريق الذي أكدّ قبل قليل أن المنشار البنزيني لاينفع لشيء صلب وضخم كهذا .

ومرّة أخرى ترددّت لكن بصوت أعلى وثقة أكبر كلماتهم المتراجعة :

— نبصق عليها والسلام ! فلتبقَ . . . عليها ! هل ضايقت أحداً ! إلى أي حدّ سيرتفع الماء ! يجب أن نطهرّ القرية . ونحن علقنا هنا بهذه الشجرة ! . . .

— لاهمّ لنا إلا البصاق على كل شيء ! — قال القائد غاضباً . . . نحن معلّمون في البصاق ، لاداعي لأن يعلمنا أحد هذا . لكن حين يأتون لاستلام الجزيرة ، أين سنخفيها ؟ هل نغطّيها بالصدرية ؟ أحقّاً لن نرمي الشجرة أرضاً ؟

— لو كانت مجرّد شجرة ! . . .

انهمكوا في اليوم التالي منذ الصباح الباكر في معالجة « الارز الملوكي » بالمنشار البنزيني وكأن مايقومون به عملٌ له الدرجة الأولى من الأهمية وليس عملاً ثانويا . جهزّ القائد نفسه للنشر . اقترب من الشجرة ،من جانبها ودون ثقة ، رمقها بنظرة جانبية بروز قوتها وهزّ رأسه . لكنه أعمل مع هذا المنشار ، أدناه من الجذع وضغط . اهتزّ المنشار يكاد يفلت من يده إلا أنه خلّف مع هذا حزّاً خفيفاً . ضغط مرة أخرى بقوة أكبر مسترشداً بهذا الحزّ . أطلق المنشار عواء عالياً مجهداً ونفرت

من تحته رشّة من النشارة الغبراء العديمة اللون لكن القائد رأى أن المنشار حرن . كان الجذع الثخين لا يمكّنه من هزّه . كان جلّ ما يسمح به أن يُحجَزَّ دائريًا بحزّ غير عميق . وكان هذا أشبه بمن يضغط بشفرة حادة خطرة على قطعة معدن في محاولة لقطعها ، فالنتيجة واحدة . ورمى القائد المنشار .

ـ لايمكن قطعها ، ـ قال مستسلماً ورازها مرّة أخرى بعينيه رافعاً نظره إليها من الأرض حتى رأسها بعدأن عرف للشجرة كامل قدرها . ـ فليتعامل معك ياملعونة من بحاجة إليك !

ناول الحزمةَ المستنقعيةَ التي كانت إلى جانبه المنشارَ وأومأ بغيظ إلى شجرة البتولا .

ـ اطرح هــذه عــلى الأرض ! كي لاتظــلّ تتمايل هنـا . . .

وسقطت شجرة البتولا التي لم يكن لها من ذنب إلا أنها كانت ترتفع على مقربة من « الأرز الملوكي » الجبار والعنيد الذي لم يستسلم للانسان. سقطت وهي تكسّر آخر أغصانها بعد أن كشفت في أماكن القطع وحطمت تيلتها التي لم تعد بيضاء بل باتت شائخة ضاربة إلى الحمرة . لم يهتزّ « الأرز الملوكي » ولم يحرّك ساكنا جوابا على مايرى ، بل انحنى قليلا فبدا كأنه ينظر بصرامة واهتمام إلى الطرف التحتاني من الجزيرة حيث كانت تنتصب غابات متيورا .إنها لم تكن موجودة الآن.إنما كانت تلوح في بعض الأماكن بضع اشجار بتولا يتيمة ، وتلوح في أماكن الحرق أعمدة سود حادة متفحمة . كانت الأدخنة الواطئة الهامدة

ترحف في انحاء الجزيرة ، وكانت العيدان والحشائش في الحقول ذات التخوم المشوطة تلوح صفراء كأنها تدخّن ، وكانت البرودة تدبّ في المروج . كانت تلتصق بمتيوزرا العارية المشوّهة بودموغا العارية المشوّهة مثلها .

وظل « الأرز الملوكي » الصامد المتمرّد المقتدر يشرف ويسود على كل ماحوله . لكن الخواء كان كل ما حوله .

* * *

- ٢٠ -

لم يكن عند داريا جير مطفأ ولم يكن هناك مكان تحصل فيه عليه .
اضطرت داريا أن تمضي إلى لسان من الأرض قرب المنحدر العلوي
وتبحث عن حجر أبيض ثم تجرّه بجهد جهيد في دلو بآخر ما بقي في
يديها من قوّة، لأن الأكياس أُخذتْ مع البطاطا إلى البلدة ، ثم عبر
تنهدّات « ياعجزي » أن تحرق هذا الحجر كما كانوا يفعلون في الماضي.
لكنها لدهشتها بدأت وهي لاتصدق أنها ستجد القوّة اللازمة ، ومع هذا
تدبّرت أمرها فحرقت الحجر وحصلت على الجير . ووُجدت فرشاة ،
فالفراشي عند داريا من صنعها ، كانت تصنعها من عشب غابات أبيض
خفيف عالٍ تقصه قبل هطول الثلج مباشرة .

كان تحوير البيت يعتبر دائماً عيدا ، وكانوا يحوّرون مرتين في
السنة : مرّة بعد موسم الخريف قبل عيد السيدة(*) ومرّة أخرى بعد التدفئة
الشتوية على عيد الفصح . فبعد إعداد البيت وتنظيفه وتجديده ، وبعد
سحج أرض الغرفة حتى الاصفرار الذي للحليب المترسب كانوا ينتقلون
إلى الطبخ والغلي والقلي ويروحون ويجيئون حول الموقد المبيض ، على
الأرض الملعوقة الملساء ، في غمرة من النظافة والترتيب وفي ترقّب
للعيد الحافل. وكان في هذا كله من المهارة واللطف بحيث لم يكن الإحساس
المشرق بالانبعاث يغادر النفس لمدة طويلة .

لكن كان عليها أن تعدّ البيت لا للعيد ، لا . فبعد المقبرة حين سألت
داريا فوق قبر أبيها وأمها ما تفعل وسمعت ، كما تهيأ لها ، جوابا

(*) ويقع في ١٤ تشرين الأول.

واحداً انصاعت له انصياعاً كاملا. فالميت لا يوضع في التابوت دون أن يُغسل ويلبس أفضل مالديه ــ هذا هو المعمول به . وكيف يمكنها أن تُسلم للموت بيتها الوالدي الذي حملوا منه أباها وأمها وجدها وجدتها والذي عاشت هي نفسها حياتها إلا أقلها فيه وتمسك عن تزيينه نفس الزينة ؟ لا ، فليفعل الآخرون كما يشاؤون ، أما هي فليست بلا فكر ولا فهم . ستشيعه كما يجب . لقد وقف ، المسكين ، منتصباً حوالي قرن ونصف . والآن انتهى ، « راحت عليه » .

خلال ذلك عرّج أحد مشعلي النار وحذّر قائلا :

ــ ماذا أيها النسوة ــ كن جميعاً أمامه ــ داريا وكاترينا وسيما .

ــ لم نُخوّل بانتظـــار أن تمتن . عليكن بالمغادرة . وعلينا أن نكمل عملنا . لاتتلكأن »

وعجّلت داريا وإلا أحرقوا البيت لاقدّر الله دون أن يسألوا . كان كل الطرف الأعلى من متيورا ماعدا كوخ كولتشاكوف قد نُظف ، بينما لم يبق في الطرف التحتاني سوى ستة بيوت صغيرة متكومة على بعضها ومتشابكة تشابكاً لا فكاك منه . كان الأفضل تشييعها من الجانبين في وقت واحد ، إذ كان يستحيل انتزاع أحدها بمفرده .

قالت كاترينا بلهجة المذنب وقد رأت الجير المحضّر :

ــ لم ارتّب بيتي .

ــ لم تكوني تعرفين ما الذي سيحدث ، ــ أرادت داريا أن تهدّىء خاطرها .

ــ لم أكن أدري ، ــ ردّدت كاترينا دون ارتياح .

عندما كانت داريا تصعد إلى الطاولة كان رأسها يدور ، وخطوط

ناريّة برّاقة تمتد أمام عينيها ، وقدماها تتقصفان . فكانت تسرع إلى الجلوس خشية أن تسقط وتضغط رأســها بيديها ، ثم تعــود بعد أن تمسك به قليلاً وتعيده إلى نظامه وتوازنه فتنهض على أربعةٍ أولا (من حسن الحظ أن الطاولة ليست عالية وليست متقلقلة) ثم على رجليها .
كانت تغمس الفرشاة في سطل الجير ثم تستند بيد إلى المنضدة المقدّمة لها وتمرّر يدها الأخرى بالفرشاة دون مهارة على السقف في حركات قصيرة (وكان يجب أن تكون طليقة واسعة) وهي تزرّ عينيها . طلبت إليها سيما وهي تراها تتعذّب :

— هاتي عنك . أنا أصغر منك ولا أشعر بدوار .

— الزمي مكانك، — كانت داريا تجيبها في استياء مغتاظة لأنهما تريان عجزها .

لا ، ستحوّر البيت وحدها . فلترهق روحها ،لكن هذا العمل ستعمله هي ، لايجوز تكليف أحد به . يداها لم تتيبسا بعد . والحاجة هنا إلى يديها هي ، تماماً كما لدى دفن الأم : دموع الابن أو الابنة هي التي تريح وليس الدموع المستعارة ، دموع الآخرين . ليست بحاجة إلى من يعلمها التحوير ، ففي حياتها حوّرت بما يكفي ويزيد . ها هو الجير يستقر على مستوى واحد أملس ضارب إلى زرقة ناعمة بفعل المسحوق ، والسقف الذي أخذ يجف كان ينساب ويتنفس . كانت داريا تتطلع حولها وتقارن وتلاحظ قائلة : « إنه يجف بسرعة ، يحسّ بالأمر ، يستعجل . أوه إنه يستشم يستشم أمرا ، لا أكثر ولا أقل » . وبات يبدو لها الآن أن الحوار صار كامداً وحزينا ، وصارت تؤمن أن هذا مايجب أن يكون .

وهناك ، وهي على الطاولة والفرشاة في يدها ، باغتها مضرم نارٍ آخر — لقد تعمّدوا استعجالهم بالتناوب ، ومن دهشته فتح عينيه على اتساعهما :

— انت في تمام عقلك ياامرأة ؟ ! تعدّين نفسك للعيش ؟ غداً سنشعل النار وهي تحوّر . ماذا دهاك ؟ !

— غدا أشعل النار يا مشعل النار ، — أوقفته داريا من فوق بنظرة صارمة دائنة . — لكن ليس قبل المساء . والآن انقلع ، لاشغل لك هنا . لاتعقني . وغدا ، هل تسمح ، غدا تأتي لإشعال النار ، لكن إيّاك أن تدخل البيت . أشعل النار من هناك كي لاتدنّس لي البيت . فهمت ؟ !

— فهمت — أومأ الرجل المشدوه الذي لم يفهم من هذا كله شيئا وتلفّت حوله قليلا وخرج .

واستعجلت داريا ، استعجلت أكثر . لقد كثرت زياراتهم ، نفد صبرهم . لن ينتظروا أطول ، لا لن ينتظروا . يجب الإسراع أكثر ، يجب أن ننتهي ... وفي ذلك اليوم نفسه حوّرت الحيطان وطلت الموقد الروسي ، وساعدتها سيما عند المغيب في غسل السياج المطليّ ورفوف النوافذ ، وكانت داريا قد غسلت الستائر من قبل . كانت قدماها لاتطاوعانها ويداها لاتتحركان ، والألم يتدفق موجات صمّاً إلى رأسها . لكن داريا لم تسمح لنفسها بالتوقف لحظة حتى ساعة متأخرة من الليل لعلمها أنها إن توقفتْ بركتْ ولن تنهض . كانت تتحرك وتعجب من نفسها كيف تتحرك ولا تسقط — لا ، لقد رفدَ إذاً قواها الخاصة الضعيفة مددٌ خاص إضافي لأجل هذا العمل . ترى ، هل كان في مقدورها أن تنهض بهذا الكم الهائل من العمل من أجل شيء آخر ؟ لا ، ماكان بمقدورها ، هذا أمر لايحتاج إلى تفكير .

وغفت داريا على رائحة الخبز الناشف اللطيفة التي تنبعث البرودة من نظافتها .

في صباح اليوم التالي نهضت مع الفجر : أوقدت الموقد الروسي وسخنت ماء لأرض البيت ونوافذه . كان أمامها الكثير من العمل ، وليس أمامها وقت للرقاد . وحين فكرت في النوافذ فطنت إلى أن الدرف لم تبيض. كانت تحسب أنها انتهت من التبييض والتكليس وها هي ذي نسيت الدرف . لا ، هذا لايصح . حسن أنها لم تستنفذ الجير كله يوم أمس .

تطوّعت سيما من جديد :

— هاتي عنك !

ومن جديد رفضت داريا :

— لا، أنا بنفسي . انت يكفيك ماعندك من المشاغل . اليوم هو اليوم الأخير .

أخذت سيما تنقل مع كاترينا بطاطا نستاسيا إلى كوخ كولتشاك بالعربة يساعدهما بوغودول — كانوا ينقلون البطاطا من تهلكة اليوم ليضعوها أمام تهلكة الغد — هذا على الأرجح ماسيكون . فكوخ كولتشاك لن يصمد طويلا هو الآخر . لكن كان بالإمكان أن ينقذوا شيئا وهاهم ينقذون إذ لا مجال لأي تصرف آخر . لم يبق أمل في عودة نستاسيا ، إنما بقيت ، كما في السابق ، علاقة بالخبز والبطاطا قديمة ومقدسة كالعلاقة بالله .

كانت داريا على وشك أن تفرغ من تبييض درفة النافذة الثانية المطلة على الطريق حين سمعت وراءها كلاما وخطوات . كان هؤلاء

مضرمي النار في طريقهم فريقاً كاملا إلى عملهم . توقفوا على مقربة من داريا .

— بالفعل طار عقل المرأة ، — قال أحدهم بصوت مرح ومندهش .

وقاطعه صوت ثان :

— اصمت .

دنا من داريا رجل لايلفت مظهره النظر يضع آلة غريبة على كتفه . كان هذا يوم اقترب فيه مضرمو النار للمرّة الثالثة من الأرز الملوكي . سعل الرجل وقال :

— اسمعي ياامرأة ، بيتي اليوم هنا ، فعندنا اليوم مانقوم به . أما غدا « فخلاص » يجب أن تغادري . هل تسمعينني ؟

— اسمعك ، — أجابت داريا دون أن تلتفت .

حين غادروا جلست داريا على المصطبة واستندت إلى البيت متحسسة بظهرها خشبه المهترىء الحرش لكنه الدافىء والحي واطلقت العنان لدموعها . بكتْ بكل مافي قلبها من إحساس بالمصيبة والبلوى بدموع جافة أليمة : لشدّة ما كان هذا اليوم الأخير المعطى لها منّة وكرماً وعطفاً مرّاً ولشدة ما كان بهيجاً . هكذا إذاً ، قد يسمحون لك قبل الموت : حسنٌ عشْ أيضا حتى الغد . لكن ماذا نعمل بهذا اليوم وفيم ننفقه ؟ إيه ، إيه ما أطيبنا كلّ بمفرده ، وما أكثر مانفعل الشرّ ونفعله دون روية كأنما عمداً حين نكون معاً !

لكن هذه كانت آخر دموعها . وحين فرغت من بكائها نهرت نفسها أنْ ستكون آخر دموعها ، وليحرقوها مع بيتها ، ستتحمل كل شيء ، لن تشكو ، لن تصأى . أن تبكي معناه أنك تستثير الشفقة . وهي لم تكن تريدهم أن يشفقوا عليها . لا ، إنها لم تذنب أمام الأحياء في

شيء اللهم إلا أنها طعنت في السن . لكن كان هناك من يلزمه هذا على ما يبدو ، كان يلزمه أن تكون هنا وترتب البيت الآن وتشيع متيورا على طريقتها — وداع القريب الحبيب .

على الغداء اجتمعوا من جديد حول السماور — العجائز الثلاث والصبي وبوغودول وكانوا آخر من بقي الآن في متيورا ، أما الباقون فقد غادروها . اقتادوا الجد مكسيم : سندوه من إبطه حتى الضفة إذ لم يعد بمقدوره أن يمشـــي مشيته العادية . وجاءت إلى تونغوسكا ابنتها وقد صارت كهلة شبيهة الوجه شبهاً شديدا بأمها وجلبت معها خمرا . صرخت تونغوســكا طويلاً ، بعد أن شربت من النهر ، من فوق القارب المغادر ، بكلام بلغتها القديمة غير المفهومة . كان كوشكين البكر خلع في زيارته الأخير أطر النوافذ وأشعل النار بنفسه، بيده في البيت وحمل معه الأطر إلى البلدة . وهرع في الاسبوع الماضي فورونتسوف وتحدث إلى مضرمي النار ، وعندما وقعت عيناه مصادفةً على بوغودول ألحّ عليه بمغادرة الجزيرة على الفور وقال موضحاً :

— إذا كنت بدون أولاد ، بدون بيت أكتب لك تقريراً بأنك وحيد . واللجنة التنفيذية للمنطقة ستؤمن لك مأوى . فهيّا استعد .

— عكروت ! — أجاب بوغودول مديراً له مؤخرته .

— إيّاك انتَ يا ... ، — قال له فورونتسوف متوعداً وقد أربكه جوابه . — بإمكاني أن استدعي الشرطي ، هذا لايستغرق كثيراً ، وأنا لاأنوي الأخذ والردّ معك طويلا يا . . . هل فهمت أم لا ؟

— عكروت ! — وحاولْ أن تعرف : فهم أم لم يفهم .

لكن هذا كله كان ومضى . ففي اليومين الأخيرين لم يعد أحد

يظهر في متيورا ولم يكن هناك مايُفعل : لقد نقلوا كل مايجب نقله ، أما ما لاداعي لنقله فلا داعي . فما تكون الحياة جديدة إلا كي لا ندخل إليها بقديمنا .

على الشاي قالت داريا إن مشعلي النار أجلّوا نارهم إلى يوم غد وطلبت اليهم قائلة :

— بيتوا أنتم حيث كنتم تنوون المبيت . فأنا سأكون للمرّة الأخيرة وحدي . هل هناك مكان تتمدّدون عليه ؟

— أيها الرب الياباني ! — قال بوغودول بصوت ساخط وهو يفرد يديه : — الأرضية الخشبية .

— غداً أجيء إليكم ، — وعدتهم داريا .

بعد الغداء أخذت داريا تغسل أرض البيت زحفاً على ركبتيها وهي تأسف أنها لاتستطيع أن تكشطها كما يجب ، أن تزيل عنها الطبقة الرّقيقة للخشب والدوس ، ثم أن تفركها برمل انغارا كي تلمع وتلعب عليها الشمس . كان يتهيأ لها أنه بوسعها أن تقوم بهذا العمل للمرّة الأخيرة في حياتها . لكن أرض البيت كانت مطلية ، وكانت سونيا ، طبعاً ، هي التي أصرت على هذا حين جاء دورها في غسل الأرض ، ولم يكن بوسع داريا مجادلتها . الأسهل طبعاً هو الغسل على الصباغ ، لكن البيت ليس دائرة ، في البيت ليس بالأمر العظيم أن تنحني قليلا . هكذا لن يطول الوقت حتى يصبغ الناس أنفسهم كي لايذهبوا إلى الحمّام .

كم مشى الناس هنا وكم دبوّا ! ها كم كم خلّفوا من حفر صغيرة هي أشبه باوحات أرضية منقوشة . وهاهما قدماها آخر أقدام تدوسها . كانت تنظف وترتب وتشعر أن قوتها تتضاءل وتنفد ، وبقدر ما كان

العمل لديها يتناقص كانت قوتها تتضاءل وتتناقص . بدا لها أن كان على قواها أن تفيض دفعة واحدة وهذا ما كانت تريده وترغب فيه . لو أنها بعد أن تنتهي من كل شيء تتمدد عند العتبة وتغفو، وليكن بعدها ما يكون فهذا ليس شأنها . بعدها –سيفطن إليها الأحياء أو الأموات لافرق ويعثرون عليها ، وستذهب معهم حيث يشاؤون ، لن ترفض طلب أولاء أو أولئك .

مضت إلى الحظيرة التي باتت مفتوحة ، مهجورة ، بمزاليج ساقطة. بحثت في زاوية السور القديم عن المنجل الصدىء ذي البقع الصفر وحشّت بعض العشب . كان العشب مشعثا قاسيا صدىء هو الآخر قليلا . ولم يكن بالتالي بالعشب الذي يمكن فرشه لطقس كهذا ، لكن كان من المتعذر العثور على عشب آخر في هذا الوقت. جمعت العشب في كيس وعادت إلى البيت ونشرته على الأرض . لم تكن تنبعث من العشب رائحة الاخضرار بقدر ما كانت تنبعث منه رائحة اليباس والدخان . لكن لابأس ، فلن يطول من العشب المقام هنا ولن تطول منه هذه الرائحة . لابأس ، ماشي الحال ، لن يحاسبها أحد على هذا .

كان أصعب ما في الأمر قد حصل فعل ولم يبق إلا القليل . ولم تدع داريا نفسها تقبع فعلّقت الستائر على واجهة الموقد والنوافذ وأخلت الدكك والسرير الخشبي والمقاعد من كل ماهو زائد ووضعت بكل إتقان أدوات المطبخ في مكانها . لكن كان يتهيأ لها دائما خلال ذلك أن شيئا ما ينقصها ، أنها أغفلت شيئا يحسن ألا تغفله .أما كيف يُفعل هذا الشيء فهذا أمر لم يتهيأ لها أن رأته ولعلّ أحداً لم يتهيأ له ذلك . ما الذي يجب فعله لتشييع إنسان بالتكريم المناسب – هذا أمر تعرفه ، أجيال كثيرة من الذين عاشوا قبلها أورثتها هذه الخبرة ، أما هنا فكان عليها أن تعتمد

على حاسة غامضة غير واضحة اكنّ أحدهم مايني يوحي بها . لكن لابأس ، الآخرون سيسهل عليهم الأمر مادامت هناك بداية . النتيجة لن تهرب ، ستأتي حتما .

والذي كان مايزال ينقصها توضح لها . ألقت نظرة إلى الزاوية الأمامية الأولى ثم الثانية وحزرتْ : يجب أن تكون هناك أغصان تنوّب . وفوق النوافذ أيضا . صحيح ، كيف يمكن دون تنوّب ؟ لكن داريا لم تكن تعرف إن بقي شيء منه في مكان ما من متيورا — فقد داسوا وحرقوا كل شيء . وكان عليها أن تذهب وتبحث .

الغسق ، كان الليل يهبط دافئاً ، ساكناً ذا زرقة مشرقة في السماء وفي الغابات البعيدة المغسولة بالغسق . وكانت رائحة الدخان تنتشر كما كان حالها دائماً ، وهي لم تعد تنجلي الآن عن متيورا . لكن لسبب ما كانت تنبعث إلى جانب ذلك رائحة نداوة ، برودة عميقة كتلك التي تنبعث من الأرض عند حرثها . « من أين هذا ؟ » — قالت في داخلها تبحث عن السرّ دون أن تجده . « من هناك ، من تحت الأرض . — كأنما تهيأ لها أن سمعت جوابا . — من أين يمكن أن يكون أيضا ؟ » . وبالفعل : من أين يصعد روح الأرض الرطب إن لم يكن من الأرض ؟

اتجهت داريا إلى المجرى الفوقاني ، القريب فهناك كانت عملية النهب أقل من غيرها ، وكانت لعجبها تمضي بيسر وكأنها لم تدبّ النهار بطوله دون جلوس ، كأنما كان هناك شيء ما يحملها يكاد لايدعها تمس الأرض بقدميها . وكانت تتنفس أيضاً بانشراح ويسر . « صحيح إذاً ، لقد حزرت بشأن التنوب » . قالت في سرّها . وسرى في نفسها شعور طيب ومطمئن أنها تفعل كل ماتفعله حتى رفضها السماح لسيما وكاترينا مبيت الليلة الأخيرة عندها على نحو صحيح . ماالذي أمرها أن

ترفض هكذا فوراً ، دون أي فكرة سابقة ؟ لا بد أن شيئا ما هو الذي دفع مضرم النار إلى تأجيل ناره — فهو أيضا لم يفكر ، لم يتفطّن بل قال دون رويّة . لا ، هذا كله لايأتي ببساطة ، كلّه كان بمعنى ومغزى . وصارت تنظر إلى عصفور ذي صدر أصفر يطير من أمامها ومن جانبها ، يحطّ تارة ويرفرف أخرى كأنما يشير إليها إلى أين تمضي ، نظرتها إلى بشير .

عثرت على التنوب الذي صـــان لها نفسه وأبانها لها على الفور ، فقطفت حزمة كاملة وعادت إلى بيتها في الظلام . في البيت فقط لاحظت أنها عادت ، أما كيف عادت وفيما فكرّت فيه في الطريق فلم تتذكره . وكما في السابق لم يفارقها ذلك المزاج المشرق والآخذ بجوارحها سرّا حين كان يتهيأ لها أن أحدا يتبعها باستمرار ، أن احدا يقودها . لم يكن هناك تعب ، والآن ، تحت جنح الليل ، باتت رجلاها وقدماها كأنما بأجنحة ، وصارت تتحرك تلقائياً دونما صوت .

وعلى نور المصباح وفي ضوئه الخابي الضارب إلى الحمرة وقفت على المنضدة وعلقت التنوب في الزوايا ودسته في الرفوف العليا للنوافذ . وللحال فاح من التنوب بخور الوداع الأخير الحزين وتمثلت في ذاكرتها الشموع المحترقة والتراتيل العذبة الشجية . وأخذ البيت كله على الفور وجهاً جامداً حزينا محكوماً عليه . « إنه يشعر ، يشعر إلى أين أعدّه » .— كانت تفكر وهي تتلفت حولها في خوف واستسلام : ماذا أيضا ؟ ما الذي أغفلتُه ، نسيتُه ؟ كل شيء كما ينبغي على مايبدو . كانت هسهسة العشب اللزجة تحت الأقدام تزعجها وتكدّرها ، أطفأت المصباح وتسلقت صاعدة فوق الموقد .

لفّها صمت فظيع خاوٍ – لا كلب ينبح ، لا حجر يطقّ تحت رجْل ، لا صوت عارض ينطلق فجأة ، لا ريح تضج في الأغصان الثقيلة . كأن كل ما حولها سكن ومات . بقيت في الجزيرة ثلاثة كلاب تركها أصحابها لنزوات القدر ، وكانت هذه الكلاب تروح وتسعى في متيورا ، تتراكض في جوانبها لكنها خرست هي الآخرى هذه الليلة ، لا صوت ولا تأمة ،

تولى داريا الذعر فانسلت عن الموقد وأخذت تصلي .

رفعت طوال الليل صلاتها مودّعة بيتها بشعور من الذنب والاستسلام . وكان يتهيأ لها أن شيئا ما يتلقف كلماتها ، يردّدها ويحملها إلى بعيد .

في الصباح جمعت صندوقها الصغير المصنوع من الخشب المعاكس الذي كانت تحتفظ فيه بلباس دفنها ورسمت للمرّة الأخيرة إشارة الصليب باتجاه الركن الأمامي وتأرجحت عند العتبة ممسكةً نفسها كي لا تقع وتتهشم على الأرض ثم خرجت وأغلقت الباب وراءها . كان سبق للسماور أن وضع خارج البيت . وكانت سيما وكاتريتا تقفان عند بيت نستاسيا تحرسانه . قالت لهما داريا أن تأخذا السماور ومضت دون أن تلتفت باتجاه كوخ كولتشاك. وهناك تركت صندوقها الصغير قرب المدخل الأول ، واتجهت إلى المدخل الثاني حيث كان مضرمو النار ينزلون .

– « خلَصْ » ، – قالت لهم . – أشعلوا النار . لكن إياّكم أن تدوسوا عتبة البيت ... .

وخرجت من القرية . أين كانت طوال النهار لا تذكرُ . تذكر

فقط أنها مشت ومشت دون أن تعثر طولَ ما واتتها قواها ، وأنه كأنما كان هناك وحش صغير لم تره من قبل يركض إلى جانبها طوال الوقت ويحاول النظر في عينيها .

بحثت عنها العجائز ، صرخن يناديتها لكنها لم تسمع شيئا .

عند المساء وجدها بافل الذي وصل بالنهر في مكان جدّ قريب ، عند « الارز الملوكي » . كانت داريا تجلس على الأرض شاخصة ببصرها إلى القرية تنظر كيف تنقشع آخر الأدخنة عن القرية .

ـ انهضي يا أمي ، ـ قال لها بافل وهو يسندها ، ـ العمّة نستاسيا وصلت .

• • •

- ٢١ -

كانت نستاسيا تئن بصوت ضعيف محيطة وجهها بيديها وتنشج وتروح وتجيء إلى الأمام والوراء :

- آه ، يغور . - يغور !

كانت العجائز يلذن بالصمت في ارتباك وانسحاق لايدرين هل يصدقن موت الجد يغور أم لا . من يمكنه أن يقول إن نستاسيا لم تُمسّ في عقلها هناك في المدينة خلال هذه المدّة أكثر ، وإنها إذا كانت هنا تتوهم عن العجوز أشياء وتزعم أنه يبكي على الدوام ، وأنه إلى هذا ينزف دما ، ألا يمكن لرأسها المريض أن يكون أوصلَ العجوزَ إلى الموت هناك ؟ أما الجد يغور فقد يكون يجلس الآن في مكان ما يحرق دخان غليونه وكأن شيئا لم يكن . من المرعب تصوّرُ أنه صار بإمكان نستاسيا أن تدفن انساناً وهو مازال حيّا وأن الأمر وصل بها إلى هذا الحد . كما انه من المرعب تصوّرُ أن الجد يغور لم يعد على قيد الحياة . . .

كان سكن بوغودول ضيّقاً أشبه بممر وقذراً ومهملا إهمالا كاملا . ولم تزد الأشياء التي حملتها النسوة البارحة واليوم إلى هنا المكان إلا فوضى . كانت الصدريّات والملاحف والخرق البالية المربوطة عُقداً ملقيةً على أرضية النوم الخشبية فوق الحشيش المفروش ، وعلى الطاولة القبيحة المتشققة العارية ترتفع كومة من أدوات المطبخ ، وكان سماور داريا ينتصب على الأرض قرب النافذة الوحيدة غير

المزجّجة في قسمها السفلي . هناك ، في ذاك الخلاء كانت الشمس تهبط ، وكان الزجاج السالم القائم الذي ظلّ الذباب يسمّده سنوات وسنوات يتوقد تحتها كما الدهن . وعلى الأرض ،هناك ، حيث كان في وقت ما موقد حديدي ، غبار أحمر من أثر القرميدات داسته الأرجل . والآن لم يعد هناك أي موقد ، ولم يكن ينبعث في هذا القن كله ذي الأرضية الخشبية كمجثم الدجاج عند أحد الجدران والطاولة الطويلة كالطست عند الجدار الآخر ، أي نفس حيّ .

لكن كان الاختيار ، البحث عمّا هو أليق غير وارد : ففي هذا الوقت كان كوخ كولتشاك وحده الذي سلم ، لم يعد هناك أي معلف ولا أي حمّام . في الجهة التحتانية كانت ماتزال هناك بيوت صغيرة تدخّن ، وكان شيء ما في الرماد الحارق لم يقض عليه اللهب تماما يفرقع كالبارود بين الحين والآخر ، وكانت المواقد الروسية التي خرجت إلى العراء أمام أعين الناس تبرد برودةً مميتة ومخيفة . هذه هي النهاية : انقلعت ، طارت متيور ، رحمة الله عليها ! هذا الكوخ الذي رفعته أيدٍ غريبة لايُحسب على متيورا ، كان دائما شيئا زائداً ، على الهامش . حتى مضرمو النار لم يريدوا التعامل معه . فقد اجتمعوا عند المساء بكامل عددهم واقلعوا في قارب طلبوه مسبقا . عند رحيلهم عرّج اثنان منهم على ركن بوغودول حيث كانت سيما مع كاترينا تختبئان وهما ترتعدان خوفاً كي لاترين منظر البيوت المحترقة .

— ماالعمل معكما ، ايتها « الحرمتان » ، قال أحدهما ؛ — عجوزان لاترعويان.على أي حال ستطردان . وهل علينا أن ننتظر وننتظر بسببكما !

تبّاً لكما ! الأفضل أن نذهب إلى الحمام نغسل سخامكم . احرقوا هذه القلعة بأنفسكم مادام الأمر هكذا . .

ونادى الرجل الثاني بوغودول :

— وانت يا . . . ! هل تسمعني ! على ألا تتركوا شيئا بعدكم سالماً . هذا هو المفروض . هل عندكم كبريت ؟

— عكروت ! — جمجم بوغودول . وترجمت سيما التي دبت فيها الحياة بذعر وبهجة ما قاله :

— عندنا كبريت ، عندنا . نحن بأنفسنا سنفعل مايجب .

بعدهم ، بعد أن أقلعوا وصل بافل . جاء معه بنستاسيا ثم أتى بأمه من المرعى . ارتبك لايعرف مايفعل بالعجائز : لايمكن شحنهنّ في قارب واحد فهناك أيضا هذا الجذمور الطحلبي بوغودول ثم إنهم لن يوافقوا على السفر فورا . لقد أدرك هذا فور أن رأى أمه لكنه سأل مع هذا :

— لعلنا نجهّز أنفسنا اليوم ؟ غدا يمكن أن آتي لنقل الآخرين .

لكن أمه لم تكلف نفسها عناء الرد .

— حسن ، — قال بعد تفكير قصير موافقا — حسن : بما أن العمة نستاسيا هنا . بعد يومين آخذ قارب آليا . اتسمعين ياأمي ، بعد يومين . غدا أنا أعمل في الليل ، فكونوا مستعدين لبعد غد . وسآتي معي بأكياس، فلربما نقلنا معنا بطاطاكم .

سار وئيدا بمحاذاة الحرائق الساخنة وأقلع . وهكذا بقوا وحدهم تماما ، لكن لم يعودوا خمسة بل صاروا مع نستاسيا ستة .

بعد أن هدأ روع نستاسيا وأطفأت نار الألم التي شبت في صدرها من لقائها بمتيورا ، حدثتهم بما جرى :

— منذ أن وصلنا واستقرينا لم يخرج إلى مكان ، ظل قابعاً في البيت طول الوقت . كنت أقول له : « لماذا لاتخرج يايغور ؟ لماذا لا تخرج إلى الناس ؟ الناس كلهم هنا من الغرقى . الغرقى — هكذا يسمّينا هناك الآخرون الذين ليسوا من انغارا . العمارة كلها ، تصوروا ، من الغرقى . في المساء ننزل إلى خارج البيت إلى أمام الباب حيث الناس في الشارع يكرّون، نجلس ونغمغم نغمغم: كل ومن أين أتى : هناك عجوز من تشيريبانوف وأناس من فوروبيف ومن شامان ، نجلس ونتحدث عن الحياة القديمة وعن هذه . . . وهو طول الوقت في البيت ، وطول الوقت وحده . يشغّل الراديو ، والراديو هناك لنا ، ويأخذ يستمع ويستمع إليه . وكنت أقول له : « هيّا بنا يايغور نستمع إلىمايقوله الناس . ماالشيء الجيد الذي ستسمعه على الهواء ؟» . لا ، يصرّ ويحرن . لاتستطيع أن تسحبه بأي شكل . وكان يغضب مني لأني ألحّ عليه .يقبع ، لايغادر كأنه عفريت بيتي وهو نفسه يبكي يبكي .

ـ عندما ذهبتِ بكى أيضا؟ عندما أتيتِ إلى هنا ؟ — سألتها داريا وهي تحبس انفاسها وتشعر بالخجل من كلماتها التي أرادت بها توريط نستاسيا لتكتشف الحقيقة :

ولم تدرك نستانسيا قصدها فأعادت السؤال :

— عندما ذهبت ؟ إلى أين ذهبت؟

— عندما أتيتِ إلى هنا ، الينا ؟

اختلج وجه نستاسيا وارتعش .

– كان يمكن أن يبكي . . . كان يمكن أن يبكي . . . لكن ، لكن كيف سيبكي ؟ بعد أن مات لم يعد يبكي ، أنتم ماذا تقولون ؟ كان يرقد مضيئا . . . كنت ألطم نفسي فوقه ، ألطم نفسي ... – إهتزّت مرّة أخرى إلى الأمام والوراء ... – وهو راقد ، راقد ، صامت صامت ...

– هل ساعدك أحد في الدفن ، لا ؟ – سألت كاترينا . وكأنما سرت نستاسيا بسؤالها فقالت بهدوء وحيوية أكبر :

من حيث الدفن ساعدوني ، ساعدوني كثيراً ! لماذا الكذب ، أناس طيبون . إنهم ناسنا ، من نهر واحد شربنا . أكسينيا التي من تشير يبانوف أتت وغسلته . ماذا أقول : كل المدخل أتى . هناك كل من له باب على الدرج يقال له مدخل . حصلوا على تابوت لاأدري من أين وجاؤوا به ولفوه بقماش – أنا لم أمدّ يدي إلى شيء . ثم جاؤوا بسيارة وحملوه . والحق يقال، أكسينيا رتبت كل شيء . امرأة نشيطة بغض النظر عن أنها عجوز ، وفي قرية كقريتنا عاشت . لكنها تعوّدت على الحياة بعد أن جاءت إلى هنا . أما يغور فلم يرد أن يتعود ، آه كم تململ وكم بكى . . . طوال النهار وهذا الراديو إلى جانبه . يستمع ويتنهد ، يستمع ويتنهد ، وأسأله : « ماذا يقولون هناك يايغور ، ماهذا الذي لاتشبع من سماعه » . الزرع ، كان يقول ، يجري على قدم وساق . . . « أي زرع هذا ونحن في الخريف ، انظر من النافذة ، هل فقدت عقلك ؟ » « هذا الزرع يجري على مدار السنة » . وأقول له : ماذا تهرف يايغور ؟ ماذا تخرّف؟ الأفضل ياختيار أن تبكي ، لا أن تتخيل أشياء لاوجود لها . ويغور كما تعرفون كان هاوي مماحكة . « أهرف وأخرف أني أعطي محصولاً » . لقد صار في نهاية الأمر يخلط في الكلام . صار لانعدام

الهواء الطالق شفافاً كله ، ابيضّ ورقّ . كان ينطفىء أمام عيني . وأسأله : « ماذا يؤلمك يا يغور ؟ أين يؤلمك ؟ » فأنا لست عمياء ، كنت أرى أنه يذوب . لم يشأ أن يكاشفني مرة واحدة بألمه ، حتى الساعة الأخيرة ظل يعاند ويكابر . « ها ، اسمعي ، هل يلقون قنابل ؟ » وكنت أقول له « هذه ليست قنابل يايغور ، انها الأرض يفجرّونها كي لايقلبوها » . العجائز على الدكّة تحت هن اللواتي شرحن لي أنهم يفجرّون الأرض وإلا كدت أسلم الروح في مكاني عندما سمعت صوت الانفجار لأول مرة . أما هو فلم يكن يخرج أبدا ، وكنت أنا أنقل إليه أن الأمر كذا وكذا . « الطنين في أذني أنهكني » . كان يشكو من هذا الطنين فقط ، وليس من أي شيء سواه .

ــ ومات بهدوء ، لم يتعذب ؟

ــ مات بهدوء ، بأهدأ من الهدوء مات ، فليطعمني الله ميتة كهذه .

في النهار قال لي: « اذهبي يانستاسيا واجلبي لي بعض الخمر . لاأدري لماذا أشعر بضعف . سأحرّك بها دمي وإلا فانه انحبس تماما » . وذهبت . المخزن هناك في الجهة المقابلة ، لم يكن في ذلك المخزن نبيذ أحمر فمضيت أقطع شارعا آخر مقابلا . كانت هناك سيّارات ، من كل أنحاء المعمورة كانت سيّارات وكانت تشخر بشكل ، كانت تشخر بشكل . خفت أن أمضي ، بل إني توقفت . صار رأسي ينوس إلى هنا وهناك ، يروح ويجيء مع السيّارات العابرة . سرت طويلا على مايبدو ولمّا عدت نظر إليّ يغور متسائلا . قلت له لقد أتيت لك بالخمر ، لاتزعل يايغور أنا لست « مشّاية » في المدينة . ولم يقل شيئا . نهض إلى الطاولة ، نهض وترنح وخجل من نفسه لأنه ترنّح ولعن نفسه. كان

الوقت مساء حين جلسنا . جلسنا قليلا ، شرب مقدار اصبعين من الكأس .
لا ، قال ، هذا ليس مشروبا ، إنه لاينزل في الحلق وعاد إلى سريره .
نمنا كلّ بمفرده ، هو في السرير وأنا في ذلك السرير الذي يُطوى
والذي يستعمله أهل المدينة . تمدّد فرأيت أنه يحدّق فيّ . « ماذا يايغور ،
هل يلزمك شيء ؟ » . اختلج صوت نستاسيا . مالت إلى الأمام كما
ينحني الناس حين لا يطيقون صبرا في انتظار جواب . سألته ثانية .
« ترى هل يلزمك شيء ؟ » . فأنا أرى أنه لاينظر إليّ عبثاً . وارتدّتْ
إلى الوراء .— لم يقل مع هذا شيئا . أعرف أنه كان يريد أن يقول، ومع
هذا لم يقل كأنما خشي أن يخيفني . كان يحسّ بالموت ، كان يحسّ
به . أبعدتُ الضوء وتمدّدت وغفوت أنا الخرقاء ، غفوت ! — قالت
كأنما ندّت عنها صرخة الكتّها صححت نبرة صوتها وضبطته . —
صحوت في الليل ، سمعت مطراً خفيفا ينزل . فكرت : ماهذا ؟
من المساء لم يكن بالإمكان رؤية أي غيمة . ومع أن السماء لاتُرى هناك
بوضوح ، إلا أني كنت أتطلعّ إليها دائماً بحكم العادة . وكان المطر
رتيبا هادئاً بشكل ! آه ، قلت في نفسي ، هناك شيء ما ليس على ما يرام .
اقتربت من النافذة . كان المطر قد بدأ للتوّ ، ولم يكن بلّل الأرض بعد .
اذكر أن يغور كان يتذكر المطر بين الحين والآخر ، كان يقول :
منذ زمن طويل لم يهطل المطر . قلت له بصوت خافت : « يغور ،
المطر يهطل . لماذا كان يلزمك ؟ » . وكررّت السؤال : « لماذا كان
يلزمك ؟ » لكنه ظل صامتا . هرعت اتحسس الجدار أبحث عن النور .
وأشعلت النور بينما كان يغور ، يغوري . . .
وبكت نستاسيا .

غابت الشمس ، وحلّ الظلام سريعاً في القن . كانت العجائز غارقات في صمت ثقيل وساحق ، وكان الصبي يهزّ سيما من كمّها في ذعر وكانت هذه تحاول التخلصّ منه بضعف ، وكان بوغودول يعبّ الهواء وينفثه محدثاً صفيرا ثم نهض دون أن ينتظر حتى تتولى العجائز أمر السماور فحماه في هذا الصمت إلى المدخل . وأخذ الماء يبقبق .

— جدتي ، جدتي ، — رفع كولكا صوته .

استدارت نستاسيا ولمحته .

— مازال كولكا معك ؟ — سألت هذه سيما .

— معي ، معي ، أجابت سيما على عجل ، — مع من يمكن أن يكون ؟ مادمتُ حيّة أين أذهب به ؟

— كان عندنا أنا ويغور أولاد أيضا ، — قالت نستاسيا ، — لابد أن داريا وكاترينا تذكران . ألا تذكران ؟

تبادلت داريا وكاترينا النظر ولم تجيبا آملة الواحد منهما في الأخرى .

— يعني ، أنا أكذب ؟ — صاحت نستاسيا باستياء .

— سامحك الله يانستاسيا ، — قالت داريا تهدئها وربتت بيدها على ظهرها .— سامحك الله ، ماذا تقولين ؟ جئتِ وحسنٌ أن جئت . لقد كنا بانتظارك . . . لقد قلعنا بطاطاك .

— أي بطاطا ؟

— بطاطاك ، بطاطا حاكورتك .

— آ ، — أشاحت بوجهها ، — أين أروح بها ؟

— أين ، أين ، لاأعرف ، لكن ليس للبطاطا أن تضيع في الأرض .

فطنوا إلى ضرورة إشعال الضوء ، لكن لا ، فعند بوغودول كما عند الصرصار ليس هناك ما تشعله — لامصباح ولاشمعة . أما داريا فقد تركت مصباحها في البيت ولابد أنها اضاءته بكل قوته . مضت كاترينا إلى الجناح الثاني حيث نزل مضرمو النار ، لكنها لم تستطع أن تعثر على شيء هناك . هكذا كان عليهم أن يجاسوا في العتمة . هذا هو إذاً ما يجب أن يكون ، بل إن هذا أفضل : فهذا القبح لن ينتصب طول الوقت أمام عيونهم ، والرحيل لن يخيفهم بالغد القادم . لقد طهّروا متيورا . خرج منها آخر الذين كتب لهم أن يعيشوا أطول وغاب النور ، وتهيأ لهم أن كل شيء انتهى — لن يأتي أحد ولن يشرق ضوء ، وأن قدرا ما سيحملهم هم الذين لا زالوا ملتصقين بمتيورا في الظلام ويظلّ يحملهم إلى أن تدق ساعتهم دفعة واحدة . وكأنما شعر الصبي بهذا فهتف شاكيا ، وأخذت سيما تهدئه .

جاء بوغودول بالسماور الذي غلى ماؤه ووضعه على الطاولة من جديد وتلمس في كومة أدوات المطبخ المبخر وغلى الشاي . شربوا الشاي دون أن ينزلوا عن الأرضية الخشبية وهم يمسكون الأكواب الساخنة المطلية بالميناء بكلتا أيديهم . لم يطلب أحد سكرا ولا خبزا — كأنما لايُفترض أن يكون شيء من هذا كله . شيء جيد أن بقي شاي على الأقل . تسللت من ثغرة في النافذة نسمة باردة ، فأسرعت سيما تخبئه عنها وتوسده . لكن كولكا استمرّ يهنف . وما أن طلع الضوء قليلا وبانت الحيطان حتى أعلن بوغودول :

— الشمس الغجرية ، عكروت !

وتذكرتْ داريا فسألت نستاسيا :

— أخذت السماور معك ووضعته هناك ، لا ؟

– وضعته مرتين طول هذا الوقت، – قالت نستاسيا وهي تتنهد –. مرّة في حياة يغور ومرّة أخرى بعده. جاءتني أكسينيا التي من تشيريبانوف وقالت لي: تعالي نغلي الشاي أوي أي شاي. ذاك؟! الماء لا أراك الله مصبوغ، فهناك يسممونه بشيء ما كي لاتفوح منها رائحة انغارا ، كما لايوجد فحم . قامت أكسينيا فجمعت أعواد صنوبر وعبأت السماور ونزلنا به الدرج إلى الطريق . فأين يمكن أن نسخنه إلا هناك ؟ لايوجد أي مكان آخر. جلسنا معاً نحرسه، والناس من حولنا يروحون ويجيئون ويضحكون. أكسينيا جسورة لاتخاف شيئا . تعبنا من الانتظار فيلون مدخنة لامجال لأي سحب للدخان والعيدان مثل الحجارة . ورغم هذا انتظرنا حتى غلى، وكان علينا أن نسحبه إلى الداخل . شقتنا في السماء الرابعة ، وأنا بالكاد أزحف إليها حين لاأحمل شيئا ، أقف عند كل درجة من ضيق نفسي . والدرج ماشاء الله واقف . أما عند أكسينيا فالسماء الثالثة ، أوطأ ، وإن قليلا . هناك عند كل مدخل تطل عليك أربعة أبواب ، باب أكسينيا هو الأخير عن شمالك وانت صاعد . وهكذا لم نستطع أن نجرّ انفسنا حتى شقتي، صار قلبي ينطّ بشكل ، ملنا عليها مع سماوري. هناك عجوز أخرى تعيش معها . تلك نحيلة جدّا ، بالكاد تمشي على أرض البيت المستوية . لكن ماكدنا نجلس حتى برد السماور . نعرف أنه يستحيل تسخينه ، ومع هذا لابأس ، لابأس .

– ستعودين ، لا ؟

– أويْ ، لاأعرف ياداريا . حتى الآن لاأعرف شيئا . بودّي ألا أعود ، لكن إلى أين اذهب ؟

– انت لست مرتبطة هناك كما أعلم .

– لست مرتبطة ، ولكن أين المفرّ ؟ من بحاجة إليّ ؟ هذا صحيح .

لكن قبر يغور هناك فكيف أتخلى عنه ؟ سيكون من نصيبنا أن نرقد هناك كل بمفرده على مايدو ، فحتى نرقد معاً يجب أن نموت في ساعة واحدة . لقد استعلمت عن هذا . المقبرة هناك جديدة . يدفنون الجميع بالدور وكلّ وما يصيبه . أويْ،لو اني لا أصمد طويلا فقد أجد لي مكانا لايبعد عن يغور . لا أدري إن كنت سأمضي الشتاء أم لا . . . قلت في نفسي أذهب إليكم أزوركم والقي على متيورا النظرة الأخيرة ثم آخذ أعدّ نفسي . هل احترق بيتنا أنا ويغور ؟

— لم تريْ إذاً ؟ اليوم فقط احترق . عندما وصلت كان يكمل احتراقه . ناحيتنا ظلت صامدة حتى اليوم ، واليوم احترقت دفعة واحدة . ألم تري ، معقول ؟

— لم أر شيئا . لم أر كيف أبحرت ولا كيف ركبت الباخرة ، كأنما كل شيء حدث في الحلم . كان شوقي لإلقاء نظرة أخيرة على متيورا كبيراً ، كبيراً جدا بحيث لم أر شيئا . لم أكن أرغب في شيء ، كسرة الخبز لم تكن تنزل في حلقي . لكن لا ، سأذهب إلى متيورا وإلا لن تكون لي حياة بعد الآن . آتي معي بقطتي نيونيا . أوي ، — قالت وقد فطنت ،— قطتي نيونيا حية ؟ لم أسألك ياداريا، ألم أترك لك نيونيا ؟

— إسألي عني إن كنت أنا حية أم لا ، وأنت عن قطتك ..

— أين هي نيونيا ؟ لقد طلبت إليك أن تنتبهي إليها .

— البارحة كانت حية . أما الآن فلا أعرف أين هي . أذكر أني طردتها البارحة مساء من البيت كيلا تحترق . قد تكون عادت فانسلّت إلى زاوية ما أو لعلّها تهيم في مكانٍ ما .

— يجب أن أبحث عنها غدا يجب أن أناديها ، كيف يمكنني

بدونها ؟ أويْ ، كيف سأعيش الآن وحدي ؟ كيف سأبقى وحدي ؟
- نشقت نستاسيا في العتمة وأخذت تهتز إلى أمام وخلف.

أوحت إليها داريا بغتة :

- خذي معك سيما مع الصبي إذاً . هما أيضا لايعرفان كيف سيعيشان وإلى أين يتجهان . أو خذي بوغودول ، وإلا ما لك حديث سوى عن نيونيا . . .

- إلْ ، - رفض بوغودول الفكرة - المديـنة ! - وبقبق باستنكار .

- ليس هناك ماهو أفضل لي من أن تذهب سيما معي ،- قالت نستاسيا مبتهجة - سنعيش معاً . فهناك كما تقول أكسينيا ، سيُسكنون معي في الشقة امرأة أخرى على أي حال . مالي بغريبة ، نحن من متيورا وسنعيش خلف باب واحد . بالفعل ليس هناك ماهو أفضل .

- لاأدري ، - ارتبكت سيما ،- ستكون هناك ضرورة لأخذ إذنٍ . وقد لايعطوننا . ما كان أحسن لو . . .

تنهدت نستاسيا :

- أنا لاأفهم في هذه الأمور شيئا . أكسينيا هي التي تصول وتجول وتشير عليّ ، وأنا بدونها كنت ضعت . الحياة هناك ليست في الحقيقة سهلة . المدينة هي المدينة . عليك أن تشتري الخبز وتشتري البطاطا وتشتري البصل . الخبز لا ، ليس غاليا . . . جرتني أكسينيا معها ذات مرّة إلى السوق . . . ذهبنا على العجلات . دار رأسي بقوة ، وأخيرا وصلنا . ولماذا ذهبنا ؟ قفة البطاطا بثلاثة روبلات ، رأس الثوم بروبل . ماهذا الذي يجري قلت في نفسي ، أين يمكن للانسان أن يأتي بكل

هذه الروبلات ؟ إنها عملية نهب خالصة ! وهكذا عدت خالية ، لم أشتر شيئا . لكنني بالمقابل شبعت . أولاد المدينة هؤلاء يغتنون ، أوه ، كم يغتنون ويكسبون ! من أين ينهبون هذا كله ، ولماذا يحتاجونه ؟ آه ماأقول ، طالما كان معنا مال من الذي أخذناه ثمن البقرة كنّا نعيش به . . . والآن لاأدري . يعدونني بمعاش تقاعدي عن يغور ، لاأدري . ادفعْ بدل الشقة ، ادفع بدل النور ، ومع هذا ماشي الحال ، فأنا الآن آكل قليلا ، ليس هناك شيء ضروري ،ماعاد هناك شيء ضروري ، أحيانا كنت أنسى أن أضع كسرة خبز في فمي وكان هو لايطلب مني ذلك . مثل قديسة صرت ، سقمت .

تململ بوغودول عند الطرف ، قرب الباب يهيء نفسه للنوم وصمتت نستاسيا . كانت كاترينا تتنهد بين الحين والحين ولم يعد صوت الصبي ولا صوت سيما يسمعان . كان هناك ضوء ما بعيد ، عميق وبارد يدوّم في القن ويسقط في تموجات خفيفة غائمة على الجدران والوجوه ويلقي ظلالاً على الباب المقابل للنافذة . وغرقت العجائز في الصمت والضياع ، غفونَ مسحورات بهذا الضوء .

* * *

– ٢٢ –

وصل بافل إلى البلدة عند المغيب . كانت السيّارة الّتي ظلت تعمل على الخط بين الضفة والبلدة طوال الصيف قد توقفت عن العمل . أقفل بافل القارب وتحدث قليلا إلى الحارس العجوز البودفولوشيني فوروتيلا الملقب هكذا في وقت سابق لقوته الهائلة والذي صار الآن متيبسا وضعيفا إلى حدّ كبير وتوجّه يقطع عشرة فراسخ باتجاه الجبل مشيا على الأقدام لولا أن حالفه الحظ فجأة : فبعد نحو فرسخ أو أكثر لحق به على دراجة نارية رجل غريب يضع خوذة فوق وجه جاد صارم كثير التجاعيد وتوقف من تلقاء نفسه دونما أي طلب وأركبه خلفه . لم تكن هناك ضرورة لسؤال الرجل عن وجهته ، فالطريق من عند المنعطف لاتؤدّي إلاّ إلى البلدة ، ولم يكن أحد يحتاج إليها لأكثر من هذا أو لأقلّ منه . وهكذا وصل بافل على هذه الدراجة السريعة والقاحلة في عشر دقائق . أوقف الرجل الدراجة عند المرآب في مدخل البلدة وردّ على شكر بافل بصمت ، بمجرّد إيماءة من رأسه ، وانعطف في الشارع يساراً ، أما بافل فتابع السير أمامه مباشرة ، إذ كان شارعه يمتد إلى أعلى ، إلى قرب الغابة .

غابت الشمس ، وفي الضوء البارد المتكشف الذي يُبرز كل شيء بدت القرية أشبه ما تكون بمنحلة . كانت البيوت الوحيدة ترتفع خلف أسوار غير عالية ، وحيدة هي الأخرى لكنها صماء ، صفوفا متساوية

منتظمةً في خطين مستقيمين أحدهما باتجاه اليسار والآخر باتجاه انغارا .
وفي الحقيقة البلدة بقيت كما كانت إلى اليسار أما الشارع الذي صعد فيه بافل فكان المتطرّف وكانت كل ابنية الانتاج — المرآب ، الووش ، محطة البنزين ، بناية المراجل ثم الحمّام فيما بعدها (وكان يسمى الحمّام العمالي) تشغل الجهة اليمنى كلها منه في العمق . كان الشارع الصاخب الضاج بطقطقة الآليات الذي تنتشر فيه رائحة البنزين والفحم والحديد الكريهة هادئا ، خاليا هذه المرة بشكل مدهش . كان بافل ينقل خطواته ملازماً الناحية المأهولة منه حيث قدر أقل من الأخاديد والحفر .
كانت الحياة تسير سيرتها هناك وراء الأسوار — هناك كانوا يتحدثون وترتفع الأصوات ، هناك ، حين كان بافل يعبر ، كانت الكلاب تُرعد بسلاسلها وتنبح (أمر فورونتسوف بربط كل الكلاب بالسلاسل بعد أن كاد الشرطي فانيا سوسلوف ، وهو شاب من كتيبة حرس الحدود ، يردي نصفها برصاصه) ، هناك وراء الأسوار كانت الحياة آخذة في الاستقرار ترسم لنفسها خطّها ونظامها ، ولعلّه غُرست هناك أشجار بطم الشمال والبتولا . أما هنا في الشارع ، فكما في كل الشوارع دون استثناء ، ففضاءٌ رحبٌ عارٍ — لاجنينة ولاشجرة صغيرة واحدة. إمّا لأن يد القاطنين لم تمتد بعد إلى هنا أو لأنهم كانوا يرون أن لاداعي ، لاضرورة فالغابة من حولهم . وفي مكان ما في الشوارع السفلية كانت الدرّاجات النارية تطقطق دون انقطاع — كان الشبّان يتعلمون السواقة . لقد تكاثرت الدراجات هذه ، تكاثرت ! إنها في كل فناء ، يذهبون لشرائها من براتسك وحتى من اركوتسك، يشترونها بعجلة غير طبيعية، يتخاطفونها وكأن انتاجها قد توقف أو كأنها الدرّاجات الأخيرة المتبقية ، أو كأنما للتباهي : نحن أيضا لسنا عاجزين ، نحن أيضا نملك

شيئا ونستطيع أن نفعل شيئا . ومع هذا فان بافل نفسه ، ودون أن يدرك كنه هذه العجلة ، فكرّ أن لابدّ له مع مجيء الربيع أن يقتني هو أيضا درّاجة . في متيورا الدراجة لالزوم لها . كل شيء في متناول اليد ، أما هنا فعليك أن تذهب للمناوبة أكثر من ساعة إذا كان مشيا ، وفي الصيف إلى الماء حين صيد السمك وإلى الغابات ذات الفطور أو الثمار البرية . حيثما اتفق لك أن تذهب هنا فعلى اثنتيك لن تستطيع : هذه ليست متيورا .

الواقع هو الواقع – هذه ليست متيورا . هاهي ذي متيورا لم تعد موجودة ، رحمة الله عليها كما كانت ستقول أمي وهي ترسم إشارة الصليب . هاهي ذي متيورا القرية لم تعد موجودة ، وعمّا قليل لن تعود متيورا الجزيرة موجودة أيضا . مازال بإمكانك حتى الآن أن تبحر وتلف وتحزر هل هنا كان مكانها أم لا . ومن عجب أن بافل كان يتصور هذا الآن ببساطة ووضوح كشيء ما عايشه وعاناه أكثر من مرّة – تصور القارب فوق الماء الهائل المرتفع عاليا وهو نفسُه في الزورق يحاول بواسطة الضفاف البعيدة أن يحدّد موقع متيورا محدّقاً بتمعن في كتلة الماء السوداء المتجمدة إن لم يكن يأتي من هناك ، من الأعماق الناعسة إشارة أو يلمع في مكان ماضوء . حين تقطع الماء بالعرض ، حين تبحر من الضفة إلى الضفة المقابلة يمكنك أن تقول هنا لأنك تقطعه في مكان محدّد تعرفه ، أما بالطول فلا . بالطول لايمكنك أن تحزر حتى على وجه التقريب أين ، على أي خطّ كانت المسكينة ، أين عاشت وأين دُفنتْ . . . انتهى كل شيء وتذكرّها بعد ذلك إن كنت تتذكر . لكن الأمر العجيب وغير المفهوم أنه لم يكن يشعر الآن بشيء إلا بألم مريح زائل كأنما خراج استقرن ، استقرن وانفجر . وعلى أية حال كان يجب أن يحدث هذا وقد حدث ، ولقد تعبوا في ترقّب هذه النهاية المحتومة وتعذبوا أكثر ممّا في الفقد نفسه . كفى ، كفى . . .

لم تعد هناك فيهم أي قوة . لن يكون علينا بعد الآن أن نضني بمتيورا ، تقارن شيئا بآخر ، نسعى إلى هنا وهناك ، نضجّ ونشاغب ونثير الخواطر ونرهق أعصابنا بلا نهاية . عليك الآن أن تأخذ من الحياة الجديدة هنا ، في هذه البلدة ما يمكنك أن تأخذ ، أن تستقر بثبات فيها ، أن تضرب فيها بكل جذورك السالمة الباقية .

انعطف بافل يساراً وبعد أن ألقى بطرف عينه نظرة إلى أحد الشوارع ، وكان الأقرب إلى بيته ، مضى يصعّد في الجبل من جديد . امتدّ من أحد الأفنية دخان شهيّ وتوقف بافل الواصل للتو من حيث كانت الأدخنة لم تنقشع عن الأرض منذ شهر ، ونشق رائحة لطيفة كأنها مرتبطة بكل القديم الذي كان عليه ، كما يبدو ، أن يختفي مع الانتقال لكنه لم يختف . حقاً إنهم لايشعلون المواقد والحمّامات هنا ولا يوقدون النار للتدخين ، لكن أحداً لم يُلغ ، مع هذا ، الدخان الخفيف في قطعة أرضه : وأخذ بافل يتذكر إن كان أشعل ناراً ولو مرّة واحدة طوال الصيف في فناء داره لسبب من الأسباب وتبين له أنه لم يشعل نارا . القمامة المكوّمة كومةً تتعفن في الزاوية ، والعشب يرتفع فوقها : عزم في الربيع أن يحرقها لكنه تصور كيف سيهرعون إليه : ماالذي يحترق ؟ وصرف النظر ، تركها مع أن أحداً على الأرجح ما كان ليهرع ويقول شيئا . لم يعتادوا : كل شيء تفعله هنا بحذر واحتراس كأنك في ضيافة انسان غريب تنتظر تعليمات لكل ما يجب أن تفعله . وتذكر بخجل ، وقد عاد بالفكر إلى سفرته اليوم إلى متيورا ، تذكر كيف وقف اليوم قرب بيته وهو في آخر مراحل احتراقه وأخذ يبحث في داخله لينتزع منه شعورا قوياً ممزقاً لنياط القلب ، فليس جذع شجرة ما يحترق بل بيته هو ، ولم يستطع أن يجد وينتزع شيئا سوى دهشة مرّة وخرقاء -

أنه عاش هنا . اشدّ ما فسدت النفس ! وفكرّ بافل كأنما تبريراً لأمر ما أنه كثيراً مايضطر إلى أن يتذكر أنه يعيش،وإلى أن يستحثّ نفسه ويدفعها إلى الحياة . فبعد الحرب ظل سنوات وسنوات غائبا عن الصواب وقليل من الذين حاربوا عادوا إلى صوابهم كما تهيأ له . إنهم يفعلون كل ماهو مطلوب — يلدون الأولاد ، يؤدون عماهم ، يرون الشمس ويبتهجون ويغتاظون بكل قوتهم ، لكنهم يفعلون كل مايفعلون كأنما بعد موتهم أو ، على العكس ، كأنما للمرّة الثانية يفعلون بجهد ، باعتياد بإذعان صبور . كان بافل يعرف عن نفسه أنه كثيراً ما تنتابه اختلالات يضيع فيها ذاته ، يدعُها تذهب فيها على هواها ولفترة طويلة : أين كان ، أين سرح ، ماذا فعل — لايذكر . ثم يفيق إلى نفسه ، يمسك بذاكرته قريبةً منه ، يدبّ بثبات أكبر ، يفعل كل ما يجعله يربط نفسه ، يثبتّها بشكل أقوى . يمضي على هذا المنوال اسبوعاً ، اسبوعين وأحياناً أكثر لتعود إليه بفعل قوّة ما حالة الضياع ، حالة من الخبل والاغتراب كما عند المروبص حيث تتحرك إنما تتحرك دون رأس ، فقط بقوّة العطالة .

فاضت دفعةً واحدةً أصوات فتيّة ، وحزر بافل أنها من المدرسة . انتهت الدروس. كان مقطع المدرسة العرضي ذو ماسورة تصريف الماء المطلية بطلاء الألمنيوم بشكل جميل يُرى من هنا ويلفت إليه النظر . ألقى عليه بافل نظرة ، وهو يتنهد لسبب ما ، وأسف لأن أولاده كبروا ولن يكون من نصيبهم أن يتعلموا هنا . لقد بنوا مدرسة جيدة حتى بالمقاييس المعاصرة : رشيقة ذات ثلاث طوابق ترتفع فوق كل ماعداها وذات نوافذ . وإذا كانت البلدة تشبه فعلاً المنحلة بخلاياها المنتظمة في ترتيب واتساق فان الابنية غير المخصصة للسكن — المدرسة ، المخزن ،

روضة الأطفال ، المطعم وحتى الحمّام – كانت تبرقش البلدة وتخفّف من رتابتها الجميلة والكئيبة . وبالفعل كم يكون جميلا أن يكون أحد إن لم يكن من أبنائه فمن أحفاده يذهب إلى المدرســـة وأن يستدعوه إلى اجتماعات الأولياء ويسائلوه عن علامات حفيده السيئة وعن شيطناته . هوذا إذاً السبب في الكآبة التي تمسك بخناقه حين ينظر إلى المدرسة ويسمع ، كما يسمع الآن ،أصوات الفتية . لقد مضت الحياة إذاً ، مضت وإن لم يئن أوانها بعد . وتذكر مرّة أخرى أمه وهو يفكر في هذا ، تذكرّ أنه يجب نقلها بطريقة أو بأخرى . ومرّة أخرى لم يصدق أن رجلها ستطأ في يوم ما هذه البلدة . شيء ما لم يدعه ، لم يسمح له أن يصدق ، لم يكن بوسعه مهما حاول أن يتمثل هذا إذ كانت غشاوة تسقط أمام عينيه للحال .

من هنا ، من الجبل بدا كأن ضوء النهار المنسحب قد ازداد ، فكانت سطوح البيوت المغطاة بالأردواز تنساب من شارع إلى شارع موجات هادئة حية . كانت الدراجات تطقطق مثيرة الغبار كما في السابق ، وكان عويل الجرّار المجهد يتناهى من الحقول ، وكان طلاب المدرسة يلغطون ويضجّون وهم يتوزعون في الطرقات ، وكانت بقرة محبوسة في مكان ما داخل فناء تطلق بين الحين والآخر خواراً يفيض بالمرارة والألم . وفي البعيد البعيد خلف حاجز الطوف حيث كان يجري نهر انغارا لاحت الضفة المقابلة زرقاء تنهض فوقها بشكل حاد ، شاقولي تقريبا سماء جامدة صافية انغرزت فيها خلف الأفق ريشة واحدة رحيدة من سحابة خفيفة ذات حمرة خفيفة . أما هنا ،فوق رأسه فكانت الشمس قد بردت واربدّت ومالت إلى هناك أيضا ، إلى جهة أنغارا . لم يكن الأمر كما في متيورا حيث الرطوبة تنتشر بعد المغيب مباشرة ،

بل كان ماحوله دافئاً وجافاً ، وكان هذا الدفء يأتي من الأرض التي سخنت طول النهار ومن الأبنية ، وكان بافل يشعر كيف كانت رائحة الطلاء والبنزين تفوح منها .

وصل بافل إلى شارعه الذي تقوم بناياته على امتداد جانب واحد من جانبيه مقابل الغابة . بلغ باب الحديقة وتوقف يتطلع إن كانت مايكا بين البقرات الهائمة بين الشجيرات والمطقطقات بأرجلها الاغصان ، ولم تكن مايكا هناك . ألقى نظرة من الشق في السياج فرآها في الحديقة .

ما اذكاها من بقرة ! حتى هنا حيث الدواب توحشت دون مراع وعناية فراحت تجوب الغابة كالوحوش ، ترى مايكا تعود من تلقاء نفسها إلى البيت كل يوم . وهذه الذكية المطيعة لابدّ من ذبحها قريبا . فكر بافل أنه يلزمه استدعاءشخص آخر لهذا العمل لأنه لن يقدم بنفسه عليه حتى ولو قطعت رقبته ، بل إنه سيهرب من الفناء ويظل يهيم على وجهه إلى أن ينتهوا من هذا الأمر . لم يكن بوسعه أن ينظر إلى خنزير صغير يجهزون عليه أو إلى ديك يقطعون رأسه ، أما سونيا الحازمة في مثل هذه الأمور فكانت تلوّح بيدها في عجز واستهانة حين كان يتأهب للهرب . لقد عاش الحرب ورأى مختلف أنواع الميتات بعينيه ، ولازال حتى اليوم يحارب في لياله ويشيع القتلى ، لكنه هنا لايستطيع أن يتحكم في نفسه ، هكذا خُلق .

ولسبب ما لم يشعر برغبة في المضيّ إلى البيت . . . لم يشعر وحسب . كان المساء يجري هادئاً ساجيا يغمر وجهه برقة ، ولم يكن الظلام قد أطبق تماما . بدت كل أصوات البلدة الكبيرة وكل ضوضائها كأنها تبتعد — كأنما كانت حركة الزمن الآمر الذي لاراد له إياها تحملها معها . طارت من شجرة الحور الرجراج قبالته ورقة سمراء وتسمرّت في

الجوّ تتبين أين تتجه ، لكن الحركة إياها تلقفتها وحماتها إلى الطريق وقلّبتها فوق الأرض قليلا . أومأ بافل دونما ذاكرة ودونما فكرة لشيء ما : هذا مايجب أن يكون . وافهم إن استطعت ماهذا الذي يجب أن يكون ، ماهذا الذي عاوده قلقُه القديمُ القديم عليه .لعله كان يجب أن يصر ، مع هذا ، وينقل معه أمه اليوم . لقد غادر متيورا دون أن يشعر بأي قلق خاص يقينا منه أنه سيأتي بعد غد بقارب وينقل الجميع دفعة واحدة من الجزيرة كي لايفرّق بينهم في هذا النزوح ، اكنه أحسّ فجأة بانزعاج . لا ، ليس « فجأة » فقد كان شيء ما يئنّ في داخله ويتوجعّ منذ أن تركهم ، بينما كان يحسب أن السبب شيء آخر . لكن كيف كان له أن يصرّ ؟ مع والدته لن يطول الكلام، فهي، إن لم تشأ ، لن تترك العجائز وحدهن وتذهب بدونهن ، وحتى لو بقيت وحيدة فما كانت على الأرجح لتغادر فور إزالة بيتها وقبل أن تتمكن من تهدئة نفسها ولو قليلا فوق التراب الحبيب ، إلى جوار هذا البيت .

ومرّة أخرى لم يصدق بافل أنها ستدخل هذا الباب في يوم من الأيام..

وقف أيضا بعض الوقت ، وقد ألم به عذاب لا عزاء له ، ثم مضى إلى الداخل — آن له أن يرتب أموره ، فغدا عليه أن يذهب إلى عمله في الصباح الباكر . كانت سونيا تجلس تحت،في المطبخ تحيك في انتظاره ، وكان يمتد من حلّة كبيرة على الأرض ثلاثة خيوط أحمر وأخضر وأسود . لقد شُغفتْ بالحياكة هنا في البلدة حين جلبوا إلى المخزن كمية من الغزول النادرة لا تعرف إن كانت من ريغا أو من باريس . وتناهبتها عاملات الدوائر دون استثناء للسبب نفسه مرّة أخرى — كي لاتتخلف إحداهن عن الأخرى . في متيورا لم تستهلك سونيا أي صوف من أغنامها ، كانت أمها هي التي تحيك لها الجوارب والقفازات بسُمْك إصبع ،

ولم تكن تلك الجوارب والقفازات تعرف البلى . اسكبْ فيها ماء لن يرشح الماء ،وليس كعمل سونيا الذي حسب الموضة وذي الثقوب المتصلة كأنه الدنتيلاّ .

قالت سونيا وهي تنهض لتطعم بافل :

— ابن بلدنا أتى الينا مرتين هذا المساء يسأل عنك .

— من هذا ؟

— بتروخا . قال : « اين أمي ؟ » .

— تذكرّ أمه . . .

— أنا أيضا قلتُ له : ألم تذكر أمك باكراً يابني ّ ؟ ألا انتظرتَ حتى تُغْرقَ ّ فتبحث عنها ! لم يكن بالمقدور أن تعرف إن كان صاحيا أوثملا ، فهو يثرثر على شاكلة واحدة !

ولم يأخذ بافل في الاستفسار عمّا ثرثر به بتروخا ، فهذا أمر لم يكن يثيره . أمّا الالتقاء ببتروخا فأمر لازم : فليساعده بتروخا بعد غد في نقل العجائز ، وليأخذ أيضا أمه التي قلق عليها فجأة — إنما أين يأخذها ، إلى أي قصور مسحورة فهذا ليس شأنه هو بافل . أما هو بافل فكان يشعر ويتوقع أن سيقع عليه عبء إسكان سيما مع الصبي وبوغودول واصطحاب نستاسيا في طريق العودة . ستكون أمامه متاعب ومتاعب كثيرة ... لكن ليس هذا هو المرعب في نهاية المطاف. فهو سيسوّي هذه الأمور بشكل أو بآخر ، أما الذي كان يخيفه أكثر ولايدع فكره يعمل ويحلّ ويخمّن مسبقاً ولو قليلا فهو ماستكون عليه حال أمه . التأجيل يوما واحدا لايعطي شيئا ، حسبك أن تلتفت حتى يكون بعد غدٍ قد جاء ، وعليك أن تذهب إليها وتنقلها . . .

ما ان انتهى من عشائه وقبل أن يصعد إلى الطابق العلوي حتى سمع

وقع جزمة على الشرفة ، وحزر بافل من هذا الإيقاع العالي المقصود والمحذر أنه بتروخا . إذكر الذئب . . كما يقول المثل . لكن بتروخا لم يكن وحده ،فقد كان معه(وما كان لأحد أن يتوقع ذلك) فورونتسوف. دخل فورونتسوف وقبل أن يقول « السلام عليكم » راح يلوب بعينيه المدورتين الجاحظتين في وجهه المدوّر والمورّد يبحث في الزوايا .

— بافل ميرونوفتش ، — سأل بسرعة وبصوت آمر مُطالب :

— أين عجوزكم ؟

— في متيورا ، — أجاب بافل وقد بدأ يحزر فيما الأمر .

— كيف في متيورا ؟ ألم تسافر اليوم إلى هناك ؟ لماذا في متيورا ؟

— سافرتُ ، لكنها لم تأت معي .

— هل سنمزح أم ماذا ؟ — أحتدّ فورونتسوف وقد استبد به الارتباك . — كيف لم تأت ؟ ما معنى لم تأت ؟ كان لايزال غير مصدق ، ولهذا ما توقف عن التطلع في الزوايا بل إنه وثب إلى بسطة الدرج وتطلّع إلى فوق .

— غير موجودة ، غير موجودة ، — أوقفه بافل وإلا كان فورونتسوف صعد إلى فوق . — لماذا أخدعك ! إنها غير موجودة هنا . إنها هناك . تقول إنها لم تشبع من الحياة هناك فبقيت تعيش قليلا .

— وأمي؟— صرخ بتروخا وكان يمكن أن يظن المرءُ أن قلب بتروخا خضُب بالدم جزعا على أمه — هي أيضا هناك ؟

— إذا لم تكن أخرجتها فهي هناك أيضا .

— متى ؟ ! — جأر بتروخا — متى أخرجها ! اليوم فقط عدت من مهمّة . كنتُ في مهمة ، ها هو بوريس اندريفتش يمكنه أن يقول ،

– قال يُشهد فورونتسوف وهو يهزّ أمام أنف فورونتسوف يداً قذرة مضمّدة لسبب ما وملفوفة بخرقة سوداء . من هذه الحركة الهوجاء ومن هاتين العينين المتوقدتين والصوت المخنوق تماما أدرك بافل أن بتروخا غير صاحٍ .

انتفض فورونتسوف .

– مهمة ، – قال محتدا . – مُ – هِ – مّة ! لماذا أمك موجودة في مكان لايفترض أن تكون فيه أيها السكير الشقي ؟ ! مهمتك أن تكون أمك موجودة هنا . أو فلتوجدحيثما تشاء ، لكن ليس هناك . وأنت ماذا تفعل هنا ؟ هناك أمر بهذا الخصوص وهو يتعلق بالجميع . هل سنفهم أم ماذا ؟ . . .

أما من حيث الفهم فبافل فاهم أن هذا الكلام ، هذا الصراخ ليس موجها إلى بتروخا قدر ماهو موجه إليه طبعا .

لكن بتروخا قرّر أن يغتاظ .

– قد أكون سكيرا ، – تطلع بتروخا إلى الجميع بطرف عينه داعيا إياهم أن يشعروا معه بمسؤولية هذا الاعتراف . – أمّا أنْ أكون شقيا ، فعفوا تحرّك يارفيق فورونتسوف بوريس اندرييفتش . أنا لاأستطيع أن آخذ على عاتقي هذا اللعب . ليس لي الحق ، بلى ! – وهنا هزّ رأسه وسكن متملياً قوة كلماته . – أما أني سكير فماذا في الأمر ، سكير . . . وصمت بتروخا قليلا ثم أردف ... – ماذا كنتم ستعملون بدون هؤلاء السكيرين ؟

وعاد فورونتسوف يسأل بافل بسرعة وعصبية دون أن يسمع ماقاله بتروخا .

– وأين ينزلون هناك ؟

– في الكوخ .

– في الكوخ ؟ الكوخ مازال قائما ؟ الكوخ مازال قائما ؟

– مازال .

– لكنْ هذا ! لكن هذا . . . هل تفهم مامعنى هذا ؟ . .

– انتفض فوورونتسوف واندفع إلى النافذة ، أما ماكان يريد أن يراه هناك فلم يكن أحد يدركه – وانتَ ، – ارتد عن النافذة وانقضَّ على بافل ، – انت يابافل ميرونوفتش ، أين كانت عيناك ؟ أين كنت تنظر ؟ كيف سمحت بهذا ؟ انت شيوعي ، لست كهذا ، – وأومأ إلى بتروخا باستهانة ، –وأ نت لاتستطيع أن تدعو أمك ابنة المائة عام إلى الالتزام بالنظام ! الكوخ مازال قائما ! – قال فيما يشبه الأنين . – غداً عندي لجنة حكومية . في الصباح ستدهمنا ، فماذا سأقول لها ، هل أريها الكوخ ؟ هل أريها المتخلفين على هواهم ؟ لجنة حكومية ، أتفهم يابافل ميرونوفتش ؟ ! وحضرته راح وجاء ويشرب الآن الشاي وكأن شيئا لم يكن ! من سيحاسبون غدا ؟ – وعند هذا السؤال الذي طرحه هو نفسه توترّ وأمر بحزم قائلا : – استعدوا ، كفى لعبا ! يجب أن تقدّروا الموقف . مع الصبح يجب ألا يكون هناك لاكوخ ولاناس . وانت إيّاك أن تختفي ، – قال محذّرا بتروخا ، – سنذهب معنا ، ستذهب في مهمة ،ومعي . وانت يابافل ميرونوفتش جهّز نفسك أيضا. كفى ! هذه قضية حكومية . الشيطان وحده أعلم بما يجري !

لم تكن بيافل رغبة في الذهاب فهو قد تعب والليل على الأبواب ، وعليه غدا أن يذهب في الصباح الباكر إلى ورديته . معنى هذا أنه لن يتهيأ له أن ينام إطلاقا ، لكن أكثر ماكان يريده ويرغب فيه هو ألا يقلق الآن العجائز ويطردهن من عشهن ويضرم النار أمام اعينهن في آخر

ماتبقى في متيورا – في الكوخ الذي منحهن الملاذ الأخير . لكن ايس في اليد حيلة : كان يجب أن يذهب . تصور بافل كيف سيأخذ فورونتسوف يسعى في العتمة ويصرخ في العجائز يستحثهن ويدفعهن إلى القارب . وكيف سيأخذ يتوعدهن دون انتقاء لعباراته ويلعن ويشتم ويسب معهن كل شيء على هذه الأرض . تصور أمه وكيف ستنتهر هذه السلطة ، وبأي ألم وإلحاح ومطالبة سوف تنظر إليه ، إلى بافل . . . وتصور نستاسيا المرتبكة المرتجفة من الخوف التي ستأخذ تؤميْ برأسها من ذعرها دون انقطاع . . . وتصور الصبي الصغير وبوغودول المشاكس المتبسّل الذي يجب أن يراقبه فلربمّا ، وما أدراك ، هجم على فورونتسوف . . . تصوربافل هذا كله واقترح على فورونتسوف قائلا :

– لعلك تبقى هنا . فنحن سنتدبر الأمر بشكل من الأشكال .

– لا ، – تشنّج هذا ، – لا يابافل ميرونوفتش ، لا استطيع أن أعوّل عليكم بعد الآن. كفى، لم تعودوا موضع ثقة . علي أن أقدم حسابا يوم غد ويجب أن أكون متأكدا أن أرض الجزيرة نظيفة تماما . فإذا ما عوّلت عليكم ما أدراني ألا تفعلوها فيّ من جديد . يجب أن نفهم المطلوب ، وأنا المسؤول عن هذه المهمة .

أمر فورونتسوف بتروخا أن يذهب إلى صاحب القارب ويطلب إليه أن يجهـّز نفسه وأعطاهم نصف ساعة حتى يكونوا في المرآب حيث قرّروا التواجد كيما ينطلقوا من هناك دون تأخير ووثب خارجاً .

– وماذا ، – قالت سونيا ، – بالفعل ، لماذا نعرّض الرجل لضربة ؟ إنه المسؤول .

– وليكن مسؤولا ، – استشاط بتروخا غيظا ، – فليكن مسؤولا ، لا أحد يمنعه من أن يكون مسؤولا ، لكن فليحترم الناس . أنا لست

جرموذ شجرة بالنسبة له كي يجلس عليه ويسبني بما يعن له . عفوا تحرك ، أنا عندي كبريائي . يسمح لنفسه بالتمادي في الصراخ والسبّ ! لقد رأينا كثيراً من المناضلين على شاكلته ! صاحب سلطة !

لكن إلى أن اجتمعوا ، إلى أن بحث بتروخا عن ميكانيكي القارب الذي كانوا يسمونه صاحب القارب وهو انسان كهل متجهم مندب من ملاك السائقين وهزّه وأيقظه ، ثم مضى هو نفسه لقضاء حاجة خاصة به ، مرّ ليس نصف ساعة بل ساعة كاملة . ولم ينطلقوا إلا في العتمة وقد بانت النجوم في السماء . انطلقوا في باص صغير ينقل العمال في الصباح إلى أماكن عملهم . جلس بافل إلى المقود . كان الطريق جيدا فدرجوا عند سفح الجبل بسرعة . كانت الغابة تندفع نحوهم على عجل وعلى عجل تتراجع وتنشق على الجانبين ، وكانت قطعة صغيرة مجنّحة من الليل تلوح غائمة في ضوء السيّارة وقد تمكنت من اختراقه بأعجوبة ، وكانت الحصى تهسهس تحت العجلات محدثة صوتا متسقا ليّنا متصلا. كانوا يجلسون وراء بافل صامتين . حاول بتروخا أن يبدأ حديثا ويلمّح إلى فورونتسوف عن مسألة العمل الإضافي ، لكن فورونتسوف اعتبر مجرّد مقاطعته أمراً لايليق به هو فورونتسوف فصمت بتروخا متألما ومقطّبا لسبب ما (رأى بافل هذا في المرآة) أما العجوز غالكين فقد استسلم للنوم . كان فورونتسوف يجلس في المقدّمة منتصباً يكاد حتى لايتأرجح حتى حين كانت السيارة تتأرجح ، بل يحدّق بتمعّن واستياء في المرآة الأمامية.

قطعوا نصف الطريق ، وأحس بافل عند منعطف بالرطوبة ترشّ النافذة ، ولأمر ما صارت الغابة تندفع ببطء وكسل أكبر ، وازدادت خشخشة الكاوتشوك اختناقا . وحين وثبت السيارة إلى منبسط من الأرض يبعد نحو كيلو متر ونصف عن النهر أخذت تنطلق باتجاه السيّارة قطع

ليفيّة رمادية نادرةً أول الأمر ثم آخذة في التنامي والتكاثف وكأنما تطير باتجاه نور المصباحين . لم يدرك بافل على الفور أن هذا ضباب . العجوز غالكين القابع وراء بافل انتفض من نومه وسأل بصوت فيه رنّة من عدم الثقة و القلق :

— ضباب ؟

— ضباب ، — أكد بتروخا مغتبطا ، — لعلّ هذا ... — ولم يعقد عزمه على إبداء رغبته بوضوح ، فاكتفى بنفض رأسه وإلقائه إلى الخلف —. ما فائدة البحث في الضباب ؟ . . .

وفي هذه المرة أيضا لم ير فورونتسوف من الضروري الإجابة .

غرز بافل مقدمة الباص أمام الماء مباشرة دون أن يميل به يمينا أو شمالا وكان أول الخارجين . كان القارب الآلي الرابض وراء سلسلة من القوراب يساراً غير بادٍ للعيان ، لكن الضباب كان مازال معلقا في الجوّ ، وكان شريط الماء في الأسفل مرئياً ، بقدر مايسمح الظلام ، بشكل جيد إلى حدّ ما . كان هدوء أصم ومتصل ينتشر فيما حولهم : لم يكن الماء يرذّ ولم يكن يصل إليهم صوت الهدير المألوف في المنعطف العلوي القريب لنهر انغارا ، ولم يكن السمك يبقبق بقبقته الوحيدة العابرة وهو يصحو من نومه ، ولم يكن الصفير اللعوب الطويل والمتسق لمجرى النهر الذي يمكن للأذن المرهفة أن تسمعه حتى في وقت غير هذا الوقت يعلووينساب في أي مكان ، وكانت الأرض صامتة كأنما كل شيء حولهم اكتسى جسدا ناعماً وكتيماً . صعدوا إلى القارب دون أن يسمعوا وقع خطواتهم وراءهم ، وشغّل غالكين المحرّك لكن هذا لم يجأر

كعادته جنيرا عريضا ولصوصيا صاما الجوار وممزقا طبلة الأذن ، بل اشتغل بصوت مخنوق حذر كأنه يسحب نفسا ، وكانت فرقعته تصل بصعوبة إلى أبعد من ثلاثين خطوة . وكان بتروخا آخر من وثب إلى القارب : قال لبافل يتباهى وهو يبتسم ابتسامة سعيدة :

— هززتُ فوروتيلا ، لم يتحرك ، نائم كالقتيل .

— لاتعرف إلا الولدنة ؟ — قال بافل عابسا .

— فليكن . إذا كنتَ حارساً فعليك أن تحرس لا أن تنام كالوحش . حين يصحو ويريد أن يخرج سيرى الباب مقفلا . سيكون عليه أن ينسلّ من النافذة ، وينسلّ فيرى أن القارب قد خُطف . وسيرقص وقتها فوروتيلا ، سيرقص ويالها من رقصة !

قهقه بتروخا ولما رأى أن ولْدنته لم تعجب بافل كثيراً إنسل إلى حجرة الرّبان التي يسميها الفلاحون « المحرس » .

تحركوا واندفعوا بالقارب إلى عرض النهر . وللحال اختفت الضفة وأطبق الضباب وهمى منه ما لايمكن تسميته حتى بالبَلاَل ، بل عرق رمادي لزج وخفيف كالغبار . شعر بافل كيف يثقل وجهه ولباسه وكيف يتشربان برطوبة كريهة ،لكنه لم يشعر برغبة في النهوض والمضيّ إلى المحرس بل اتخذ له مكانا خلفه على دكة أعدت لتكون مقعدا وأشعل سيجارة وأخذ يعبّ من برودة وقلق دخانها بلذة خاصة ونهم ، لكن قلقه لم يخف بل كان على العكس يشتد ويقوى . عمّا قريب سيصلون فما الذي سيحدث ؟ كل شيء في داخله كان يتجمد من هذا السؤال . ولم يكن بودّه أن يتابع إبحاره حتى ولو ألقيتَ به في الماء !

كان يندم أكثر مايكون الندم على أنه رضي بهذا الإنزال الليلي المباغت . كان قد نسي أنه لم يبق أمامه منفذ آخر . كيف ، كيف بالفعل واتاه أن يرضى ؟ وكيف كان بوسعه مع هذا أن يرفض وأمّه هناك ولايمكن أن يوكل أمر انتقالها لأحد سواه : فما كانت لتغفر له فعلته هذه .

كانت متيورا تستلقي على الجانب السفلي على بعد فرسخين من الضفة التي أبحروا منها . اتخذ غالكين مساره في عرض انغارا على الفور ، والآن كان يقود القارب على العمياء ، عشوائياً : فبعد خمس دقائق من إقلاعهم كانوا قد توغلّوا في ضباب كثيف ملتفّ بحيث كان يتعذر تماماً تبين أي شيء على بعد مترين أمامهم. وفطن بافل إلى أنه كان عليهم ، على الأرجح ، أن يسيروا في أول الأمر مع التيار قليلا ثم ينعطفوا عرضاً كي لايخطئوا الهدف ويقعوا بالتأكيد على متيورا ثم الالتفاف مع الضفة حولها والوصول باطمئنان إلى حيث يجب أن يصلوا . لكن الكلام في هذا الموضوع بات الآن متأخرا ، كان يجب أن يفكر فيه مسبقا . لكن لابأس ، فغالكين أبحر هنا طول الصيف وهو يعرف الطريق وسيصل مسوقاً بذاكرته ، بحاسته الداخلية . كان يقود القارب بحذر ، بسرعة قليلة . وتناهى إلى سمع بافل كيف كان فورونتسوف يطالب غالكين بزيادة السرعة ، لكن هذا لم يقبل وظلّت السرعة على حالها . فبأقصى سرعة ، وما أدراك ، لن تلبث أن تغوص في المياه الضحلة وبعدها حاول الخروج ! الميكانيكي هو المسؤول عن القارب . كان المحرّك يطقطق في مكان ما بعيد بعيد في الداخل بصوت يكاد لايسمع بحيث كان يُخيل أنه يطقطق تحت الماء . وبالمقابل كان يسمع بشكل

جيد أزيز الضباب المتمزق والنهر المتمزّق،وعلى وقع هذا الأزيز الناعم والرتيب راح بافل في غيبوبة محتبساً أنفاسه في قلق .

انتفض مذعورا حين جنح القارب عند منعطف واهتزّ . انتفض وهب واقفا ينظر إلى الضفة التي يتجه إليها غالكين لكنه لم ير شيئا على شدّة ماحدّق . كان الضباب ينتصب جدارا أصم وكان القارب ، كما بدا له ، يراوح في مكانه لايستطيع الخروج إلى ماوراء هذا الجدار الثقيل بل كان ينزلق المرّة تلو الأخرى عليه . لم يذكر بافل أنه وجد نفسه في وقت من الأوقات في ضباب كهذا ،علىهذه الدرجة من الكثافة والسماكة بحيث كان اللمعان الغائم للماء ينفذ بصعوبة كما لو أنه صادرمنبئر عميقة ومظلمة . انغرزت عيناه في هذه الكتلة الرمادية المتصلة وعلى الرغم منه ضاقتا وانغمضتا من هذا القرب . آن لهم ، إذا ما حسبنا الوقت ، أن يصلوا ، إلا أنه لم يبد أنهمعلى وشك الوصول . مضى بافل إلى « المحرس » وأدرك من الاهتمام والقلق اللذين كان غالكين يمطّ بهما رقبته ويحدّق في الهوة المظلمة على أمل رؤية شيء هناك أنهم ضلّوا . وماذا ، هذا ماكان يجب توقعه . الأذكياء ، وهذا واضح ، ما كانوا ليسافرون في مثل هذا الطقس الرديء ، فما بالك إذا كان السفر في الماء ! . وهو ، بافل ، كالطفل الصغير أيضا ــ سافر إلى حيث أُمر ، لم يحاول حتى الاعتراض . والآن ماذا ، لفّ ودُرْ إلى أن ترتطم بضفّة أو بأخرى . الأرجح أنهم مع هذا اجتازوا متيورا إلى أعلى ، والآن داروا حولها دون أن يلاحظوا وساروا مع التيار . هذا هو الذي حصل على الأرجح . وإذا كان الأمر كذلك ، يجب إذاً الانعطاف يميناًومحاولة ملاقاة متيورا من الجهة

الأخرى ، من جهة نهرها . أومأ بافل إلى غالكين بتردّد كمن يلمّح إلى نصيحة أن يميناً ، فانعطف هذا دون تردّد في هذا الاتجاه مسرورا أنه لم يعد وحده المسؤول عن المقود .

— كأنما طال الوقت ، — قال فورونتسوف الواقف عن يسار غالكين وقد أحسّ بشيء ليس على مايرام — أين نحن الآن ؟ لماذا تأخرنا هكذا ؟ هل ضيعنا الجزيرة ، أ ؟

— سنجدها ، — أجاب غالكين دونما ثقة .

تململ بتروخا الغافي في الزاوية على الأصوات ، ومدّ رأسه من الباب وهو ينكمش من البرد (كان يرتدي كما في النهار القميص المفتوح نفسه) .

— أوه ، ياله من ضباب ! — قال دهشاً وهو يغلق الباب وأخذ يفرك صدره بيديه طلبا للدفء . — لايقطّع حتى بسكّين . تهنا إذاً ؟ تهنا ، تهنا . . . قلتُ لكم . . . — لم يكن بتروخا قال أي شيء ذكيّ ولم يحذر من أي شيء ، ولكن كيف له أن يفوّت عليه الفرصة ولايلمّح إلى سلامة رأيه مع أن بتروخا نفسه لم يقل رأياً ولايعرف سلامته من عدم سلامته . ولم يفوّت بتروخا عليه الفرصة ، — يجب أن نكون سمكا كي لانضيع . عقول ! ! !

أبحروا أيضا نحو خمس عشرة دقيقة — مرتين أكثر مما ينبغي كي يقعوا من نهرهم على متيورا أو بودموغا . لكن لاشيء : لاضفة ، ولا إشارة ، ولا أي انفراج بل كتاة ضباب لزجة ولامتناهية ، صارت ،

كما تهيأ لهم ، أكثر كثافة وكأنها مرق مخثرّ . أدار غالكين وجهه إلى باقل يسأله ماالعمل ، إلى أين ينعطفون فأجابه بهزّة من كتفه أن لاأعرف .

— أطفىء ! — قال له بعد أن قرّ عزمه .

نهض غالكين وأطفأ المحرّك . صعد باقل إلى سطح القارب منصتا إلى حفيف الضباب والماء كيف يخفت ويسكن (الماء إياه لم يعد يُرى بتاتا) . أمسك الدكة التي كان يفتقدها وألقى بها . وتطاير من هناك رذاذ بصوت أصم لزج . هناك إذاً ماء . ولم يتمالك فورونتسوف نفسه :

— هل سنظلّ نسعى على هذه الحال طويلاً . أنتم ماذا ، هل تفهمون أولا تفهمون ؟ عماّ قريب الصبح ، يجب أن ننهي عملنا .

— لاتصرخ ، — قاطعه غالكين ، — نحن لسنا في اجتماع هنا .

ومن عجب أن فورونتسوف ضبط نفسه وصمت مدركا أنه بالأوامر لن يساعد في حلّ أي شيء هنا . إلا أن « لا تصرخ » هذه التي أغاظته لأنه لم يعتد أن يُخاطب بلهجة كهذه دفعته إلى قرار آخر ، فطلب من بتروخا قائلا :

— اصرخ !

— ماذا أصرخ ، — لم يفهم هذا .

— اصرخ ماتشاء ،ولو في طلب النجدة . هل يوجد هنا أحياء أم لا؟ ربمّا يسمعونك . أم إنكم تآمرتم جميعا عليّ ؟ هيّا !

ولم يمض بتروخا فوراً إلى مقدمة القارب مُظْهراً بذلك أنه فكرّ فيما أمره به فورونتسوف ووافق عليه ، ومن هناك تناهى إليهم :

ــ ألمي ، ياعمة داريا ، أين أنتم ؟ إي ــ إي !

لم يجب أي صوت . كان من المضحك أن يأمل المرء في أن يجيب أحد . فقد كان الضباب يمتص الصوت على الفور ويغرقه ، ولم يكن بمستطاع أي شيء أن ينتشله .

أداروا المحرك من جديد وابحروا متجهين إلى الضفة التي خمّنوها أخيراً بدقة كما تهيأ لهم ، لكنهم لم يجدوها فانعطفوا إلى ضفة ثانية وثالثة ولم يستطيعوا الرسوّ في أي منها . كل شيء اختفى وغاب في ظلمة الضباب الظلماء .

ــ هذا ما نستحقه ، ــ قال بافل بغيظٍ أخير ، بارد متوجّهــاً إلى فورونتسوف . ــ أي شيطان دفعنا إلى الإبحار ليلا ، أما كان يحسن بنا أن ننتظر حتى الصباح ؟

ــ لو أنك أتيت بهم نهارا ، لما اضطررنا إلى هذه السفرة ، ــ قال فورونتسوف مبرّرا .

سلّم بافل بالأمر : فليكن مايكون . لم يعد يوحي لغالكين بالاتجاه الذي يسير فيه ، يمينا أو شمالا ، وأخذ هذا يضرب من تلقاء نفسه إلى مكان ما ، إلى فراغ . استكان فورونتسوف وقد سلّم بالأمر هو الآخر . كان يجلس مطاطىء الرأس يحدّق أمامه بنظرة لامعنى لها من عينين حمراوين متوقدتين خلال الليل ، لكنه كان لاينسى أن يهزّ بتروخا الغافي إلى جواره من وقت لآخر . وكان بتروخا ينتفض ويخرج إلى مقدمة القارب ويصرخ بصوت أصم يائس يكاد هو نفسه لايسمعه مردّدا الشيء ذاته .

– يأمي ! ياعمة داريا ! إي ، متيورا !

ثم يعود ويتهالك على فورونتسوف بشكل أخوي ويعود إلى الغفو من جديد .

وأخيرا أطفأ غالكين المحرّك بعد أن يئس تماما من الرسو على برّ. عم هدوء شامل. من حولهم كان الماء والضباب، ولاشيء سوى الماء والضباب.

* * *

بكا الصبي بقلق ودون عزاء مستيقظا من نومه ، فصحت العجائز وتململن ناصباتٍ ظهورهن ومتنهداتٍ – فهن لم يجدن مكانا يتمددن فيه بل غفون جالسات كل واحدة في مكانها الذي اتخذته منذ الأمس وبقيت فيه بعد الحديث. أخذت سيما تدمدم شيئا لتهدىء روع الفتى . سكن الفتى ولم يعد يندّ عنه بين الحين والآخر إلا نشيج متقطع مخنوق . كان يسود قنّ بوغودول شيء لا يمكن أن تسميه ظلاماً ، بل عماء : كان يرتفع في النافذة ضوء غائم ورطب وغير شفيف كما لو كان تحت الماء ، وكان شيء ما لاشكل له يتحرّك فيه بخمول كأنما يسبح عابراً إلى مكان ما .

– ماهذا ، الليل ؟ – قالت كاترينا وهي تحدّق حولها .

– ليس النهار على أي حال . . . – ردّت داريا . – لن يكون لنا نهارٌ بعد اليوم .

– لكن أين نحن ؟ هل نحن أحياء أم لا ؟

– كأنما لسنا أحياء .

– حسن ، حسنٌ مادمنا معاً . وماذا يلزمنا أيضا ؟

– الفتى . لو نخرجه من هنا ، الفتى يجب أن يعيش .

وجاءهم صوت سيما المذعور والحاسم :

– لا ، لن أسلم كوليا لأحد . أنا وكوليا معاً دائما .

– معاً . كما تريدين ، معاً . صحيح ، أين يذهب بدوننا ؟

– ألم تتمدّدي ياداريا ؟

– أنا أجلس إلى جانبك ، ألاترين حقّاً ؟ هذا أنا أجلس .

– الآن صرت أرى. كنت أطير إلى مكان ما ، لم أكن موجودة هنا . لا أذكر شيئا .

– هناك حيث طرت ، هل هناك بشر أم لا ؟

– لم أر أحداً . كنت في الظلام ولم أتطلع إلى الضوء .

– وأنت من تكونين ، أنت التي إلى جانبي هذا ؟

– أنا ؟ أنا نستاسيا .

– التي من متيورا ؟

– نعم هي . وأنت داريا ؟

– داريا .

ـ تلك التي كانت ساكنة بجواري ؟

ـ بلى .

ـ لقد عرفتك ياشابة كما ترين .

ـ وأنا عرفتك من قبل .

ـ ماهذا الذي تتحدثان به ؟ هل أصابكما مسّ في عقلكما .

وأجابتا بصوت واحد :

ـ لقد مُسسنا . . .

وصمتتا لاتدري خجلاً أو ارتباكاً من كلماتهما غير المعقولة . كان تنفّس بوغودول الأبح الخرش يقص الصمت القلق الثقيل كما بالمنشار . وأخذت العجائز يرحن ويجئن إلى الأمام ، إلى الوراء مهتزّات على ايقاعه ومهدئات بهذه الحركة روعهنّ .

ـ هل يمكن رؤية شيء من النافذة ، فلتتطلع أي منكن ؟

ـ لا ، أنا أخاف . انظري بنفسك . أنا أخاف .

حدقّن في النافذة ورأين كيف تمرق في البصيص الخافت المبلّل جانباً كما بفعل حركة قوية عالية ملامح كبيرة وشعث تشبه الغيوم . ودلفت الرطوبة من البلّور المكسور . نزل بوغودول الصاحي من نومه عن أرضيته الخشبية والتصق بالنافذة . أخذت النسوة يطالبنه بالجواب :

ـ ماذا هناك ؟ أين نحن ؟ تكلم ، لماذا تسكت ؟

ـ لايُرى شيء ، عكروت ! ـ أجاب بوغودول ، ضباب .

رسمت العجائز إشارة الصليب وهن يتهامسن ويتدافعن بالأيدي .

وسمع من جديد صوت لكنه أكثر ضياعاً هذه المرّة :

— هذه أنت ياداريا ؟

— ومن عساي أكون . لكن أين نستاسيا ؟ أين انت يانستاسيا ؟

— أنا هنا ، هنا .

دلف بوغودول إلى الباب وفتحه على مصراعيه .اندفع من الباب المشرع ضباب كما من فراغ سحيق وسُمع صوت بعيد حزين — كان ذاك صوت السيد مودّعا .

عام ١٩٧٦

* * *

٣٠٠٠ ط١/٦/١٩٩٥

طبع في مطابع وزارة الثقافة

دمشق ١٩٩٥

سعر النسخة داخل القطر
١٣٠ ل.س

في الأقطار العربية ما يعادل
٢٦٠ ل.س